عُمر المهدي

رواية

الفِرْيَاني

حين يستحيل التراجع

مستوحاة من قصة حقيقية

مبتدأ للنشر والتوزيع

الفِرْيَانِي

رواية

عُمر المهدي

مبتدأ للنشر والتوزيع

العنوان : الفريـــاني
المؤلف : عُمر المهدي
الناشر : مبتدأ للنشر والتوزيع
رقم الإيداع : ٢٠١٧/٢٦٦٩٥
الطبعة الأولى ٢٠١٨

المهدي، عمر
الفرياني : رواية / عمر المهدي - القاهرة : مبتدأ للنشر والتوزيع، ٢٠١٧
٢٥٦ ص ؛ ٢٠ x ١٤ سم
١- القصص العربية
أ - العنوان ٨١٣

جميع الحقوق محفوظة للناشر

Mobtada Bookstore
email: mobtadabookstore@gmail.com
تليفون ٠٠٢٠٢٢٣٩٦١٠٥٥ موبايل ٠٠٢٠١١١٨٢٧٣٥٠٠
٢ شارع القاضي الفاضل، من شارع صبري أبو علم، وسط البلد، القاهرة.

يمنع نسخ أو اقتباس كل أو جزء من هذا الكتاب بدون إذن خطي من الناشر وإلا تعرض للمساءلة القانونية.

إلى حُور..

هـذا العمـل مُسـتوحى مـن أحـداث حقيقيـة حدثـت بالفعـل، عـدا أسـماء الشَّـخصيات والزَّمـان وبعـض الأماكـن، فهـي مـن خيـال المؤلـف.

ينـدرج العمـل تحـت تصنيـف أدب «الروايـة»، ولذلـك فقـد أُضيفت حبكـة دراميـة، مـن خيـال المؤلف.

تحذير

قـد يُمثِّـل هـذا العمـل إزْعاجًـا للبعـض؛ إذ يحتـوي عـلى صـور وطلاسِـم حقيقيـة أُقْتُبِسَـت مـن المخطوطـات ذاتهـا التـي أُسْـتُعمِلَت في القصَّـة الأصليـة.

لذا، وجَبَ التَّحذير.

ومضى ٣٧ يومًا..

لم يفهم أحد من الحاضرين في المدافِن يومها كيف علمت تلك الفتاة مُبْهَمة الأطوار بموت والدها، وبهذه الدَّرجة فائقة القُدْرة من الدِّقة؛ التَّاريخ، اليوم، السَّاعة، وسبب الوفاة. وإن لم يجدوا حتَّى في صدمة موته المفاجئ سببًا مُقْنِعًا يشي بمرضٍ ما خبيث كمن في داخله طوال هذه الفترة. لقد أتته غائلة الموت بغتةً، فقط، لأنَّ ابنته قد أخبرت بذلك!

بقدر ما حزنت الأُم وتألَّمت على فراق زوجها المفاجئ، ما بين ليلة وضُحاها، رَتَّع الفضول غياهبها نحو ابنتها فيما قالته قبلها بأسبوع واحد فقط. ذلك الأسبوع الذي استفاقَت فيه من غيبوبةٍ دامَت لثلاثة أشهر كاملة في حالة من الإغماء التَّخشُّبي (موت إكلينيكي) لم تشهدها العائلة من قبل، لينتفض جسدها فَرَقًا، تحمرُّ عيناها تمامًا كأنَّما قُدَّتا من حِمم بُركانية ثائرة، يتعرَّق مسامها بغزارة عَجَز الطَّبيب عن درأها ولا عن تفسيرها، وتقول في منتهى البساطة: سيموت أبي في السَّادس من نوفمبر، والذي سيوافق يوم الخميس قبيل صلاة العصر بثلاث دقائق!

كانت مدافِن باب الوزير في حالةٍ يُرثى لها، لا تسمع في أرجائها إلَّا التَّكبير وأصوات النَّحيب وهمهمات البُكاء وبعض القُرَّاء إذ يرتّلون ما تيسَّر من آيات القرآن الكريم. بينما انزوَت الفتاة في أحد الأركان وقد تولَّاها الصَّمت واعتمرها الهدوء ورافقتها الرُّؤى الجديدة حول مَصير كُلّ من الحاضرين، وما ستؤول إليه حياتهم وعلى أية حال

سيلقون خالقهم، تتفرَّس بعينيْها وجوههم وتستنبط من تفاصيلها وتعابيرها فيما يُفكِّرون، بل وبما يشعرون في تلك اللَّحظة. قد يبدو الأمر مُمْتعًا، أن تعرف بتلك الأشياء التي استأثرها الله في علم الغيب، ولكن لم يبدُ الأمر هكذا مع الفتاة.

في اللَّيلة الماضية استيقظتْ، وكانت قد فرغت لتوّها من حلمٍ طويل أرْجَف أوصالها، رأت فيه أمّها وهي تقف على شَفا مُنحَدر صَخري في صحراء فَسيحة، وظلٌّ أسود هائل الضَّخامة يحاول ويُناضِل لأن يدفعها إلى الهاوية، وقد سلَّمت له نَفْسها ورحَّبت به رفيقًا. جاهَدت الفتاة لإنقاذها لكنَّها فشلت فشلًا ذريعًا، ذلك عندما عانقت الأم الظَّل الأسود بترحاب ساذجةً، فدفعها من أعلى. سقطت على الأرض مكتومة الصَّوت.

كانت هذه الرُّؤية بمثابة رسالة واضحة المعالِم حملتها الفتاة لأمّها حينما استيقظت. فقالت لهَا ناصحة:

- «لمَّا بابا يموت.. ما تبالغيش في الحُزن عليه».

لم يتوقَّف سيل تنبُّؤاتها حتَّى بعد انقضاء الجنازة ومرور شهر على وفاة الأب. ففي أحد الأيَّام، وبينما تجمَّعت العائلة في حجرة شقيقتها لمناقشتها حول أمر عريسها الجديد المتقدم لخطبتها، القادِم من الإسكندرية. إذ فجأة، وفي وسط لغط الحديث واتِّفاق الأراء حول هذه الزِّيجة، شقَّت الفتاة صمتها وقالَت مُحذِّرة إيَّاها:

- «بلاش زكي يا أماني. بلاش».

لتحتدم أماني غضبًا وتثور عليها مُحتجَّةً في سخطٍ نَفَر عروقها من تحت جلدها..

- «لأ بقولك أيه يا بِت أنتِ.. الجن اللي راكبك ده مش ربنا علشان يقرر حياتي! روحي اتعالجي ولا غوري في أي داهية بقى وسيبينا في حالنا!!».

لم تُعرها الفتاة أدنى اهتمام. حتَّى أنَّها لم تتكبَّد رمقها بنظرة. عادَت لصمتها المُعتاد وغادرت الغُرفة، تاركةً وراءها أفواهًا متسائلة، وعقولًا متحيرة، وأعيُنًا مَذهولة مَخطوفة فيها ترقُّب مِمَّا سيحدث في الأيَّام المقبلة.

مضى شهرٌ على الخطبة. أغلقت أماني المكالمة السَّاخنة جدًّا مع خطيبها، وألقت بهاتفها على الأرض وهشّمته بقدميْها فائرةً ثائرةً تدور حول نَفْسها في تشنُّج..

«الخاااين ابن الكلب!! الوسخ!! يااا ابن الكاااااااالب!!!!!!».

تنبَّأت الفتاة بأمور أخرى كثيرة حول مَصائر شخوصًا بعينهم من العائلة. كان من ضِمن هؤلاء جدَّتي لأُمّي، حينما ذَهَبت لتأدية مناسك الحج بعد كِفاح مَرير لتدُرج اسمها بين حُجَّاج هذا العَام. تذكُر أمّي بأنَّ الفتاة كانت وقتها في غُرْفتها كالمعتاد وعلى حين غرَّةٍ تناهى لمسامعها صوت بكاءها، فهرعت أمّي إليها، ومن خلفها بقية أفراد العائلة، فوجدتها تجلس على الأرض ومُسْنِدة ظهرها على خشب السَّرير، وأعلنت للجميع بدون مُقدِّمات:

- «هانِت، كلها ساعات والأرض المُطهَّرة تحضنها من تاني».

في صباح يوم الجمعة، هاتفهم خالي من مَكَّة المُكرَّمة كمَا هي العادة لطمأنتهم على الأحوال. وكانت الصَّدمة ثقيلة الوطأة ومَهولة، عندما أعلن بكل حُزنٍ وأسى، عن وفاة جدَّتي أثناء سجودها في

الحـرم المـكّي، لتُفـضى روحهـا إلى بارئهـا طاهـرةً مُطهَّـرة مثواهـا الجنَّـة. الخـبر كالكابـوس، ولكـن إنْ أمعنـتَ في تفاصيلـه، فلـن تجـد خاتمـة أفضـل مـن تلـك الخاتمـة المُشـعَّة نـورًا وراحـةً.. وقـد تحقَّقـت النّبـوءة.. واعتلَّـت صاحبتهـا عـن النَّـاس لفـترة طويلـة إلى أن تهـدأ الأمـور.

بدا الأمر مُريبًا حقًّا، وغريبًا جدًّا، بل وموغّلًا في العَجَب!

* * *

حينـما اسـتمعتُ لقصّتهـا للمـرَّة الأولى، بشـكلٍ مُتقطِّـع، انتابنـي الحـماس لأعـرف الـسِّر وراء هـذه القُـدرة العجيبـة التـي ازدانـت بهـا دونًـا عـن سـواها مـن فتيـات حـارة الفِريـاني. جلسْـتُ تـارَّة مـع أمّـي فقصَّـت لي نسـختها مـن القصَّـة، وجلسـتُ مـع خالتـي وبناتهـا وقصصـنَّ لي مـا سـمعه بعضهـنَّ ومـا رأتـه إحداهـنَّ رؤيـة العـين فيـما حـدث وقتهـا. فسـمعتُ أهـوالًا، وأشـياء يعجـز العقـل عـلى تصديقهـا، ترتجـف لـه الأوصـال. وتلبَّسـتني الرَّغبـة في أن أصنـع بقصَّتهـا عمـل أدبي، وتشـغَّفتُ للغايـة لأعـرف مبعـث ومنشـأ القِصَّـة.

اقْتَرَحَـت لي إحداهــنَّ بــأن أُهاتِــف المــرأة -صــارت امــرأة الآن- وأسـتَأذِنَها كي تكـون بطلـة روايتـي القادمـة، فلم أتـردَّد البتَّـة، وهاتَفْتَها في شـهر يوليـو المنـصرم. وأوَّل مـا أجابتنـي بـه فـور سـماعها لصـوتي، مـا أرجفنـي وأسـقط قلبـي في قدمـي: إن كنـت سـأكون بطلـة لروايتـك، يـا فنَّـان، فلتُسـمِّيني أسْرَار. أعشـق هـذا الاسـم.

جالسـتها عـلى انفـراد في اليـوم الأوَّل مـن عيـد الأضحى المبـارك للعام ٢٠١٧، في حجـرة المعيشـة (الخاوية وقتها) لشـقَّة خـالي في حارة الفِرياني، ورَوَت لي كُلّ مـا حـدث معهـا تفصيـلًا، مـن الألـف لليـاء، وبـدون أي

حـرج أو تـردُّد. روَت لي القصـة كُلَّهـا، وصرَّحـت لي بقبولهـا للعمـل الـرُّوائي، لكنَّهـا طلبـت منّـي أن اسـتأثر مشـاهِد مُعيَّنـة وألّا أرويهـا، أو إنْ رغبـت أن أفعـل، فأُغـيِّر في مُحتواهـا قليـلًا مـع الإبقـاء عـلى محورهـا الأسـاسي.. عـدا ذلـك، فـكل مـا سـتقرأه في الصَّفحـات القادمـة، قـد حـدث بالفعـل.

كيف بدأ الأمر كلّه؟

لا مَغْزَى من الذَّهاب إلى أرض السِّباق إذا لَمْ تكن خَيَّالًا..

١

مَـا إن لامَسـت قـدم أسْرَار الدَّرجـة الأولى لسـلّم الطُّـوب المُعفَّـر المُتهالِـك الصَّاعِـد إلى بـاب الشـقَّة باهِـت اللّـون، حتَّـى انْفَـرَج الوهـجُ الوضَّـاءُ مـن عَتمـة بِـير السـلّم المُفزْعـة بدورهـا، وصَـار يدنـو مـن نُقطـةٍ مـا، خُيِّـل لأسْرَار بأنَّهـا بعيـدة تمامًـا ولا تتَّسِـق عقـلًا ومَنطقًـا مـع بِـير قديـم مُهمَـل لا تتَّسـع مسـاحته سـوى لدرَّاجـة هوائيـة لطِفـل لا يتجـاوز العـشر سـنوات. كانـت هـذه واحـدة مـن اللَّيـالي ثَقيلـة الوطـأة عـلى الحـارَة النَّابِضـة دائمًـا، العَامِـرة برجرجـة الخلـق وصَخـب أصواتهـم ودوي شَـجَن فـيروز المُنبَعِـث مـن أجهـزة الرَّاديـو المتراصـة عـلى نـواصي نوافـذ الأدوار الأرضيـة وفي الدَّكاكـين المُتاخِمـة لبعضهـا البعـض.

ولكـن في هـذه السَّـاعة المُتأخِّـرة جـدًّا، ولسـوء حـظّ أسْرَار الأكْهَـب، تضائلـت الحركـة في الحَـارة، وخفتت أصـوات الباعة اللَّاهثـين الحَريصين عـلى فتـح دكاكينهـم عـلى مَـدار اليـوم، واضطربـت فـيروز وتحشْرَجـت نبرتهـا، فبـدت أولًا كَغريقـة تُناضِـل لأجـل الهَـواء، ثـم تحوَّلـت تدريجيًّـا إلى هَمَسَـات أقـرب مـا تكـون لعـواء مُسْـتَذئِب يـصرخُ بفَجَـع في إحدى جلسـات انْتِـزاع الجـن عـلى أيـدي أحـد الدَّجَّالـين، كل هـذا تزَامَـنَ وتوافَـقَ مـع اقـتراب الوهْـج مـن أسْرَار؛ مِشـكاة مُلتهبـة مَحمُولـة مـن شـخصٍ مـا لا يـزال مُبهَـم الهيئـة والملامـح، مَبلـوعٌ في الظُّلمـة الحَالِكـة، تُسْـمَع أنفاسـه مُختلطـةً بدَبِيـب أقدامـه إذ يتحـرَّك بتثاقُـلٍ.

وَمْضة من الهُدوء سَادت المنطقة، في حين ارتفعت خَفَقات قلب أسْرَار المُنْدَهِشة من سِر ذاك الوهج القادم من بعيد. إذ، وبفضول عشيرة من القطط، أدارَت رأسها نحو البِير، وخَطَتْ قدماها خطوة للأمام، حذرة ومُتوجِّسة، وطَفَقت تمْسَحُ عينيْها عدَّة مرَّات كي تتأكَّد أنَّها لا تتخيَّل، أو أنَّ للخَمْر الفاسِد بَشع المذاق دورًا في الأمر.

ولكن بَدَا الأمر حقيقيًّا تمامًا، المِشكاة تقترب، وتبرزُ اليد الحامِلة لَهَا شيئًا فَشيئًا وتنجلي أكمامُها الصُّوفية الواسعة. وإذا كذبت العينان، فإنَّ الأنف حتمًا لا تكذب! فقد فَاحَت رائحة عِطر قويٍّ مُخدِّرٍ لا يتحمَّله بَشَر، جاذِب وساحِر كفتاة باريسية إلى أقصى حَد.. مَن ذا الذي يتعطَّر ويختبئ في بير السلّم في هذا الجُنح المُتأخِّر من الليل؟

خَرَج صوتها مُتَقطِّعًا تسأل ذلك الشَّخص المجهول: «مـ.. مين؟ مين اللّي واقف هِناك؟». ولا رَد. فقط يتحرَّك ويقترب كأنَّه يَسير في مكانه دون أن يخطو خطوة واحدة للأمام!

هل حقًّا ظنَّت أنَّه -إنْ كان يختبئ- سيُجيبها بتلك السُّهولة؟ هل خُيِّلَ لها، إنْ كان هذا «الشَّيء» بَشرًا مِثلها، سيُقابِلها بردٍّ يُشفي فُضولها بهذه البساطة؟ هل بالفعل يسير الأمر على هذا النَّحو في مواقفٍ كهذه؟ أن تَعود من مقرٍّ ما مُجْهَدًا مُتْعَبًا من ضغط عَمل إلى مَضْجعك لتنال قِسطًا لا بأس به من الرَّاحة، دون حتَّى أن تُفكِّر في أي عَقَبات قد تلقاها عَثرةً في سُراك، ومن ثَمَّ تدخل من بوَّابة العِمارة الصَّدئة وتلمح شيئًا كهذا الذي تقف أسْرَار إزاءه، هل تعتقد أنَّ الأمر طبيعيًّا لكي تُفكِّر أصلًا في اختلاق أية أسئلة وتتوقَّع رد صَريح؟ مثلاً: أجل.. أنا الشَّبح.. لقد أتيتُ لألتهمك وأنهي حياتَك البائسة!

ولكـن، إنَّ مـا تُبـصره أسْرَار ليـس بشـبحٍ، بـل وجـه بَـشري سُـلِّط الضّـوء عليـه بغتـةً، لا يُعـرَف إنْ كان يخـصُّ رجـلٍ أو امـرأة، فقـط وجـه جَميـل نوعًـا مـا ذو ملامـح مُتغضِّنـة يُحـدِّق فيهـا، يَمتـصُّ فمـه الدَّقيـق بسرعـة جُنونيـة كَرضيـع ويُصـدِر بـه صَوتًـا مُزعجًـا، تخـرُج أنفاسـه كَثيفـة كمنخـري حصـان في مَعمعـة البَرد، ويمـدُّ بيـده الأُخـرى راحتـه لأسْرَار المَذْعـورة، كأنَّـه يطلـبُ مِنهـا شـيئًا مـا هـي لا تسـتوعبه ولا تُريـد أن تسـتوعبه.

ابتلعـت أسْرَار ريقهـا بصعوبـة، واتَّسـعت حدقتاهـا ذعـرًا وارتعشـت شـفتاها هَـولًا، تغـزَّل العَـرق عـلى جبْهتهـا وشـقَّ طريقـه إلى وجنتيْهـا ثـم إلى قميصهـا الضّيـق الأرجـواني. أرادت أن تُكـرِّر سـذاجتها وتسـأل الشَّـخص عـن كينونتـه، لكـن عُقِـد لِسـانها واضطربـت نفْسـها، وباتـت عـلى شَـفا الأزمـة القلبيـة مـن الفَـزَع مـا أن اقـترب أكـثر.. وهـو الأمـر الـذي حـدث بالفعـل، بـل أنَّـه أمسـك بقبضتـه ذراعهـا بقـوَّة ضاغِطـة مؤلِمـة للغايـة، فأطلقـت صرخـةً عاليـةً مُرعبـةً تـردَّد صداهـا بأنحـاء الحـارة كُلّهـا!

لقـد رأت أسْرَار أشـياءً كثـيرة لم نَرهـا نحـن، مَـضى بهـا الزَّمـن وئيـدًا بَطيئًـا للغايـة ولكـن سَريعًـا مَعنـا، تلقَّـت الرِّسـالة وكَتمتهـا في صدرهـا لعـدم إدراكهـا لِـمَا حـدث، فقـط الصَّدمـة، ثـم الصَّرخـة العاليـة، التـي ازدادَت أكـثر. ومـا أدناهـا مـن الهـلاك المحتـوم بتوقُّـف عمـل القلـب، حينـما رَماهـا «الشَّـخص» بمـادَّةٍ مـا حمـراء قاتِمـة سَـلَخ بهـا الجُـزء العُلـوي مـن ظَهْرهـا، مُتَّقدتـان عينيْـه كالتَّنُّـور، صارخًـا بأقـصى مـا لديـه هَلعًـا مِنهـا هـو الآخر، تـاركًا ذراعها ومُتقافِـزًا في مكانه كقُنْـدُسٍ حائرًا في الهُـروب، عَلامـات الفـزع تُمـزِّخ وجهـه.. ربما هذه هـي المـرَّة الأولى التي

يُبصِر فيها بشرية تصرُخ؟ ولهذا السَّبب دافع عن نفسه بإلقاءه تلك المادَّة الحمراء؟!

لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا، مَعنا، حتَّى شقَّ صُراخ أمّها العِمارة وهي تُهرول خلف زوجها إلى حيث صُراخ ابنتهما، مخطوفيْن الوجه، ومَدفوعيْن بعدد لا بأس به من سُكَّان العِمارة النَّاعسين، والفُضوليين مِنهم. وتجمهَر النَّاس حول أسْرَار من كل حدبٍ وصوب، الآن وقد حضر الجميع ليُنقِذ الموقف في اللَّحظة الأخيرة، ليجدوها مُلقاة على الأرض مُغشىً عليها مُنقطعة النَّفس، مُتعرِّقة المَسام، وعلى ظهرها علامات واضحة للغاية من هذه المادَّة الحَمراء!

لا أحد يعرف ما حدث. الكُل في حالة صَدمة مُقْذِعة ولا مَحال لتدارُك الموقف. ارتمَت أمُّ أسْرَار على الأرض تنتحب، وزوجها راكعًا على ركبتيْه يُحاول جاهِدًا أن يسعف ابنته المُرسى رأسها بين ذراعيه، ثم صاحَ في الجميع فاقدًا أعصابه مُصابًا برجَّة الخوف:

- «بدل ما أنتوا بتتفرَّجوا كده.. هاتوا مياه بسرعة!!!».

بينما لبثت الأُم تلطُم على وجنتيْها والذُّعر مُتَولِّيها ومُتَمكِّن مِنها ببراثنه يأبى أن يُريها الصُّورة بوضوح، فقط رؤية مُشوَّشة من فرط الخوف، الأب يرشُّ المياه على وجه أسْرَار، يلطمها عِدَّة لطمات بكفّيْه، يتحسَّس بأذنه صدرها ويجسُّ نبضات قلبها الخافِتة أكثر من اللَّازم، ليقترح أحدهم بأن تُنقَل أسْرَار إلى أقرب مَشفى وفي غاية السُّرعة!

إنَّ العينَان مَفتوحَتَان نصف فتحة ولكن لا تريا شيئًا، تينْكَ العينان اللَّتان لم تكن هذه هي المرَّة الأولى التي تُبصران فيها شيءٍ كهذا، بل إنَّ صاحبتهما لَهَا حادثة سابقة نَشَبت منذ زمنٍ طويل وفي نفس هذه

العِـمارة، وهـو مـا ينْفـي ويدحـض وينقُـض فِكـرة أنَّ مرضًـا نفسـيًّا هـو الـذي أدَّى لِـمَا رأت. الأمـر بَعيـد كُلّ البُعـد عـن الهـلاوس.. فـلا يُمكِنـك أن تـرى نفسـك في المـرآة، في يـومٍ مـا مَلعُـون، ويُخْـبرك وجهـك بـأنَّ موعِـد وفـاة الجـدَّ الأكبر في يـوم كـذا.. وتتحقَّـق نبوءتـه حَرفيًّا وفي نفـس اليـوم والسَّـاعة التـي حدَّدهـا!

هـل هـي فعـلًا مَخبولـة؟ هـل تُعـاني مـن مَـرَضٍ أو لوثـةٍ مـا تنخُـر خلايـا عقلهـا فُتصيبهـا بالإعيـاء النَّفْـسي؟ كيـف يُمكِنـك أن تَجيـب عـلى أسـئلة كهـذه بشـكل عِلمـي.. وقـد صرخ الحـاج سـيد، صاحـب دُكَّان «الأمـل» الكائـن بجانـب العِـمارة مُبـاشرةً، مُشـيرًا باصبعـه ناحيـة جُـدران الحُـوش، المُلَطَّـخ بمـادَّة مـا حَمـراء قاتِمـة أذابَـت الطَّبقـة الخارجيـة وأظْهَـرَت المحـارة!

تعالى الصَّخب واختلطت الأصوات:

- «يا ساتِر يارب سلامٌ قول من ربٍّ رحيم!»
- «يـا جماعـة البِـتّ دي مجنونـة أنـا شـوفتها قبـل كِـده وهـي بتـضرب نفسـها في الشَّـارع.. أه واللـه!»
- «ما هو كُلُّه من سيرتها الهِباب ومن أفكارها»
- «تلاقيهـا يـا عينـي مَسـحورة.. ده السِّـحر مذكـور في القـرآن يـارب احفظنا!»
- «هنعرف كُل حاجة لَمَّا تفوق.. إنَّ الله مع الصَّابرين».

وعـلى سَـطح العِـمارة الحَجـري الخـرب، تـردَّد نَعيـق الغِربـان، وحَلَّقـت حَـول الحَـارة في انتظـار ضَحيَّـة جديـدة.

* * *

٢

بَـزَغ النَّهـارُ مُتكـدِّرًا شـاحِبًا كالنَّحيـب مـع شيء مـن الجَفـاف في الجـو يـشي بدُنـوٍّ بدايـة الصَّيـف، مُمتزِجًـا بروائـح وصُنَـان مَهْجـع ومَقـر القُمَامـة المُكدَّسـة بغـير انتظـام فـوق أسـطُح الخَرابـة الفَسـيحة شَرق العِـمارة، حيـثُ المـلاذُ السَّـهلُ الـذي يفضِّلْنَـه نِسـوة البَلَكونـات لإلقـاء مُخلَّفَـات المطابِـخ وبَقايـا الأطعمـة الفاسـدة ومـا نجـى مـن ألعـاب الأطفـال المُتهشِّـمة. لا أحـد مـن سُـكَّان حـارة الفِيريـاني يعبـأ بهـذه الخَرابـة، ولم يعـد يُفكِّـر أحدهـم طيلـة العـشرون سَـنة الماضيـة في إبـلاغ مركـز البَلديـة أو أحـد المسـؤولين لإخلاءهـا وإعـادة بِناءهـا كي تصلُـح للتعايُـش مـع الخلائـق بشـكلٍ سِـلميٍّ، فالبَلديـة لا تسـتجيب للشـكاوى والطَّلبـات المُلِحَّـة وتُـدرِج ردود سَـخيفة واهيـة مـن عينـة «يبقـى تعـالى بكـرة وربنـا يسـهِّل»، فتَخَلَّـق لـدى أهـل الحـارة نـوع مـن البَـلادة وعـدم الاكـتراث والكَسَـل، وأصبـح الأمـر واقعًـا تعايَشـوا معـه وتعايَـش معهـم، جُـزءًا منهـم ومـن ثقافتهـم، وانطـوى في طـيّ النسـيان.

كـثرت الألسـنة والقصـص والحِكايـات بـين سُـكَّان الحـارة حـول هـذه الخَرابـة وفيـما كانـت ومَـا تزال تُسـتَخدَم هـذه الأيَّـام. قيلَ بـأنَّ الخَرابة ليسـت إلَّا وكْـرًا خَبيثًـا يلتجـئ إليـه ويقصـده الحُسَّـاد لوضـع أعمالهـم الماكـرة ضررًا ونِكايـةً لمَحسـوديهم. وذهبـت بعـض الأقاويل إلى ممارسـة السِّـحر والدَّجـل والشَّـعوذة ليـلًا بـين ثناياهـا واسـتحضار أرواح المـوتى

والتَّواصُل معهم عن طريق تلبُّس الرُّوح للكاهِن الأعظم والتَّحدُّث بلسانه. وهنالك مَن زعم بمواراة المجرمين لضحاياهم في مقابر سِرِّية لم يُعثَر عليها بَعد. والكثير والكثير من الأخبار الغير دقيقة التي لم تُثبَت صِحَّتها إلى يومنا هذا. ولكن النَّاس تجد في الحِكايات سُهولة ومُرونة لقضاء وإشباع فراغهم بدلًا من إحضار أدلَّة مادية تؤازر أقوالهم، والمُتلَقّون يُصدِّقون كل كلمة تُقَصُّ عليهم سُذَّجًا؛ فالعَقْل الذي تم تدريبه على الحِفظ والتَّلقين دائمًا ما يجد صعوبة ومَشقَّة حالِكة في تمحيص الأقاويل، ومن باب الكَسْل، واستهواء النفس لها بدافع السُّهولة، يقبل بها وينقلها للأجيال القادمة، فالمنطق مُمل، بينما الأساطير مُثيرة للذهول، وهكذا يسير الأمر في الحارة.

سِحر وأعمال وحَسَد ومقابر جماعية. كلمات مُرْسَلة مُعَنْعَنة دون إسنادٍ كهذه لم تكُن لتعبُر خلال عَقْل حَسن ذو الميول التَّحرُّرية، ابن عَم خيري صَاحب عربة الفول التي تُظلِّل ناصية الحَارة وتؤنسها، ويتهافَت عليها النَّاس من مختلف الأعمار والمَشَارب ومن كل حدب وصوب كأنَّها الجنَّة الصَّباحية التي لا يستقيم اليوم إلَّا باستنشاق جُرعة لا بأس بها من رحيقها ومن خيراتها.

حَسَن خيري، لهو شاب يافِع طويل القامة، وسيم حَنَطي الوجه، أسود الشَّعر والعينيْن، فيُّومي الأصل، قاهِري اللِّسان والقَدَر، فيه مَسحة من ذكاء يؤهِّله لرفض كل ما هو غير مُقنِع، ولا يُساير العَقْل والمنطق، ولا يتساوق مع عصر التَّقدُّم العِلمي والصُّعود للقَمَرْ. كان في كل مرَّة تُذكَر في الحارة إحدى هذه القِصص التي يعتبرها سَخيفة وضربًا من الهُراء الفِكري الرَّجعي، يتسلَّم فيها دَفَّة الحديث ويُناضِل ويُكافِح لأجل إقناع سارِد القصة والمُتلقِّي المندَمِج مَعه عقلًا ومَنْطقًا

ببطلان هذه التَّخرُّصات والأخبار الكاذبة التي لكان أولى به أن يُصدِّقها هو إن آتاهُ أحدهم بدليل مادّي. ومَا كان على السَّارِد إلَّا أن ينفعل، ويحتدُّ شيئًا فشيئًا، ويُزعِّق ويخور مِثل ثور دِفاعًا عن القصة، بل وفي بعض الأحيان، يصل الأمر للتشابُك بالأيدي والتَّنابُذ بالألقاب وأقذع الشَّتائم وأشنعها وطأة على مَسامِع الصَّغير والكَبير بلا استحياء، ومن ثَمَّ يتمّ استدعاء أبيه لينهال عليه ضَربًا دون أن يفهم ما جرى ويجرُّه من تلابيب ثوبه المرقَّع إلى بيتهم الصَّغير في الزُّقاق المُجاور.

وما إن يهدأ روع عم خيري وتخفُت مَراجل الغضب بداخله، يضرب ابنه ضربةً خفيفةً على قَفاه ويُعنِّفه، ويشرح له بمدى جُرْمه وغباءه بالعبث في مُعتَقدات ومُقدَّسات النَّاس التُّراثية، وأيضًا الدينية..

- «يابني ده الحَسَد والجن مَذكورين في القرآن.. الناس هتفهمك غلط يا ابن الجاموسة!».

ليُدير حَسن وجهه إلى أبيه، ويُصِرُّ بحرقة في حلقه:

- «أه مَذكورين في القرآن.. بس مش ده التفسير الصَّح اللي النَّاس فاهماه يابا!».

يحاول خيري إقناع ابنه بكافَّة الطُّرق:

- «يا بني آدَم افهم! كل الفقهاء الكبار أجمعوا على تفاسير مُعيَّنة للحَسَد، ليه إنتَ بتنشِّف راسك وبتناطِح وخلاص؟ وبعدين الجِن موجود بيننا يابني.. روح شوف اللي بيحصل لأسْرَار بِنت عَم سَعْد وتعالى اتكَلَّم!».

بِلا اكتراث، وبنبرة استهزائية، يقول حَسن:

- «دي واحـدة مَريضـة نفسـية وكُلنـا عارفـين ده كويـس.. بـس أهلهـا الـلي جَهَلـة!».

يصيح خيري بعزم ما فيه:

- «مَريضـة مـين يـا بَجَـم ده أنـتَ الـلّي مَريـض وسـتّين مَريـض كـمان! أنـتَ ماشـوفتش الحاجَـة الحَمْـرَا الـلي صابِتْهَـا؟ لسَّـة آثارهـا موجـودة عـلى ظهرهـا وعـلى الحيطـة. إيييييـه! هتجيـب بتاعـة مِنييـين وتهـد بيهـا الحيطـة بـالإوَّة دَايْ!».

تتدخَّل الأُم مؤمِّنة على كلام خيري:

- «أي واللـه يـا حبيبـي.. ده الحيطـة قسـمًا بجـلال اللـه بَجِـت عـلى المَحـار! والبِـت يـا حبّـة عـين أُمْهَـا.. جِلدهـا شـقَّق كإن حـد سَـلَخْهَا بسـاطور بـدم بـارد!». ذمَّـت الأُم عـلى شـفتيْها في أسى، وتَلَـت لأسْرَار بعـض الأدعيـة ليُفـرِّج اللـه عـن كربهـا، وليَنفَـك ذلـك العَمَـل الخبيـث المربـوط بِهـا كـمَا يُشـاع عنهـا.

لم يجـد حَسـن مـا يقولـه الآن. للمـرَّة الثَّالثـة عـلى التَّوالي لا يسـتطيع إيجـاد ردًّا عِلميًّـا مُناسِـبًا عـلى مـا حَـدَث. كل الأدلـة -القصصيـة- تُشـير إلى عُنـصر خـارق للطبيعـة وبدرجـة كبـيرة مـن الصِّـدق تُفـسِّر مـا حـدث، وإلَّا كيـف لفتـاة هَزيلـة أن تفعـل بنفسـها شـيئًا كهـذا؟

لم يعد يكترث.. فلتذهبوا جميعًا إلى الجَحيم أنتم وقصصكم!

لِـمَ ينبغـي عليـه أن يعمـل على تغيير العُقـول وازدراء النَّـاس وإثبات أنَّهـم كالأنعـام بـل أضل سـبيلا وهـو العاقِـل المُتعقِّـل.. ونَفْسُـه أولى لأن

يثـور عليهـا ويُناضِـل لأجـل تحقيـق نجاحـه الخـاص؟ وأنَّى لـه ذلـك، وهـو الشَّـابُ الطَّمـوح، الكَسُـول، الـذي يكتفـي جَسـدًا بمعاونـة أبيـه في عربـة الفُـول، والشَّـاطِح السَّـارِح بخيالـه فقـط إلى أبعـد مَـدى مـن الأحـلام. عليـه فقـط أن يتَّخِـذ قـراره ويصـير رجـلًا بحـق ويبحـث عـن عمـل في مـكانٍ آخـر، يجـدُر بـه أن يُحـوِّل أحلامـه لأفعـال قبـل فـوات الأوان، حتَّـى وإن بـدا الأمـر شـاقًّا في بادئـه، ولكـن مـا أن بَلَـغ، هَنـأ بحياتـه وسـعد وحصـل عـلى الرِّضـا الدَّاخـلي ليتفاخَـر بـه أبيـه طـوال النَّهـار. تمامًـا كـمَا يفعـل عَـم سَـعْد مـع ابنـه هَيثـم في كُل مـكان يذهـب إليـه، حتَّـى صـار تفاخُـره هـذا كعلكـة يلوكهـا عـلى قارعـة الطَّريـق دون تمييـز!

ففـي كل يـوم، ومـا إن تُـشْرِق الشَّـمس فـوق جنبـات الفريـاني، يـأتي عَـم سَـعْد قبـل أن يُيَمِّـم إلى عملـه ليحصـل عـلى وجبتـه الصَّباحيـة من عـم خـيري ويُحـضِر معـه ابنـه هيثـم، يجْلِسَـان إلى إحـدى الطَّـاولات البلاسـتيكية الهزيلـة وينتظـرَان حَسـن ليـأتي لهـما بمـا طلبـا.

وكان هيثـم لا يـزال شـاب حَديـث التَّخـرُّج مـن كليـة التِّجـارة، برتبـة الامتيـاز مـع مرتبـة الـشَّرف، أنيـق دائمًـا ومُهَنـدَم في ملابسـه ويفـوح منـه عِطـر يَـشي برُقـي مكانتـه بـين سُـكَّان الحَـارة، فهـو تقريبًـا، الوحيد النَّـادِر الـذي حصـل عـلى شـهادته الجامعيـة بعـد كـدحٍ لا مَزيـد عليـه طـوال حياتـه.

وضـع حَسـن الصُّحـون المُرتَّعـة عـلى آخرهـا بالفُـول والطَّعميـة والجرجـير والسَّـلاطة أمـام كُلٍّ مِنهـما، بينـما كان عَـم سَـعْد لا يـزال تنتفـخ أوداجـه تفاخُـرًا بابنـه قائـلًا بصوتـه الأجـشّ الجَهُـوري:

- «هـو ده ابنـي حبيبـي، الـلي اتـربَّى أحسـن تربيـة واتعلِّـم أحْسَـن

عَلام.. تخرَّج بامتياز مع مرتبة الشَّرف يا ناس!».

ومدَّ يده يُطبْطِب على كتفه وأضاف بفيض حَار من الحنان:

- «كُلْ يـا حبيـب قلبـي.. بالهَنَـا والشِّـفا. أحـلى طبـق فـول مـش هتاكلـه غـير مـن عمَّـك خـيري. كُلْ كُلْ!».

ومـا كان عـلى هيثـم إلَّا أن يبتسـم في وجـه أبيـه بلطـف، يومـئ برأسـه سَـعيدًا، ويغطـس في طبـق الفـول بالزيـت الحَـار الـذي أمامـه مُسـتمتعًا إلى آخـره مُنتشـيًا.

أطلَّ عم خيري من أعلى عربة الفُول ناصِحًا عَم سَعْد:

- «بسـم اللـه ماشـاء اللـه يـا حـاج. ربنـا يباركْلَـك فيـه، ولـو بيـدّي يعنـي أنصحـك لوجـه اللـه.. داري عـلى شـمعتك تِقيـد». مُرتديًـا ابتسـامته الواسِـعة التـي لا تنخلـع عـن وجهـه أبـدًا طـوال فـترة العَمَـل.

ليرد عَم سَعْد ردّه المعتاد:

- «ونعمـة باللـه يـا عـم خـيري... بـس أعمـل إيـه؟ مـن فرحتـي مـش قـادر أكتـم جوَّايـة.. يـا جـدع سـيبها عـلى اللـه ربَّـك الحـارس».

ضاحِـكًا وأسـنانه مُخضَّبـةً ببقايـا الطَّعـام قالهـا، وهـو لا يـزال يُداعِب ابنـه الحَبيـب، قُـرَّة عينـه، الـذي راهَـن الجميـع عـلى نجاحـه وتفوُّقـه عـلى أقرانـه وقـد فـازَ فـوزًا مـؤزرًا.

لطالمـا كان عَـم سَـعْد يُحـارِب كل مَن يؤمِن بتلـك النظرية الإجتماعية التـي تربـطُ بـين الفَـرد وتقدُّمـه أو تأخُّـره بالحالـة الإجتماعيـة التـي وُجِـدَ عليهـا. لقـد صـارت الآن مُجـرَّد نَظريـة مَدحوضـة فاشـلة في نظره. فهيثـم، الـذي نَمَـا في بيئـة ضَنينـة بالوعـي، مُقفرة ثقافيًـا، فَقـيرة أخلاقيًّا،

ينتشر البَلطجيَّة وتُجَّار المُخدّرات والكِيف في كل بُقعة وفي كل زاوية من زواياها، وفوق كل هذه الأشياء المُثْبِطة لأثْخَن عَزيمة والجارَّة للرزيلة، شبَّ هيثم قويًّا سَليمًا ولم يتأثَّر، ونجح دراسيًّا واستطاع أن يُبزِغ نجمه ويُحلِّق عاليًا مُعْلِنًا عن أفضليَّته عن أي رجلٍ هُنا.

كل هذا وحَسَن يحدج هيثم بقدحٍ بالِغ. إن كان في وسعه أن يقلب الطَّاولة بمَن فيها لفعل دون أدنى تردُّد.

من باب الواجِب والجيرة، تسائل عم خيري عن أسْرَار، بأسى بالغ، فأجابه سَعْد وقد تغضَّنت أساريره وأرخى سُدوله نحو قدميْه لمَّا مرَّ شَريط الحادثة المُريبة أمامه لثوانٍ ولم يكن وجد تفسير مَنطقي بعد:

- «نحمد ربنا إنَّها بخير. والله ما عارف أقولك إيه يا عم خيري. إحنا طلعنا بيها على المستشفى والدَّكْتُور قال إنَّها سَليمة بس عندها نقص اللي بيسموه ده.. اسمه إيه ده يا هيثم؟».

- «فيتامينات يا بابا». تلفَّظها هيثم إذ يمضُغ، ثم عادَ مرَّة أخرى مُستأنِفًا صحنه.

تابَع سَعْد:

- «أيوة هي الفيتايــ دي. و.. بس. أهي متلقَّحة من ساعتها في البيت ونوعًا ما حالِتها بتتحسِّن ولا كإن حصلّها حاجة. أنا هتجنن والله وأمّها قاعدة بتضرب كف على كف!».

- «طب جرَّبت تودّيها للشيخ ناصِر يا أستاذ؟».

وسكت عم خيري وهو يُخرِج طلبية أخرى ويأمر ابنه أن يضعها على الطَّاولة المجاورة، ثم أضاف ما ودَّ أن يقوله من البداية:

- «ده بيقولوا الشيخ عنده بركات ياما وياما، عالِج ناس. أنا بشوف السِّتات بتزغرط كِدِه وهي خارجة من عنده يا حاج. ده ولا كأنّه نبي!».

اللَّكنة التي يتحدَّث بها عم خيري كانت سريعة بعض الشَّيء، الأمر الذي أضحَك عَم سَعْد مُطالِبًا له أن يلتقط أنفاسه قليلًا ليستطيع فهمه.

هزَّ سَعْد رأسه، واختتم الفطور كمَن لا يُبالي:

- «ربَّك ييسّر الحال بقى.. حِسابَك كام؟».

أطلَّت عَبير أُمُّ رَبيع من الشُّرْفَة المُعَلَّقة على أربعة أعمدة خَرَسانيَّة في الطَّابِق الرَّابع من البِناء المجاور للخرابة، وألقَت صدرها على حافَّة حديد الشُّرفة، مُتصَنِّعة لم غَسيلها النَّاشِف، لكنَّها في الأصل كانت تحاول أن تتلصَّص وتتجسَّس كعادتها على أخبار الحارَة من أصوات أصحاب الدَّكاكين العالية وأصوات البيوت المكشوفة نوعًا ما بسبب رداءة البناء وتهالكه، تمدُّ وتميل بأذنها تحاول أن تلتقط ولو كلمة لتبني عليها واحدة من قِصصها لتحكيها لجيرانها بينما تنتظر زوجها في فراغٍ قاتل ليعود من عمله و..

- «ما تسيبي الواد في حاله يا بِنت المَرَة الوسْخَة بدل ما أنزل ألطُشِك قَلَميْن على صداغك!!».

صاحَت بها بغتةً وبدون أي مُقدِّمات لطفلة صغيرة تعتدي بالضَّرب -في سياق اللُّعبة- على ابن أحدهم. وكمَا أطلَّت ونبتت فجأة من حيث لا ندري، وأتْحَفَتنا بصوتها الثُّغائي الغَوغائي في الصِّياح، انكفأت عائدة إلى الدَّاخل هي وطرحتها التي ترتديها زِينةً على رأسها. لعلها

ذاهبة لتُصلّي، الله تعالى أعلم.

وعلى إثر هذا المشهد، قَرقع كل الجالسين، في المقهى وإلى طاولات عربة الفُول بضحكات عالية ساخِرة، قالَ عَم سَعْد وهو يتسلَّم ما تبقَّى من الحِساب:

- «ناقِصات عقل ودين يا رااجل!».

مُقهقهًا أمَّن عم خيري على ما قاله سَعْد:

- «أي والله معاك حق يا حاج. دول عاوزين رِباية من أول وجْدِيد!».

- «بس بقى لابْنَك يروح يفْتِن لمراتك وتبقى ليلتك سودا النهاردة».

مازحه سَعْد، رامقًا وجهًا مُشمئِزًّا لم يُعره أدنى اهتمام، فأطلق عم خيري ضحكةً عاليةً، وقالَ بملئ فِيْه:

- «وهو يجْدَر يفتح خشمه ده أنا أكسر رقبته!».

وغادَر عَم سَعْد مع ابنه إلى الشَّارع الرئيسي، وودَّعه وداعًا حارًّا وهو يحاول أن يستوقِف له في مُهمة صباحية مُستحيلة أي ميكروباص يقله إلى حيث احتمالية أن يكون مقرّ عمله ومكمن حُلمه الوحيد، وهي إحدى الشركات الكُبرى في القاهِرة، كانوا قد أعلنوا عن احتياجهم لمحاسبين حديثي التَّخرُّج، فلم يلبث هيثم أنْ انطلق ساعيًا ليُلبِّي نداءهم، شَغوفًا حالِمًا مُحملًا بالأمل أنَّ الله لن يُضيع أجره أبدًا وسَيُوفَّق بإذنه.

وبينما انتظرَ حَسن طويلًا عَم سَعْد لكي يفرُغ من وِرد السَّلامات

والمُجامـلات والشَّـاي اليومـي مـع أصحـاب الدَّكاكـين، إلى أن غـادَر سَريعًـا بعـد أن نَظَـر في سـاعته الفضّيـة الأشـبه بلُعبـة لطفـل مُعلِنًـا عـن تأخُّـره الفِعـلي عـن عملـه، اسـتأذَنَ حَسـن مـن أبيـه لأن يذهـب ويطمـئن عـلى حالَـة أسْرَار، تلـك الفتـاة التـي لم يكـن ليصبـح إلى مـا هـو عليـه مـن تحـرُّرٍ عقْـلي بـدون حبّـه لهـا ولما تُبديـه مـن أفـكار مَشـبوهة يجـد فيهـا لـذَّة خاصَّـة في داخلـه.

- «أنتَ مش لسّة سامع أبوها جَالْ عليها أيه؟».

شـوَّحَ حَسـن بيـده، وهـو يهبـط إلى الأرض بخفّتـه المعهـودة عازِمًـا عـلى زيارتهـا الآن:

- «مـش هيجـرا حاجـة لـو اتطَمَّنـت عليهـا بنفـسي يابـا. أكيـد هيكـون عندهـا تفاصيـل أكـثر عـن الـلي حصلَّهـا».

سـارَ حَسـن ببنيانـه المَتـين عـلى أرضٍ خَربـة تَلعقهـا روث الأحصنـة وروائـح عَطِنـة كَريهـة لأبـوال طازجـة رُشَّـت لتوّهـا مـن مَثانـات الأطفـال نصـف العُـراة، عُبـورًا بالزُّقـاق الضِّيـق الـذي يقبـع فيـه بيتـه، ودَكاكـين الموبيليـا وفَرْشَـات الخُضـار وكِشْـك الحـاج سَـمير الصَّغـير جدًّا؛ فُرجـة بـين جِداريـن حجريَّـيْن رأس مالـه الوحيـد مـن أطفـال الحـارة والأزِقَّـة المجـاورة، ووصـولًا إلى العِـمارة التـي تسـكُن فيهـا أسْرَار.

وقبـل أن يدلـف إلى العِـمارة، ألقـى نظـرةً سريعـةً عـلى الخرابـة المهجـورة، وأعشاشـها البوصِّيـة المتناثـرة بتفـرُّقٍ، وفكَّر في نفسـه، شـاعِرًا بالأسـف والأسى عـلى مَـن يَقْطُـن بهـذه الأعشـاش ويعيـش ويـأكل وينـام بجـوار هـذا الزَّخـم والكـم مـن القُمامـة وهـذه الرَّوائـح المُميتـة، كيـف تأقلَمـوا عـلى هـذا النَّحـو؟ وأيـن اللـه مـن مُعاناتهـم هـذه؟

أيــن اللــه مــن الفِريــاني؟ ســؤالًا طرحتــه أسْرَار جَهــرًا ذات يــوم.. فأجابهـا حَسـن عـلى مَضـض، بـأنَّ اللـه قـد اسـتقرَّ مُنـذ زمـنٍ فـوق الأحيـاء الرَّاقيـة وهَجَـر الفِريـاني إلى أَمَـدٍ غـير مَعلـوم!

* * *

٣

وكأنَّها تهوى في حُفْرةٍ مُعْتِمةٍ لمئة عام وربما أكثر..

رُدَّت روح أسْرَار في جسدها دَبًّا، فانْتَفَضتْ فَرَقًا وارتجَّت أوْصَالها والهَلَعُ ينخرُ عِظامها كالمِثقَب، تذوي مَسامها أنهار عَرَقْ يخضَع لحرارة عالية جدًّا تُحيط وتُغلِّف السَّرير إذ ترقُد. لا تزال تُجاهِد للتملْمُل في مكانها وتُصارِع لفتح عينيْها ولكن هُناكَ مَن أحْكَمَ ودَبَّس جفنيْها بدبابيس وإبَر حادَّة تجرحها وتُسِيل قطرات دم داكِنة كُلَّما عافَرَت لأجل تحريرهما. تألَّمت بشدَّة، وصرخت كمَا لم تصرخُ من قبل!

أحسَّت بمطرقة حَجَريَّة تهوي مُسْرعةً على صدرها. ولكن لحسن حظّها السَّماوي، فُتِح باب الغُرفة وهرولت إليها شَقيقتها أماني وسَكَبت على وجهها الماء المثلّج، فاستفاقَت بشهقةٍ سَحبتها فيها هواء الغرفة كُلّه، وعادَت عيناها للعمل بشكل طبيعي كأنَّ شيئًا لم يكن.

هتفت أماني وهي تُزلزلها بيديْها مَلهوفةً مُلْتَاعةً على شقيقتها :

- « أسْرَار! أسْرَار! إنتِ كويسة!؟».

استغرقت أسْرَار وقتًا طويلًا لتستوعب وعْيها من جديد، فالغرفة كانت مُظلمة لتوِّها وموغِّلة في الظُّلمة، عينيْها موصدتان بدبابيس وإبَر، حرٌّ مُلْتهبٌ كالجحيم، هُناك شيءٌ كان يتلذَّذ بمراقبتها عن

كثـب؛ شيءٌ مـا أحـضَرَ المطرقـة وكادَ أن يهـوى بهـا ليُفتِّـت عِظامهـا ويُنهـي حياتهـا. وبغتـةً هـدأ وسَـكَن كل شيء مـع سـكْب أمـاني المـاء عـلى وجههـا، فظلَّـت تسـأل نفسـها، وهـو الـشَّيء الـذي سَرَحـت فيـه بعينـيْن ذابلتـيْن نصـف مغمضتـيْن: هـل حقًّـا تهـاب الأشـباح مـن أمـاني؟

أدارَت أسْرَار عينيْهـا ببـطء نحـو أمـاني، شـاخِصتان فيهـا بقـدحٍ فاتِـر، ولامَتْهـا مُعنِّفـة:

- «مـش ميـت مـرَّة قلتلـك مـا تصحِّنيـش طـول مـا أنـا متزفِّتـة نايمـة؟؟!».

ارتبكت أماني وغمغمت مَرهوبةً كأنَّها قد أخطأت بالفعل:

- «أنا سمعتك بتصرخي.. و..».

قاطعتها أسْرَار في حدَّة صارمة فاتِرة:

- «مـا حـدش طلـب مِنِّـك تسـاعديني! امـشي اطلعي بـرَّة.. بـرَّة!!». وصرخت.

ربمـا كانـت أسْرَار عـلى حـق. هـي لم تكـن بحاجـة أبـدًا لمسـاعدة أمـاني لهـا، ولِـمَ لا؟ مـا الـذي يُثبِـت أنَّ كل مـا حـدث معهـا منـذ لحظـات كان حقيقيًّـا ولم يكـن سـوى مـن نسـج خيالهـا؟ أهـي حقًّـا مريضـة وتحتـاج لتلقّـي العـلاج الصَّائـب عـلى يـد أخصَّـائي نفـسي ماهِـر؟ ومـاذا لـو كانـت المطرقـة هَـوَت عـلى صدرهـا بالفعـل.. هـل كانـت لتُصيبهـا حقًّـا؟ ظلَّـت أسْرَار حائـرة، في دوَّامـة مثـيرة للـدوار مـن الأسـئلة والأفـكار والذكريـات، مـا الـذي حـدث لهـا وأودعهـا إلى مَـا هـي عليـه الآن؟ هـل الأمـر لـه عِلاقـة بسـحرٍ مـا أو حسـد أحـد فتيـات الفِريـاني عليهـا كـمَا تزعـم أمّهـا وخالتهـا؟

ولِـمَ لا يكون الأمر كذلك، وهي بالفعل مَنارة للحسد!

إنَّهـا تحظـى بنسـبة لا بـأس بهـا مـن الجـمال الهـادئ المُتِّـزن الـذي لا يختلـف عليـه اثنـان ولا ينتطـح فيـه عنـزان، وجههـا فيـه غلظـة وتَفَطُّـن، فضوليًّـا وعنيـدًا، نَزويًّـا ومُصمِّـمًا، لكـن لتُغْرهـا سِـمة طفوليَّـة ناعِمـة، نُسـخة طبـق الأصـل مـن ثُغْـر أمّهـا بخـلاف أمـاني. أُنوثتهـا كُلَّها مُتمركـزة في عينيْهـا السَّـوداين بابهـار، المليئتـان بالكبريـاء والمُثَابَـرة. هـي لا تـزال شـابَّة في الثَّامنـة عـشرة، مُبْكـرة النُّضـج في أكـثر مـن مَجـال اسـتهواهُ فضولهـا، بينـما وفي دراسـتها العاديـة، غـرَّةً وضعيفـةً وتمقتهـا مـن كوامِـن قلبهـا.

هُنـاك دائمًـا نقطـة مـا بعيـدة، مُنزويـة في ركـنٍ مـا لا يَـزَل غـير معلـوم بالنسـبة لأسرتهـا، تـسْرحُ وتُطيـل التَّحديـق والتَّركيـز فيهـا بعـد أن شـبَّت عـن الطَّـوق وطَمَثَـتْ وصـارت فتيَّـةً، ولكـن لا تذكُـر أمّهـا ولا شـقيقتها ولا حَسـن أنَّهـا كانـت تـشرد طويـلًا عائمـةً بهـذه النُّقطة وهي صغـيرة، إذن مـا الـذي فَـرَق في حياتهـا بعـد إعـلان مُراهَقتهـا؟

الفَـرق يجـوز أن يكـون بـيِّن وواضـح.. ولكـن أحـدًا لم يُعـره أي اهتـمام حينـما نَشَـبَت ذُروتـه، وتعاملـوا معـه عـلى أنَّـه مُجـرَّد «مراهقـة» و«نـزق شـباب».

كان حَسـن وقتـذاك يقـف قبالـة البـاب وقـد مـرَّ عـلى الجـدار المُلطَّـخ بتلـك المـادَّة الحمـراء الكاويـة المُخرِّبـة ولم يـدع لعقلـه التَّفكـير في ماهيَّتهـا الآن، طـرق ثـلاث طرقـات خفيفـة، وانتظـر لأن يفتـح لـه أحـد.

بوجهٍ عابسٍ استقبلته أماني..

- «أهلًا..».

- «إزيِّك يا أماني». ناظرًا نحو قدميْه تحاشيًا للقاء عينيْها.

ببلعوم كبير ابتلعت سؤاله، وقلب واسع كبيدَر قمح أرغمت نفسها على الرَّد.

- «بخِير..».

وانسحبت إلى المطبخ بسرعة قبل أن تتَّقد نيرانٌ بداخلها هي تعرفها جيدًا، تكرّها وتفرُّ هي مِنها، كالقط والفأر.

بذلت الأم، السِّت رضوى، مجهودًا مُضنيًا حتَّى تمكَّنت من الوقوف واستقباله بترحاب يَليق بابن مُحبَّب لديها وليس مُجرَّد شخصٍ غريب أو ابن صاحب عربة فول، وبذلت جُهدًا آخر إضافيًّا مُرهقًا قبل أن تستقرّ بإليَتيْها الضَّخمتيْن فوق سجَّادة بالية. أخبرته بما حدث منذ لحظات مع أماني وفي لُجَّتها الأسى، واستأذن قبل أن يدلف إلى غرفة أسْرَار ويجدها لا تزال مُمَدَّدة على السرير والغطاء يحويها إلى ذقنها، ترتجف بَردًا رغم أنَّ الشمس كانت تُسبغ على الغُرفة من دفئها، فجلس على طرف السرير وسألها بحنان:

- «مالِك يا أسْرَار؟ إيه اللي بيحصل معاكي فهِّميني!».

تيبَّست أسْرَار بغتة، كأنَّها تلقَّت إشارةً ما من عقلها بالتَّوقُّف عنوة، رمقت حَسن بنظرة مُرعبة لم يعهدها من قبل، وقالت ويدها تُجاهد للعثور على شيء ما قد وارته تحت وسادتها منذ زمنٍ طويل:

- «أنا لازم أحكي لمُدير المطعم على الرَّاجل ده يا حَسن!».

عارضها حَسن وبرَّر اعتراضه قائلًا:

- «هتحكيله على راجل بيجي كل يوم المطعم وبيبصّلك!».

هـزَّت أسْرَار رأسـها وقالـت مُتسـارعة كأنَّهـا تُسـابِق الزَّمـن، بينـما مـا تـزال يدهـا تحـاول العثـور عـلى «الـشَّيء»:

- «مُريـب جـدًّا يـا حَسـن. بيفضـل متنَّحـلي طـول ماهـو قاعـد بطريقـة مرعبـة!».

- «وإيـه يعنـي.. مـا ممكـن بيعاكـس.. عـادي يعنـي يـا أسْرَار فيـه رجالـة رخمـة. المهـم إنَّـه ماقرَّبلكيـش».

- «سبع ساعات قاعد متنَّحلي وتقولي رجالة رخمة!!!!».

كان هـذا الرَّجـل، غريـب الملامـح، مُشـعِث الشَّـعر، ذو المعطـف القطيفـة الزّيتـي، يجلـس دائمًـا بقامتـه المنتصبـة إلى الطَّاولـة المقابلـة للمَطْعَـم مـع حلـول ورديـة أسْرَار الظُّهريـة، يضـع سـاعته بجانـب يـده المرخيـة فـوق الطاولـة، يُثبِّـت عينيْـه نحوهـا، يتصنَّـم بـلا حـرَاك ولا تنفُّـس، يشـحُب وجهـه شَـحوبًا مُسـاوقًا لشُـحوب الحَجَـرْ.. ويبقـى طـوال النَّهـار مُدقِّقًـا في تفاصيلهـا! هكـذا فقـط.

ولم يقتـصر الأمـر عـلى رؤيتهـا لـه في الواقـع فقـط. فدائمًـا مـا يتجـلَّى لهـا في منامهـا كشـخص عابـس يُطاردهـا وفي يـده سـاطور حـاد بغيـة تقطيعهـا إربًـا دونمـا سـبب واضـح، وهـي تحـاول جاهـدةً الفِـرار بـكل مـا أوتيَـت مـن قـوَّة، لا يُجيـل لخاطرها أيـة رسـائل، ولا يتلفَّـظ بحرف.. إذ أنَّـه لا يملـك فَـمًا مـن الأسـاس! فمنطقـة مـا فـوق الذقـن مطموسـة كُليًّـا كأنَّهـا لم تُصنَـع ليتواجـد فيهـا ولـو شـعرة واحـدة حتَّـى.

لاحَظ حَسن بحثها الدَّؤوب عن شيءٍ ما، فسألها بفضول:

- «إنتِ بتدوَّري على إيه؟».

بطريقة آلية شُلَّ جسدها مع سؤاله، وكفَّت عن البحث، واكتفت بـ «ولا حاجة».

دخلت عليهما الحاجَّة رضوى، مُبتسمة بعض الشَّيء، وقالت مُعتقدة أنَّ الأمور قد صارت على ما يُرام قليلًا:

- «الحمد لله.. فاقِت أهي. هي كده.. كل ما بتشوفك بتفوق يا حَسن!».

ألقت الأم بهذه الكلمات.. ومن خلفها انهمرت دمعةً سَخينة على خد أماني، باكية بُكاءً أخرسٌ.

* * *

٤

شَرد ذو الأنـف الشَّـمَّاء في ملامـح الفَتـى الحَالِـم الجالـس أمامـه، عـبَّ أنفاسًـا متتاليـة مـن سـيجاره الفاخِـر، ثـم قـال بتعـالٍ:

- «أبوك بيشتغل أيه؟».

نُجِـتَ القلـق عـلى وجـه هيثـم كأثـار أقـدام ثقيلـة الوطـأة حـين رمـاهُ ربَّ العمـل بهـذا السُّـؤال الـذي قـد علـم بإجابتـه مُسـبقًا مـن سـيرة هيثـم الذَّاتيـة. ولكـن مـاذا لرجـل متغطـرسٍ مثلـه أن يفعـل حيـال ضعفـه أمـام جوانبـه الخبيثـة الطَّاغيـة جـدًّا عـلى نَفْسـه، فتشـبَّعت روحـه بهـا، وصـارَ لا يـرى سـوى ذاتـه كمُديـر وربّ عمـل مُتَألِّـه، وينظـر مـن عـلٍّ لمَـن هُـم أدنى منـه شـأنًا ومَنْصبًـا، مُسـتمتعًا بتلـك النَّظـرة القلقـة التـي تُبديهـا أعينهـم عندمـا يوجّـه لهـم ذلـك السُّـؤال السَّـخيف المُتـوَّق بغلظـة في عُنُـق الشَّـخص الطَّمـوح الباحـث عـن حيـاة أفضـل.

كان هيثـم مُتهنْدِمًـا مُتأنِّقًـا في ملابسـه النَّظيفـة الخاليـة مـن أي كَرْمَشَـة تائهـة، حريـص جـدًّا عـلى انتقـاء ألفاظـه ومكامِـن حروفـه كـمَا تعلَّـم في أحـد مواقـع الانترنـت، قليـل الحَرَكـة وهـادئ الجـأش ومُتِّـزن الملامـح بـل وواثـقٌ مـن نَفْسـه. لكـن هـذا هـو السُّـؤال الـذي ظـلَّ يتحاشـاه طيلـة حياتـه منـذ طفولتـه في المدرسـة وحتَّـى هـذه اللَّحظـة الفارقـة مـن حياتـه، وهـا هـو ذا يتبلـور أمامـه مـن جديـد كشـبح لـن يقـدر عـلى تفاديـه.

ابتلع هيثم ريقه، وأجابَ بنبرة هادئة مَشوبة ببعض التَّشقُّقَات التَّوَتُّرية:

- «عامل نظافة في النادي الأهلي».

- «فرع الجزيرة. ليه ذكرت إنّه بيشتغل في الأهلي تحديدًا؟».

جُفَّ حلقه وخُرس لسانه. بدأت التَّصوارات المتوقَّعة تُداعِب عقله من الآن، تصورات حلم بِها ليلة أمس وأنكرتها أمّه هذا الصَّباح بسيل من الدُّعاء وآيات القرآن الكريم. ارتعشت أصابعه، ارتجف جسده بردًا، نَطَقت شفتاه صراحةً بـ «معرفش..». فهبَّ المتغطرس واقفًا على فخذيه السَّمينيْن كقامتي فيل وقالَ ماسحًا بكفّه شعره الطويل المفلفل:

- «على أساس إنَّك لو ذكرتلي إنّه في الأهلي فتصوري لمفهوم «عامل نظافة» ممكن يتغيَّر.. مش كده؟». وضحك بسخافة.

- «أأ.. أكيد مش قصدي كده. و..».

توجَّه الرجل بكرشه المتدلي ناحية الباب وقام بفتحه على مصراعيه.

- «شرفتنا يا أفندم». تلفَّظها بهدوء، بابتسامة مُتحدِّية مَعْسُولة.

ظلَّ هيثم يتذكَّر هذا المشهد الذي كان في بدءه ورديًّا مُشرِقًا بالنسبة لشابٍّ ناجح ومنكبٌّ على عتبات الاجتهاد مثله، وبغتةً أخذَ منعرجًا مأسويًّا أَكْهَبَ عليه حياته وأبْهَم مستقبله كلّه، ليلًا في الميكروباص العائد إلى الحي الذي يقطن فيه. وقد تشظَّت نفسه وانكسرت، وباتَ من المُحال السَّعي في رأبها مرَّة أخرى بعد ما حدث.

كان يجلس في الميكروباص مُطرق الوجه، مُرخى الجفنيْن، مُبعْثَر الشَّعر، مُكَرْمَش الملابس برابطة عُنق مُتحرِّرة، مُثبَط العزيمة ومُنتفي الأمل، ينظرُ إلى قدميْه حيث يُضيئها وهج لمصباح خافِت، تينكَ القدميْن اللَّتيْن أتيا من حارة مُفقرة مَنسية لا تُعرَف اسمها إلَّا من ساكنيها فقط المرسومة حيواتهم سلفًا من الميلاد للَّحد، مُجرَّد حارة صغيرة يبتلعها حي تروِّع شوارعه الجرذان والقذارة، يستشري فيه الجهل العقيم المُطبَق المفروض كنصّ مُقدَّس يُحرَّم ردعه أو الفوران عليه، وتقوَّضت فيه أركان السُّلطة الحاكمة المُبالية فقط بأمور أكثر أهمية، وبشعب آخر وهمي انحصرَ في توزيع جغرافي مُحدَّد طَغى على السُّكان الأصليين للبلاد. إنَّها الحارة التي يدين أهلها بدين الحق باطنًا، ولا يُبدوه البتَّة ظاهرًا في تصرُّفاتهم وأقوالهم وأفعالهم.

للحظات انجرف هيثم لفكرة ربما كانت صائبة من وجهة نظره. فماذا لو تبدَّلت الأدوار وكان هو ربَّ العمل.. هل كان ليقبل بتعينه وهو يعلم عن الفِرياني؟

الفِرياني قَدَرٌ ومآلٌ على أهله، لا يستطيعون الفِرار مِنه ولا من جحيمه، يتبَعُ خُطاهم كالظِّل القاتِم القابِض أينَمَا يَمَّموا وجهتهم، ولا يعترف بإلهٍ في السَّماء.. إذ لا يوجَد سوى السَّواد فوقه!

هذه كانت كلمات أسْرَار عندما كابَدت عناءً كثيرًا لتشغل وظيفتها الحالية، وأيضًا سيصير موقفها الحتمي ما أن تراهُ يدخل إلى الشَّقة وهو مغلوبٌ على أمره، ويُعلِن لأهله بحرقةٍ في صدره، صارخًا: لقد اجتهدتُّ طيلة حياتي وشُغِفت بالأمل، ونسيتُ أنَّ الإله مُعرضٌ عن الفِرياني منذ زمنٍ بعيد! إنَّ أسْرَار على حق.. لقد كانت دائمًا على

حـق ولكنَّكـم تقمعـون أفكارهـا وأراءهـا لتخدعـوا نفوسـكم بمـا تجهلونـه كُليًّـا!

اجتاحَتـه هـذه الأفـكار مثـل الجَـراد، توتَّـر في جلسـته وطَفَـق يرتعـش، فـرَّت مِنـه دمـوع غـير مرئيـة، اهتـزَّ هاتفـه المحمـول الـرَّديء الـذي حلـم بـشراء واحـدًا غـيره فـور تسـلُّمه الوظيفـة، أخرجـه مـن جيبـه فـرأى اسـم والدتـه يتَّصـل بـه، ولم يعبـأ.. تركـه حتَّـى انطفـأت الشَّاشـة كُليًّـا. ورفـع رأسـه يُطـل مـن النَّافـذة المهشـمةٌ زجاجهـا، فوقعـت عينـاهُ عـلى طفـلٍ حطَّـت قدمـاه عـلى الرَّصيـف، سُرعـان مـا أفصـح لهيثـم عـن ابتسـامة لطيفـة، ولكـن فيهـا شـيئًا مـن الاسـتياء والعِتـاب.. شـيئًا مـن التَّأنيـب لسـماحه لمثـل هـذه الهواجـس السَّـامة لاختراقـه والتَّمكُّـن مِنـه وهـو في هـذا الضَّعـف، هـذا الانهيـار الدَّاخـلي مـن جـرَّاء صدمـة لم تكُـن في الحُسـبان، ولم يُهـيء نَفْسـه لهَـا طيلـة رحلتـه..

وكانت هذه الابتسامة آخر ما رأهُ هيثم في حياته..

* * *

زَحَفت الأنْبَاء سَريعًا إلى الفِرياني، بعد مُنْتَصَف الليل.

ظلَّـت السِّـت رضـوى قلقـة عـلى ابنهـا، تـروح بـين الفينـة والأخـرى تتصَّـل بـه مَلهوفـةً والرَّبكـة تنهـش وجههـا ولكـن دون أن تجـد مِنـه ردًّا يَشـفي صدرهـا. حاولـت أمـاني الاتصـال بـه، وكذلـك أسْرَار، التـي لم تكـن تفعـل سـوى الانتقـال جيئـةً وذَهابًـة مـن الصَّالـة إلى غرفتهـا في حـيرةٍ. لقـد تأخَّـر هيثـم أكـثر مـن الـلَّازم. أشـارَت السَّـاعة الخربـة عـلى الحائـط إلى الواحـدة بعـد مُنْتَصَـف الليـل ولم تـأتي إلى الآن أيـة سـيرة تنـد بـأي خـبر.

رغـم أنَّ السِّـت رضـوى كانـت تجـد صُعوبـة في التَّحـرُّك بسـبب سِـمنتها المفرطـة وصِحّتهـا المتدهـورة، إلَّا أنَّ شـغفها وقلقهـا عـلى ابنهـا كانـا المُحرِّكـيْن الأساسـيِّيْن لحركتهـا السريعـة وانتقالهـا مـن بُقعـة لأخـرى، وكأنَّ القلـق المعنـوي قـد انفصـل انفصـالًا تامًّـا عـن الجسـد المـادي، وبـاتَ هـو مَـن يقـوده ويسـوقه وفـق دوافعـه غـير مُعْتَـدٍّ بمعيـار الصِّحـة أو مـا نُسـمِّيه نحـن بـ «السَّـببية المنطقيـة». ولاحَظـت أسْرَار هـذا الأمـر جيـدًا ووضعتـه في حُسـبان أسـئلتها حـول مفهـوم «الـرُّوح» وموقعهـا مـن الجَسَـد.

وبغتـةً طُـرق البـاب بتهـادٍ، فهـبَّ الجميـع وتصارَعـوا لفتحـه محمولـين بالذُّعـر والتَّوجُّـس. فـإذا بعـم سَـعْد يقـف عـلى بسـطة البـاب مُطـرِق الـرَّأس مُخضَّبـةٌ معالمـه بحـزنٍ مُضـنٍ لم يعْهـده أحـد مـن قبـل. تصاعَـدت أسـئلتهم اللَّحوحـة وأكـثرت أمـاني مـن البَسْـمَلة، واضعـة يدهـا عـلى قلبهـا كأنَّهـا قـد شـعرت تحديـدًا مـا يشـعر بـه أبيهـا الآن.

بعد تردُّدٍ مُميت، انفرجت شفتا سَعْد عن الطَّامة الكُبرى:

- «هيثم تعيشوا إنتوا..».

وسَـالَت تلقائيًّـا دمعـةً سَـخينةً عـلى خـدّه، لا يـزال مُحافظًـا عـلى اتِّزانـه لألَّا يهْلَـك البيـت.

لأوَّل مـرَّة منـذ مُراهَقـة أسْرَار البُلـوغ وانضمامهـا لبوتَقـة الحيـاة، ينقبـض صدرهـا فجـأة وتتقلَّـص ملامحهـا تقلُّصًـا أبْـدَى ذُعرًا عـلى وجهها وهيَّـأ خدَّيْهـا لتشـقّ عَبراتهـا طريقهـا بانسـياب وتدفُّـق لا مزيـدَ عليهما. في وسـط الصَّدمـة، والصَّمـت اللَّحظـي بعـد تلقّـي الخـبر، وقبـل بـدء النُّـواح، تكـوَّرَت في نَفْسـها مُنزويـة في أحـد الأركان، وهي تـرى بعينيْن لا تريـا شـيئًا، أمّهـا وهي تُصيح وتـصْرُخ وتلْطُـم خَدَّيْها في عُنـفٍ مُتَّصِل، في

جـزع وهلـع ينطـق لِسـانها بألفـاظ لا صِلـة بينهـا ويقطـعُ الدَّمْـع المنفـرط مـن مآقيهـا -كـمَاء مَغـلي- صوتهـا تقطيعًـا. انهمـرَ الجـيران وصبيـان وشـبَّان الحـارَة مُسرعـين فازعـين إلى المنـزل، وشـاركوا نحيـب أمـاني ووالدتهـا، وصنعـن نسـوة الحـارَة وبناتهـنَّ صَنيعهـا بالعويـل وبخمـش وجوههـنَّ وصَـكّ صدورهـنَّ، بينـما التـزَم عـم سَـعْد برباطـة الجـأش مُتقبِّـلًا قَضـاء اللـه وقـدره، جالسًـا مغلوبـاً عـلى أمـره واهنًـا أمـام القَـدَرْ، مُـردِّدًا: «الحمدللـه».

الحمدللـه.. تلـك الجُملـة المُريحَـة جـدًّا للنُفـوس التـي نُردِّدهـا حـين تنمحـي كُل السُّـبُل لتغيـير مـا يقـرَّرَه القَـدَرْ عنـوةً، مـا شـاءه اللـه تعـالى ولا يُقبَـل الاسـتئناف فيـه، هـي مـا تُزكِّينـا وتُفعمنـا الصَّـبر والتَّحمُّـل واسـتيداع أمورنـا كُلَّهـا إلى اللـه ليعوِّضنـا خـيرًا وليُزيدنـا مـن فضلـه ورحمتـه. هـو مَـن خلقنـا، ومَشـيئته هـي مَـا ننجـرف إليهـا في نهايـة المَطـاف. وهـذا مـا تفهَّمـه جيـدًا عـم سَـعْد وتشـبَّع صـدره بالإيمـان بـه وأتْقَنَـت شـفتيْه ترديـده بـين الحـين والآخـر. عـلى الرَّغـم مـن حُزنـه الشَّـديد عـلى فَقيـده الغـالي، مَـن مَثَّـل كُل شيء في حياتـه وفَرْحَتـه ومنبـع فَخـره، إلَّا أنَّـه تحمَّـل وتصـبَّر، وانْـصَرَف إلى الرجـال يتقبَّـل عزاءهـم في قـوَّةٍ وجَلَـد.

لقـد شـدَّ هيثـم ترحالـه إلى السَّـماء، وذهبـت معـه ضحكتـه الوادعة مـن المنـزل.. فبـاتَ كئيبًـا وقاتمًـا وانعدَمَـت الحيـاة فيـه منـذ ذلـك الحـين الأسـود.

* * *

تناقَلـت نَـشرات الأخبـار الحـادث بـين القنـوات التلفزيونيَّـة، وفضَّـل السَّـادة الإعلاميِّـون تجنُّب توجيـه اللوم إلى الحُكومة وعـلى القائمين على

الإصلاح والتطوير والاهتمام بالطُّرق في بعض المناطق الشَّعبية التي صَارت كألغام يَصعُب دَرأها، وتركَّزوا حول السَّائق المتهور الأرعَنْ فقط وحمَّلوه كل المسؤولية التَّقصيرية في الحادث رغم وفاته وتهشُّم أعضاءه.

بل ووصَل الأمر لتزييف سيرته وإلحاقه بعض التُّهَم لغسل أيادي الحكومة من دماء الموتى، فزعمت بعض القنوات بأنَّه كان مَخمورًا، وانتهجت الأخرى إلى تعاطيه المخدرات فأذْهَبَت عقله، وبين هذا وذاك يوجد أُناس يصدقون ويقتنعون بحق كل ما يتناقَل لَهُم دون تمحيص ولا تكبُّد العَناء ولو للحظة واحدة في العُمر للتفكير أو للتسائل النَّقدي.

وهكذا هدأت الأمور قليلًا، وشُفيَت صدور الفِرياني من غِلٍّ على الحُكومة.. وتوجَّهت جميعهًا إلى السَّائق المسكين.

* * *

مُدَّ جَسَد هيثم في تابوت خشبي مُتهالِك بالكَاد ساعَد أهل الفِرياني عَم سَعْد في تأجيره، في جنازة متواضعة للغاية شُيِّعَت من الحي لمدافِن العائلة في البَساتين. ضمَّت المدافِن الكثير من أموات عائلة السِّت رضوى، الذين قُذِفوا جميعهم بطبيعة الحَال في الفِرياني، شَبّوا مُترعْرعين في الفِرياني، حلموا وتطلَّعوا وابتئسوا ومَرِضوا في الفِرياني، وقضى منهم لحظاته الأخيرة، خيالًا حلَّق في مكانٍ آخر حلم دومًا بالذَّهاب إليه، لكن جسدًا وواقعًا بقيَ في لعنة الفِرياني.

ألقى المشيعون تِباعًا نَظرات أخيرة على وجه هيثم بعدما أصابَ أمّه الجنون لرغبتها العارمة لرؤيته للمرَّة الأخيرة، ولم تستطع التَّماسُك

لَـمَّا ارتأتـه هكـذا: لحـمًا غثًّا رخيصًـا بعدمـا فـرَّت الـرُّوح مِنـه. كانـت ملامـح هيثـم مسـترخية وتوحـي بمـا تبقَّـى مـن مشـاعر لحظاتـه الأخـيرة، فتفهَّمـت أسْرَار بفطنتهـا أنَّـه قـد رُفِـض في هـذه الشركـة قَهْـرًا، وأنَّـه حـزِنَ للغايـة قبيـل الحـادث، وربمـا كان يائسًـا ففاتَكَتْـه هـذه الأفـكار التـي قبضـت عـلى صـدره فأغفلتـه عـن ذِكـر ربّـه. ولكـن إن كان تَخمينهـا الأخـير هـذا صحيحًـا.. فكيـف لتلـك الابتسـامة أن تشـعّ في وجهـه هكـذا؟

كان الوقـت ليـلًا، والعَتمَـة تُغلِّـف المدَافِـن مـن البوَّابـة المُضيئـة بفتيـل مِصبـاح شـحيح إلى أخـر مَدفَـن فيهـا. ورغـم ذلـك اسـتطاعَت أسْرَار أن تـراه رؤيـة العَـيْن، دون احتيـاج لمعرفـة هويَّتـه.. حيًّـا بشـحمه ولحمـه، يضـخُّ بالـدَّم.

إنَّـه هـو.. ذلـك الرَّجـل الـذي يجلـس أمامهـا دائمًـا مُحدِّقًـا فيهـا على الطَّاولـة، ويُطاردهـا في أحلامهـا لقتلهـا ولا يتمكَّـن مِنهـا أبـدًا إلَّا بعد أن يحـلّ هـذا التوقيـت في سـاعته الذَّهبيـة. طويـلًا كانـت هيئته، ممشـوقًا مَفـرودًا يقـف أمامهـا عـلى بُعـض سَـنْتيمترات قليلـة بـين المُشـيَّعون من أهـل الحـارَة وبـين مَـن جَـسرَ عـلى المجـيء مـن العائلـة، دافئًـا ومُشِـعًّا بهالـة سـوداء كطاقـةٍ مـا فوَّاحـة برائحـة كَريهـة عَطنـة، رافـلًا في بذلـة سـوداء مُبْتَلَعـة مـن العَتَمـة، و.. مُبْتسـمًا بِـلا فَـم!

لوهلـةٍ تخشَّـبت أسْرَار في مكانهـا بمعجـزٍ عـن الحَـراك أو القيـام بـأي ردَّة فعـل. ابتلعـت ريقهـا ببـطء، اتَّسـعت حدقتاهـا عـن آخرهـما ذُعـرًا، تلمَّسـها صـداع سـخيف نَبَـت مـن العَـدم بغتـةً وشـعور يدفعهـا للتقـيُّء فأمسـكت بقبضتيْهـا رأسـها، مـاذا الآن؟

- «البقاء لله يا حبيبتشي.. ربنا يصبِّرك».

انتزعها صوت عبير أُمُّ ربيع الشَّبيه بثُغاء العَنْزَة من لُجَّة موقفها المُخيف، فالتفتت لها بسرعة وعانقتها تهرُّبًا من الغريب المُتيبِّس في مكانه. وقد اتَّشحت عبير أم ربيع بالسَّواد من الرَّأس إلى أخمص القدم. لم تعرف أسْرَار بماذا تجيب.. لم تتعلَّم الرَّد المناسب لمثل هذه العبارات!

أضافَت عبير بنظرتها الماحِصة وأنْفها التَّلصُّصي:

- «ألَّا بالحق قوليلي يا بِت يا أسْرَار.. شوفتي إيه وإنتِ داخلة العمارة ساعِتها؟».

وهل هذا وقت مناسب للحديث حول هذا الشَّأن؟

رفضت أسْرَار الإجابة، وقالت باقتضاب شديد:

- «شفت اللي شوفته بقى».

وغادرتها. هكذا أفْسَدَت عليها سَيرورة من الحكي كانت ستبُخّها على جاراتها في سَهْرة ليلة لا يطلع نهارها أبدًا. ظلَّت عبير أم ربيع واقفة في مكانها، شاخِصةً تتفحَّص في المُشيِّعين تِباعًا لتعدّهم على الفرَّازة: ها هو ذا صاحب دُكَّان الأمل ونجله، عبد العاطي البوَّاب، سَمير الكَهربائي الذي اعتُقِلَ لأسبوعيْن قسرًا تنفيذًا لقانون الطوارئ، الشيخ زكي أبو حمدي إمام مسجد الفِرياني الصَّغير المنزوي بجانب الخَرابة والمتناثِر حوله بقايا من قمامتها، رمضان الميكانيكي الشَّهير بباطو (يمكنك أن تستنبط سر هذا اللَّقب)، وسيّد السَّباك ومتولّي السَّمكري والمعلّم صبحي الأهْطَل صاحب المقهى.. و.. ذاك الشَّخص ليس بالغريب عليها، أين رأته قبل ذلك؟

أجل، تَذَكَّرَت. إنَّه عبد الرّحيم شقيق عم سَعْد، ها هو ذا قد قطع غُربته في الولايات المتحدَّة الأمريكية وعاد خصيصًا ليشْهَد جنازة ابن أخيه! يقف الآن بجوار العائلة ويمدّ يده للمشيِّعين ويتقبَّل منهم العزاء الواحد تلو الآخر، بشعْره الأصفر المصبوغ تشبُّهًا بالغرب وملابسه الإفرنجية وتقاطيعه الوسيمة التي ذابَت فيها جوليا، امرأته، من النَّظرة الأولى، ومن بعدها هاجَر معها إلى عُقْر دارها، وفيما بعد تداولت أخباره المتقطِّعة عن فتحه لمطعم متواضع يبيع فيه عِلَب الكُشَري للأمريكان في لُجَّة تقاطُع ميدان «التَّايمز»، ثم انقطعت أخباره نهائيًّا.

لم يَرُق لأسْرَار ولا لأماني حضوره في هذا اليوم. فمُنذ هِجرته المفاجئة، لم يُكلِّف نفْسه ويزورهم ولم يتَّصل بهم سوى مرَّة واحدة فقط يطمئِنَهُم فيها بأنَّه بخير ويعيش حياة الحَالِم وقد تحرَّر من بَراثِن الفِرياني، واعتبَر نفسه شذّ عن القاعِدة منذ أمدٍ طويل، وهُنا تخلَّق مَبعث فَخْره وراحته. والآن تراهُ العائلة فقط مُنذ اثنتي عشرة عامًا في لحظة الحُزن. وهذا ما رفضته قَطعًا أسْرَار وازدرته أماني.. وأبيا أن يُعيرانه أدنى اهتمام.

التفتت أسْرَار مرَّة أخرى إلى نفس البُقعة.. فوجدت الغريب لا يزال مُنتصبًا ولكن كان مُتيبِّسًا في مكانٍ ما بعيد، ينظُر لها بثبات.. وفي يده ساطورًا ينتظر شقّ طريقه نحو لَحم ودماء صاحبته..

* * *

على الرَّغم من اشمئزاز أماني وحنقها من حَسن، إلَّا أنَّه لم يُفارِق العائلة منذ لحظة إعلان حادث وفاة هيثم وحتَّى في هذه الأيَّام

السَّـقيمة التـي خيَّـم الحُـزن والشَّـقاء والكـدر فيهـا، مثـل انهـدام جـدار كبـير قوامـه كان هيثـم، خليفـة الأب ورجـل البيـت. بَـات النَّهـار يطلـع في سـماء الفِريـاني وكأنـه قـد جُـرِّدَ مـن ضيائـه، ولم تعـد القهـوة تعـجُّ بروَّادهـا المعروفـين مـن خـارج الحـارة وداخلهـا وصَـار الليـل لابسًـا ثيـاب حِـداده، وفـرَّت بهجـة الوجـوه المصريَّـة الأصيلـة النَّابعـة مـن القلـب في حَلقـات التَّجمُّعـات العائليـة في المنـازل ولم يبـقَ سـوى الحديـث خفيـة عـن مُعانـاة السِّـت رضـوى التـي ابتلاهـا ربُّهـا بشـلل اللسـان مـن فـرط حزنهـا عـلى فـراق ابنهـا.

وبـين غُـرابٍ أسـود مَهيـبٍ يـأبى مُغـادَرة الحـارَة، وصمـتٍ غُلِّـف بالدُّمـوع وبتشـنُّجات السِّـت رضـوى اليوميـة لمَّـا تسـتيقظ لتتفقَّـد غرفـة هيثـم ولا تجـده، ظـلَّ وجَثَـم الرَّجُـل الغريـب عـلى صـدر أسْرَار وأحـاطَ بأحلامهـا في كل دقيقـة تُسـلِّم فيهـا جفنيهـا للسِـنَة، غـير مُكـترث بالظُّـروف ولا بمـا يحـدُث في داخلهـا مـن صِراعـات ونوبـات اكتئابيـة صارخـة جـرَّاء كل هـذا الوبـاء الـذي حـطَّ فـوق رؤوس الجميع كالطَّاعـون. كان يُسـمَع صراخهـا حينـما تنتفـض في سريرهـا ليـلًا وصراخ أمـاني في أعقابهـا، يهـرع حَسـن إليهـا بطبيعـة الحَـال ويـشرع في تهدأتها مـع أبيهـا وسـط أعـينٍ ترقُبهـا بفضـول. مـرَّاتٌ عدَّة كان يسـتأذن حَسـن مـن عـم سَـعد كي يوافـق عـلى الذَّهـاب بِهـا إلى أي مـكان عـام لتغيـير مزاجهـا وللترويـح عـن نَفْسـها قليـلًا، فيوافـق.

في مرَّةٍ ذهبا إلى أحد مطاعم الوجبات السَّريعة المكشوفة على الشَّارع وجلسـا إلى إحـدى الطـاولات البلاسـتيكية البيضـاء الكالِحـة، وعـلى حـين غـرَّة، وبينـما حـاوَل هـو أن يُخفِّـف عَنها بإحـدى دُعاباتـه المرحة، لمحت قِطَّـة شـيرازي ناصعـة السَّـواد تتقـدَّم إلى طاولتهـما مـن بَعيـد، فظلَّـت

عيناهـا ترقُبُهـا بتركيـز وحَـذَر، حتَّـى دَنَـت مِنهـا، ومَسَـحت برأسـها عـلى قدميْهـا في دلالٍ، فاطمـئنَّ قلبهـا بعـض الـشَّيء واحتوتهـا بيدهـا ووضعتهـا أمامهـا عـلى الطَّاولـة.

كَـم عشـقت أسْرَار القِطـط منـذ صغرهـا، ولكـن مـع الأسـف لم يُحالِفها الحـظ في اقتنـاء واحـدة مِنهـا لتكاليفهـا الباهِظـة عـلى الأب، فوجدتهـا الآن فرصـة مُبْهِجـة لتُلاطـف القِطـة وتُلاعِبهـا بأصابعهـا. ولأول مـرَّة يتبـدَّى لحَسـن ابتسـامتها منـذ وقـتٍ طويـل، فشـعر بالرَّاحـة تغمـره، وتحمَّـس كثـيرًا لمواصلـة حديثـه الخفيـف المـرح. في البـدء راحَـت القِطـة ترمـق أسْرَار بنظـرة مُشْـفِقة ليـس لهـا معنـى، ثـم لم تلبـث أن أوحَـت لعقلهـا بطريقـة مَـا لا تـزل غـير مفهومـة لأسْرَار أن تتذكَّـر أيـن التقـت بِهـا مـن قبـل. فأجـل، جـاء إلحـاح ثَقيـل الوطـأة في رأسـها ينضـحُ بذكـرى بعيـدة مُبْهَمَـة حاولـت أسْرَار اسـتعادتها ولكـن دونمـا فائـدة، واكتفـت بتوجيـه أسـئلتها الحائـرة للقطـة «أنـا شـوفتِك فـين قبـل كـده؟ ليـه حاسَّـة إني أعرفـك مـن زمـان؟».

- «يمكـن شـوفتي واحـدة شـبهها قبـل كـده في النَّـادي. النَّـادي بتاعِـك ده مليـان قطـط».

رفعت أسْرَار رأسها المَهموم وقالت:

- «عمـري مـا شـوفت هنـاك قطـة بالجـمال ده! لأ يـا حَسـن، أنـا حاسَّـة إني أعرفهـا مـن وقـت طويـل بـس مـش قـادرة أفتكـر المشـهد نفسـه في دماغـي».

سَرح حَسـن طويـلًا يُفكِّـر، بينـما عـادَت هـي لمداعبتهـا بحنـان غـير مسـبوق.

- «يمكن شوفتيها في أي كتاب من اللي كنت بجيبهومْلِك؟».

- «كتاب!».

رفعت أسْرَار رأسها مجدَّدا وقد انتابتها رجفة مُباغِتة، واتَّسعت حدقتاها كأنَّها تحاول أن ترى شيئًا ما مُشَوَّشًا أمامها، شيئًا ما يبدو غائلًا في الألم، في القَتامة، في اختيارها السَّيء للغاية، في لُعبةٍ هي مَن بدأتها بملئ إرادتها الحُرَّة، والآن تدفع الثَّمَن غاليًا على إثرها..

كِتاب؟ أيُّ كِتابٍ هذا الذي يعرض قِططًا بهذا السِّحر والجمال؟!

* * *

٥

هُنَـا، وفي هـذه اللَّحظـة الفارِقـة مـن حياتهـا، تمخَّـض كونشِرتـو الأزمـة الوجوديـة عـن السُّـؤال ذاتـه التـي ظَلَّـت تسـأله لأبيهـا لكنَّـه لم يكـن يُعيرهـا اهتـمام سـوى الطَّبطبـة عـلى الـرَّأس: لمـاذا سـتُلقى صَديقتـي الجميلـة ريتـا في غياهـب الجَحيـم لأنَّهـا قـد وِلِدَت في أسرة مَسـيحية؟

بـدأ الأمـر كلّـه وهـي طفلـة السَّـابعة، حينـما استمعت إلى سـؤال يتعلَّـق بمصـير غـير المسـلمين وجَّهَـهُ أحـد المشـاهدين للشـيخ في برنامجـه التلفزيـوني اليومـي. فأجابـه الشَّـيخ، نَصًّـا، بـكل ثِقـة ممكنـة: «إنِّي لأراهُ سـؤالًا سـاذجًا، مـع احترامـي لحضرتـك طبعًـا، ولكـن مَـن يسـأل مِثـل هـذه الأسـئلة قاطِعـة الثُّبـوت لا يكـون غرضـه شَريـف أبـدًا. ولكـن سـأُجيبك وبـكل ثِقـة: النَّصـارى مصيرهـم النَّـاااااااار.. لا ريـبَ في ذلـك. وأنـا مـش بجيـب كلام مـن عنـدي، ده بنـص القـرآن.. مـش هنكـدِّب القـرآن وننافِـق نفسـنا يعنـي يـا أخونَّـا. ومالنـاش دعـوة بهـؤلاء المتفيقهـين اللذيـن يـزدرون ديننـا لمجـرَّد إنـه بيقـول حاجـة زي كـده. هـاه. لـو فكَّرنـا فيهـا هنلاقيهـا حاجـة منطقيـة ولكـن إنَّ أكثرهـم لا يعلمـون..».

ومنـذ أن رأت تلـك الحلقـة التلفزيونية وهي تتسـائل عن مدى صِحَّة مـا قالـه الشـيخ ردًّا عـلى هـذا السُّـؤال: فذهبت بـه إلى أمّهـا، فأمَّنت لها عـلى كلامـه وبـدون تفكـير. ذهبـت إلى أمـاني وأكَّـدت لهـا كلامـه، ولكن مـع تحفُّظهـا عـن يقينـه المطلـق هـذا؛ فـلا أحـد يعلـم القلـوب إلَّا الله.

ذهبت إلى والدها فضحك ونَفَش شعرها برفق، ولم يجبها استصغارًا لهَا. فيَمَّمَت وجهها إلى إمام مسجد الفِرياني، وانتظرته إلى أن خرج وابتسم في وجهها، وسألَتْهُ عمَّا يكمُن بصدرها، فكان نَص كلامه كالآتي:

- «فيه يا بنتي آيات صريحة في القرآن بتكفِّر أهل الكِتاب، اللي هُمَّ المسيحيين واليهود يعني، ودي حاجة بديهية جدًّا ومافيهاش مشكلة. لو سألتي أي صاحب ليكي بيدين بالدين المسيحي عن موقف المسلمين بالنسباله هيقولك نفس الكلام، يبقى فين المشكلة؟ هُمَّ كُفَّار بعقيدتنا وإحنا كُفَّار بعقيدتهم. إحنا بالنسبالنا سيدنا عيسى رسول، هُمَّ ليهم رأي تاني هُمَّ أحرار فيه، ولكن الرَّأي ده كُفر بعقيدتنا، فاهماني؟».

ببراءة تطلَّعَت إليه بعينيْها الدَّقيقتيْن:

- «بَتّ يا عمُّو أنا لَمَّا ثألت ماما.. قالتلي إن رُرِريتا ثَاحْبِتي حتخش النَّار عَشان هيَّ كافرة!».

تساءلت فارِجة ذراعيْها، يدور بعقلها أنَّها عاجِزة عن إنقاذ صديقتها المُقرَّبة من جحيم الآخرة، وأن الحل يكمُن في إجابة الشَّيخ، الذي بيَّن لهَا الأمر كمَا ينبغي أن يكون، قائلًا بحنوٍ:

- «يا حبيبتي وهو حَد فِينا ضامِن يستقر على جنة أو على نار! وصف المسيحيين بالكَفَرة مش معناه إطلاقًا إننا نقدر نتجرَّأ على الله في حِسابهم. الله أعلم بيهم يا بنتي. وبعدين إن شاء الله يعني ريتا مش هتدخل النَّار ولَّا حاجة.. ماحدش عارف بكرة فيه إيه».

نوعًا ما اقتنعت، أومأت له برأسها، وشدَّت أدراجها عائدة إلى المنزل. كانت لا تزال حائرة في غياهبها، تدفعُ الشُّكوك والأسئلة الوجودية التي طَفَقت تجتاحها وتنسري بين خبيئة نَفْسها في كلّ عامٍ ينضج فيه عقلها أكثر، وتُنصِت إلى بعض الأُطروحات المنطقية التي كان يناقشها التَّلاميذ في المدرسة بدافع الفُضول فتُصيبها حيرةً فوق حيرة، وشلل عقائدي ينْفُرها من فكرة وجود الدين نَفْسه في حياتها. شُبِّه الأمر لهَا بتِلك الحِكايات التي يتناقلها أهل الحارة حول الخَرابة وما يحدُث فيها من أعاجيب، فمَثلها في عدم تحقُّقها وإثبات دلالتها إلى الآن، كانتفاء الدِّلالات المنطقية لوجود الله. وما زادَ شكوكها تأجُّجًا واشتعالًا، التقاؤها بزميلتها الجديدة، خِتام.. ذات العين العوراء!

فحينما بَلَغت أسْرَار الحادية عشر، ومع تقدُّمها في تطوير بِناءها الفِكري القائم على الشَّك، تحرَّرت أخيرًا من وطأة الدين، وثقله على صدرها. حتَّى أنَّها ذهبت ذات يوم إلى صديقتها ريتا وأخبرتها في مُنْتهى البراءة، والسَّذاجة: «ريتا حبيبتي إنتِ مش هتخشّي النَّار. مافيش أي دليل مادّي على وجودها أصلًا!». سعدت ريتا وقتها باعتبارها طفلة، لكنَّها بعد أن فكَّرَت قليلًا، وباستشارة أهلها حول علاقتها بأسْرَار، تسائلَت: «مافيش نار ليَّا. على كده أنا هدخل الجنَّة، صح؟».

ولم تُجِب أسْرَار عن هذا السُّؤال، أبدًا، مراعاةً لمشاعِر صديقتها.

ذلك كُلّه خَضع لفضل ذات العين العوراء، التي أقامَت وأزالَت ذلك الحدّ الذي كان بينها وبين قرار الإلحاد الرَّسمي، بأفكارها الغريبة، وبنظريَّاتها المريبة المخيفة حول بِنية الكَون ومفهوما الحياة والموت.

كانت أسْرَار تلْحَظُها مُنزويةً بين يومٍ وآخر في ركنٍ ما في ساحة المدرسة بالفُسْحَة. ولَمَّا أَذِنَ لهَا دخول الصَّف الخامِس، شاء القَدر وصادفتها في الفصل هذا العام. ومن وقتها وهُما صديقتان حميميَّتان أبدًا لا ينفكَّان عن بعضهما البعض، وهو ما استرعى انتباه البعض حول سِر الرَّابطة الوثيقة التي بينهما التي مَتُنَت بهذه السُّرعة الفائقة!

لكل قاعِدة استثناء، واستثناء قاعدة براءة الأطفال هو قُبْح خِتام المُبالَغ فيه كثيرًا. رُبَّما لهذا السَّبب كانت دائمًا وحيدة ولا أحد يُخالطها؛ لجسدها الهزيل كالعصا، وبشْرَتها الجافَّة الميِّتة المليئة بالبُقَع، وجلدها الرَّقيق كورقة هَشَّة تُرى من خلالها شبكة العروق وملامح العِظام من تحتها، وعينها العَوراء الشّبه مطموسة وقد خُيِّطت بخيط رقيق للغاية بالكَاد يُرى عندما تدنو من وجهها، صَلبة للغاية، فإذا لمستها فكأنَّك تلمس حَجَرًا.

وعلى الرَّغم من كل هذه المواصفات التي لا تَليق أبدًا بطفلة، رافقتها أسْرَار واطمأنَّت لهَا ولعبت معها كثيرًا في أوقات الفُسَح وتبادلا التَّساؤلات الوجودية ومنطق الإسلام مع غير المسلمين وأكذوبة الإله المُدَّعي للرحمة والقُرب من عباده لا سيَّما مع الفِرياني. ولم تكن أسْرَار تُشارك أفكارها تِلك أحدًا سوى حَسن، لإهمال الأهل وانشغال كُلّ منهم في أمره، فلا تجد الإجابات التي من شأنها أن ترأب الصَّدع الذي أصاب عقلها ولا يُغذِّيه سوى ذات العين العوراء.

وفي يوم السَّبت من شهر ديسمبر، كانت فيه السَّماء شاحِبة كئيبة كإمرأة تنتحب، أتَتْهَا خِتام واقترحت لهَا بأن يذهبا إلى الخرابة ليلًا.

مَثَّـل لهَـا هـذا الاقـتراح الغرابـة بعينهـا. فمُنـذ متـى وكانـت خِتـام مُهتمَّـة بالخرابـة؟ وبهـذا الإصرار والإلحـاح عـلى الذَّهـاب معهـا؟ تـردَّدت أسْرَار في بـادئ الأمـر، كثـيرًا.. حتَّـى أنَّهـا لم تُعطهـا ردًّا واضحًـا حتَّـى بعـد انتهـاء اليـوم الـدراسي. الأمـر فقـط غـير مُريـح. أجـل، إنَّهـا مُجـرَّد قصـص لا أسـاس لهَـا مـن الصِّحـة.. ولكـن.. تبقـى مُخيفـة ولهَـا رهبتهـا بالنسـبة إلى طفلـة صغـيرة!

كذُبابـة سَـخيفة ظلَّـت خِتـام تلـحّ وتلتـف حـول أسْرَار متنقلـة مـن أذنٍ إلى أذنٍ لاقناعهـا بـكل مـا تملـك مـن كافَّـة أسـاليب الاقنـاع، حتَّـى انصاعَـت لهَـا أسْرَار في نهايـة المطـاف، ووافقـت عـلى الذَّهـاب.

وضعـت أسْرَار يدهـا عـلى قلبهـا الـذي لم يلبـث أن ازدادت نبضاتـه، لَـمَّا وقفتـا أمـام الخرابـة، مرهوبـةً، بينـما لم تُبـدِ خِتـام أي رهبـة ولا خـوف.. بـل إنَّهـا أفْصَحَـت عـن ابتسـامةٍ مـا غريبـة.. لا تـزال أسْرَار بمعجـزٍ عـن تفسـيرها!

* * *

بَلَـغ الإعيـاء منهـا مَبْلغًـا كبـيرًا ولكنَّـه بـدا عَذْبًـا وأكـثر لُطْفًـا مـن حيرتهـا العقائديـة الشَّـعواء التـي ضربتهـا حينـما كانـت صغـيرة. ذلـك الإعيـاء كان أرحـم وأهـوَن مـن فِكـرة إنـكار اللـه؛ السَّـنَد والظَّهـر والقـوَّة والثَّبـات للإنسـان ووجهتـه نحـو تحقيـق الأهـداف. إعيـاءٌ لا تتذكَّـر نَبْتَتـه بوضـوح، فالذَّاكـرة مُشوَّشـة ومُنْهَكـة، مُعبَّئـة بأحـلام ورؤى ذلـك الرَّجُـل المُريـب، وذكـرى تلـك الليلـة المشـؤومة ومـا رأتـه حينهـا في مَدخـل البنايـة.

والقِطَّة الشِّيرازي السَّوداء.. والكِتاب.

مَا أن دلفت أسْرَار إلى المطعم حتَّى استقبلها المُدير -وكان يُدعى مستر جورج- بترحاب:

- «حمد لله على السَّلامة يا أستاذة. البقاء لله.. شدّي حيلك».

تطلَّعت إليه بشُحوب، واعتذرت له عن غيابها الذي تجاوز الشَّهر منذ حادثة البير.

اقتصرَ عمل أسْرَار على تصلُّبها أمام ماكينة الكاشير واستقبال طلبات الأعضاء -أكثرهم من الأطفال والمراهقين- وإعلام سامي المُتأهِّب وراء السِّتار بالطَّلب.. «باكيت بطاطس معاك يا سامي لو سمحت». ومن ثَمَّ يهرع سامي إلى المطبخ ويتأنَّى في تحضير الطَّلب على أكمل وجه ويضعه على طرف النَّافذة الفاصلة بين المطبخ والكاشير. وهكذا فقط. لا أحد يلتفت إلى المنتجات الأخرى التي يُقدِّمها المطعم. الكُل يُريد البطاطس المقلية وكفى.

- «نِفْسي أعرف إيه اللي محبِّب النَّاس في البطاطس بتاعتنا للدرجة دي!».

حدَّثت أسْرَار نفسها سائلة بصوتٍ جَهوري، فالتقطَ سامي دفَّة الحديث وأجابها بوقاره المعهود:

- «البطاطس بتغني عن حاجات كتير في الدُّنيا والله. اسمعي مني».

- «يعني إيه؟».

أطلَّ سامي بوجهه من النَّافذة وأردفَ مُتبسِّمًا:

- «شخصيًّا، البطاطس بالنسبالي هي الرَّفيق، هي اللي مصبَّراني

عـلى الحـال الهِبـاب الـلي الواحـد فيـه. كل مـا أحـس بـأي زعـل أقليـلي طاسـة وأَكُلْهـا كلهـا لوحـدي وبحـس بفـرق كبـير والله. لـو هنقـارن بينهـا وبـين الارتبـاط.. فهتلاقـي فوايدهـا عليـكي جسـديًّا ونفسـيًّا أحسـن مـن أشـخاص كتيـير. جـرَّبي كـده تطلعـي أي رحلـة مـن غيرهـا وشـوفي هتحـسي بمِلـل ازاي.. زي القنـدس الـلي رافـق البطـل في رحلتـه في روايـة السُّـعودي محمـد حسـن علـوان كـده».

ضحكت أسْرَار وقالت بسخرية:

- «إيه ده! ده من إمتى ده وإنتَ بتقرأ».

- «مـن سـاعِة مـا وزني زاد.. والدكتـور منعنـي مـن المقليـات». وذمَّ عـلى شـفتيه في أسى.

اكتفـت بضحكتهـا. والتفتـت إلى الزُّبـون التَّـالي تصغـي إلى طلبـه. ولكنَّهـا لمحـت، هـذه المـرَّة، الرَّجُـل الغريـب وهـو يُفـرِد قامتـه ويتَّجـه نحوهـا ببـطءٍ شـديد يُدغـدغ الخلايـا العَصبيـة. فابتلعـت ريقهـا بحنقٍ، وارتبكـت أصابعهـا وهـي تضغـط عـلى ماكينـة الكاشـير. اختلجـت عيناهـا ورفرفـت بعنـف، وتحـشْرَج صوتهـا وهـي تُنـادي عـلى سـامي لتُشركـه فيـما تـراه أمامهـا:

- «سـ.. سامي.. أنتَ شايف الرَّر... راجل!؟!».

لم يـأتِ ردّه. أحسَّـت بأنَّهـا قـد أضحـت وحيـدة تمامًـا في هـذا المكان. لا سـيَّما بعـد أن تغضَّنـت أسـارير الرجـل إذ يدنـو، مُسـتلًّا سـاطوره الحـاد الملتمـع تحـت أشـعة الشَّـمس، ومُهـرولًا مُحـدِّدًا هدفـه.

ارتجَّـت أسْرَار في مكانهـا وتخشَّـبت عاجـزة عـن الفِـرار.. يـأبى عقلهـا التَّسـليم بمـا تـراه عيناهـا في هـذه اللَّحظـة.. اللَّحظـة التـي قفـز فيهـا

الرَّجُـل بسـاطوره مُصـدرًا صرخـةً مُفْزعـةً، وكاد أن يهـوى عـلى رأسـها بغـلٍّ وغضـبٍ بالغـيْن، لـولا أنَّهـا سـقطت عـلى الارض مغشـيًّا عليهـا.. وسـط ذهـول النَّـاس مـن صرختهـا الأخـيرة وفـزع الزُّبـون المراهِـق أمـام ماكينـة الكاشـير!

كان وعْيهـا لا يـزال فيـه خيـطٌ طَفيـف مـن الشُّـعور بمَـن حولهـا. فشـعرت أسْرَار بأنَّهـا تُحمَـل بـين ذراعـي شـخصٌ مـا ضخـم الجُثَّـة، سُرعـان مـا ضمَّـت إلى صـدره كأنَّهـا قِطـة خفيفـة، وصَـار يخطـو بِهـا بخطـواتٍ وئيـدة متمهِّلـة ومُتَّزنـة للغايـة، مُيَمِّـمًا صـوب بوَّابـة النَّـادي. لا تـزال تُجاهِـد لفتـح عينيْهـا لرؤيـة هويَّـة ذلـك الشَّـخص، تتسـائل بمـا تبقَّـى مـن عقلهـا الواعـي عـن تواطـؤ رجـال الأمـن معـه وهـو يخـرج مـن البوابـة دون أن يسـتوقفوه.. ربمـا هُـم أصـلًا لا يُبـصروه!

أحسَّـت بأنَّهـا تُلقـى بعُنـف في الحقيبـة الخلفيـة لسـيَّارة، وبـابٌ يُغلَـق باحـكام، ثـم صـوت عَمَـل المُحـرِّك يتصاعَـد تِباعًـا في أذنيْهـا.. ومـن ثَـمَّ غرقـت في ظَـلامٍ حالِـك، فاقـدة الشُّـعور كُليًّـا.

* * *

لم يكـن الحيِّـز الضِّيـق جـدًّا مُضـاءً، إلَّا مـن شـمعةٍ حُفِظـت بداخـل قنديـل زُجاجـي عُلِّـق فوقهـا مُبـاشرةً.

تقاطـرَ العَـرق وبيـلًا غزيـرًا عـلى ترقوتهـا، ينهـش مَسـامها كتجمُّـع عائـلي لحـشرات سَـخيفة تـأبى الانفصـال عـن الجِلـد، يُسـمَع لُهـاث أنفاسـها الحـارَّة، تَصْهَدهـا أكـثر وتدفعهـا للغثيـان. شَـعَرت، حرفيًّـا، بشـعور الشَّـمعة وهـي تـذوب في نَفْسـها بداخـل القِنديـل، مُعلنـةً عـن انقضـاء فـترة حياتهـا بائسـةً، لتغـرق بعدها في ظَـلامٍ دامـسٍ وبمعجزٍ عن

الحركة لضيق المكان، بشكل مبالغ للغاية!

مَـدَّت ذراعيْهـا إلى أمـام، فاصطدمـت أصابعهـا بحائـطٍ خمَّنـت بأنَّـه خشـبي، خشـن، وبـه نتـوءات جارِحـة. عـادَت بظهرهـا إلى الـوراء، فـإذا بالحائـط الخشـبي يصدُّهـا ويمنعهـا التَّمـدُّد. كانـت تجلـس كوضـع الجنـين في رحـم أمّـه، مـن فـرط ضيـق المـكان، تكـوَّرت حـول نَفْسـها غـير قـادرة عـلى رفـع رأسـها لأعـلى، فـإن فعلـت فسـتصطكُّ في سـقفٍ خشـبي دانٍ عَتيـد. صرخـت. اسـتغاثَت. نُبِـح صوتهـا فاختلـج. لا أحـد يسـمعها. لا أحـد يشـعر بهـا. بكَـت بشـدَّة، كـمَا لم تبـكِ مـن قبـل، وظلَّـت تـرجُّ جسـدها لقرابـة السَّـاعة، إلى أن تراجَـع الـشَّيء المُبهَـم المحبوسـة بداخلـه إلى الخَلـف. أحسَّـت باختنـاق بالـغ المـدى. صارَعـت في محاولـة بائسـة مُسـتحيلة لإبقـاء الهـواء في رئتيْهـا.. لكـن لا مَفـرّ. لقـد نفـذ الأكسـجين تمامًـا!

لِـمَ لا تتلفَّـظ شـفتاها بـ «يـارب»؟ لمـاذا لا تسـتعين بمَـن خلقهـا، وقـادرٌ عـلى مُسـاعدتها في مثـل هـذا الموقـف الغـير مفهـوم عـلى الإطـلاق؟ وبِمَـن تسـتعين بغـير اللـه في هـذه الظُّـروف؟ كان الشُّـعور بداخلهـا يسـتطلبها كي تنفـرج شـفتياها عـن كلمـة «يـارب». لكـن أيُّ كِـبرٍ هـذا الـذي زُرِعَ فيهـا بسـبب صديقـة طفولتهـا، خِتـام!

أين هي خِتام الآن؟

أتفتقدينـي؟ تلفَّـظ بِهـا صـوتٌ مـا يشـبه الهَسـيس، الهَمـس، شيءٌ مـن هـذا القبيـل. حاولـت أسْرَار الإصغـاء إلى الكلـمات التـي طَفَقـت تـتردَّد بأذنيْهـا ويلْعَـق صداهـا كَتْمَـة الانسـداد الهـوائي الخانِق. كلـماتٍ سَريعة بلغـةٍ مـا تفْهمهـا ولكنَّهـا لم تسـتطع التقاط شـيئًا مِنها، أعقبهـا ضحكات طفوليـة بريئـة، وأنْفـاس بـاردة هبَّـت بغتةً بجانـب رأسـها المنكفئ على

صدرهـا، المخفـوس بـين ذراعيْهـا المترهَّلـيْن. وعـاودَ الصُّـوت للحديـث مُجـدَّدًا: *ألا تسـتحقِّين مـا أنـتِ فيـه الآن؟ لقـد حذَرتـكِ مِـرارًا لكنَّـكِ فتـاة عنيـدة. إنَّنـي أحـاول مسـاعدتكِ ولكنِّـي عاجـزٌ مِثلـكِ تمامًـا. أنـا هُنـا، بجـوارِكِ. فقـط أنصتـي إلى صـوتي..*

استنجدَت أسْرَار بالصّوت، بنفس ذات اللُّغة:

- «ساعدني أرجوك!».

منذ متى وهي تتحدَّث بهذه اللُّغة أو فهمت حرفًا مِنها؟!!

لديكِ العزيمة الكافية لتحرير نفسكِ..

مبحوحةٌ نبرتها قالت أسْرَار:

- «كيف لي ذلك؟ أنا عاجزة عَن الحَراك!».

الجَسَد لا يَعنيكِ بمثقال ذَرَّة. أطلقي صراحها..

- «أُطْلِق صراح ماذا؟!».

روحكِ..

بقـوَّةٍ شرعـت تُسـدِّد ضربـاتٍ بيديْهـا عـلى الحائـط الخشـبي، بأقصى مـا لديهـا مـن عـزمٍ وإرادة، لـكي ينـشرخ ولـو لجـزء بسـيط، لكنَّـه أبى أن ينصـاع لهـذه العزيمـة، وظـلَّ ثابتًـا عـلى موقفـه.. صَلبًـا مَتينًـا جامـدًا كالحجر.

صرخ صوتًا ما مُتاخِمًا لأذنها بفزع:

- «أنتِ مِلكيييييييي!! مِلكي أناااااا!!!!».

إنَّـه يحـاول دفعـكِ للجنـون. كل هـذا غـير حقيقـي. لا تنصتـي لـه

وحَرِّري روحكِ؛ فلا سُلطان له عليها.

- «أنَّى لي بتحريرها!! أنا عاجزة تمامًا!!».

فَكِّري بالأمر. لا مَناص سوى العثور على الرّوح. ما أن تجديها.. ستُحلِّقين بالآفاق. آمني بِها. فقط آمني بِها بحق الله!

وهل توجد روح في أجسادنا أصلًا ليكون مصدرها الإله؟! قالَت أسْرَار لنفْسها جهرًا، وظلَّت خمس ساعات متواصلة تُفكِّر في كيفية الخروج من هذا المأزق عوضًا عن هذه التَّخاريف التي تفوَّه بها الصّوت. لكنَّها ظلَّت محبوسة، حزينة، يائسة، خاضعة للواقِع الفِعلي الذي لا يشي سوى بأنَّها بداخل صندوق، ربما، لن تخرج منه إلَّا إذا كسرته.

غابَ مصدر الصوت تمامًا. وأحسَّت أسْرَار بأنَّها تحتاجه الآن.. على الأقل كان يؤنس وحدتها تلك في هذا الموقف العَصيب. لكنَّه لم يبزغُ مُجدَّدًا. تلاشى إلى العَدم، كمَا نبت من العدم أيضًا.

حاولت أن تُهدِّئ نفسها، وتحافظ على رباطة جأشها لألَّا تثور مُجدَّدًا، اتَّزنت ملامحها قليلًا وهي تزفُر ما تبقَّى من هواء أنفاس الصوت المنصرم. أغمضت جفنيْها، ابتلعت ريقها بهدوء، وبتروٍّي سلَّمت نَفْسها تمامًا للاسترخاء. ذلك العلاج السِّحري الطَّبيعي المناط به تَهشيم كل الضُّغوط وتفرُّعات سُبُل الشَّقاء الحياتي. نفَّضت عن نيرها غبار قوانين الواقع، لا زمان، ولا مكان، ولا جاذبيَّة تترسَّخ من تحتها، لا هواء، لا شعور على الإطلاق بأي شيء. أخيرًا رضخت لِفطرتها الثَّائرة، وسمحت لها بأن تهتف بلفظ الجلالة لكي يُساعِدها.. مِرارًا مِرارًا. أفرطت وبالغت في التَّخيُّل. فتخيَّلت السَّماء تلتمع من فوقها

دون سـقف الصنـدوق، تخيَّلـت نفْسـها وهـي تُحلِّـق كفراشـة بـين أكـوام سُـحُبها. وفكَّـرت في أحـبُّ الأشـياء إليهـا، مـا اشـتهت الذَّهـاب إليـه طـوال حياتهـا. وشوشـةٌ بزغَـت بـين تلافيـف عقلهـا بغتـةً: نشـاط كهـربي أخَـذَ في القفـز مـن خليَّـة إلى أخـرى، كأنَّهـا تـراهُ رؤيـة العَـين إذ يتنقَّـل ويُشـكِّل لهَـا أكـثر الأشـياء المُحبَّبـة لقلبهـا..

بحر..

عـلى حـواف شـاطئ لبحـرٍ مجهـول الهويَّـة والمـكان، تمشَّـت قدماهـا وئيـدةً، السَّـماء قـد رُفِعَـت مـن فوقهـا شـاهقةً، يُظلّـل أفقهـا مـا تبقَّـى مـن شُـعاع الغـروب العَسَـلي الفاتِـن، وتُعِـدُّ للسُـحب لـكي تُرسِـل زخَّاتهـا المَطـيرة عـلى كـوخٍ قبـع عـلى بُعـد عـدَّة كيلومـترات قليلـة مـن الشَّـاطئ، يتخضَّـب حولـه الخَضـار، وتتواثَـب خلفـه الشُّـجيرات النَّامية، ثـم الأشـجار، تِباعًـا. التقطَـت أنفاسـها أخـيرًا بعـد مُـدَّة طويلـة، الهـواء نَقـي وصـافٍ للغايـة، هبـط صدرهـا وعـلَا بارتيـاح بالـغ. للمـرَّة الأولى بعـد مـضي وقـت طويـل تحـسُّ بالسَّـعادة. الاسـترخاء كان هـو الحَـل. مَشَّـطت المنطقـة بعينيْهـا. خَـلا المـكان مـن أي بـشر.. إلَّا مـن صيـاحٍ مُرْعِـب أتى فجـأة مـن داخِـل الكـوخ.. صيـاح اسـتجداء عطـف نحـو شـخوصٌ مـا تحـاول قتـل المُسْـتَعطِف.. لم تظهـر ملامحهـم جيـدًا خلـف النَّافـذة الزُّجاجيـة المغلقـة.. لكنَّهـا اسـتطاعَت أن تُميِّزهـم جيـدًا..

وهُنا، اختفى كل شيء.

* * *

أكانَـت هـذه رؤيـة مـا أرادهـا الصـوت أن تُبْصرهـا؟ لا تسـتبعد ذلك. ولكـن مـا يُشـغِل بالهـا الآن حقًّا، هـو أنَّها بالفعـل، قد تحـرَّرت من ذلك

الصندوق الخشبي الذي كان (جسدها) محبوسٌ بطيَّاته!

كيف؟

بتخيُّـل الضّـد.. هكـذا علَّمهـا الصـوت.. دون أن تعـرف هويَّتـه إلى هـذه اللَّحظـة!

* * *

وجـدت أسْرَار نَفْسـها لا تـزال واقفـة في مكانهـا أمـام ماكينة الكاشـير، أمـام ذلـك الزبـون اللَّحـوح الـذي يـأبى الانتظـار ولـو لبضـع ثـوانٍ حتَّـى تسـتوعب مـا حـدث للتـو. كل شيء بـدا طبيعيًّـا مـرَّة أخـرى. ولا يوجـد أثـر للرَجُـل عـلى أي طاولـة مـن الطَّـاولات المفروشـة في منطقـة المطاعِـم.

- «باكيت بطاطس يا أستاذة بعد إذنك!!».

دارَت بعينيْهـا لـه فجـأة. وقبـل أن تكتـب بأصابعهـا الطَّلـب، سـألته بشـكل صريـح:

- «يا أستاذ، هو أنا أُغمى عليَّا من شوية؟».

حـدَّق فيهـا الفتـى المراهـق بعينـيْن واسـعتيْن مَشـدوهتيْن، مُشـيرًا بسـبَّابته إلى وجههـا، صارخًـا مَذعـورًا:

- «إيـه ده!! إيـه ده!! أعـوذ باللـه مـن الشَّـيطان الرَّجيـم!! أعـوذ باللـه مـن الشَّـيطان الرَّجيـم!!!!!».

ذُعـرت أسْرَار لذُعـره، وأسرعـت تُخـرِج مـرآة بصـدع جانبـي مـن حقيبتهـا البلاسـتيكية، ونظـرت إلى نَفْسـها. ويـا ليتهـا مـا نظـرت!

أطلقـت صرخـةً مُرعبـةً عاليـةً للغايـة.. أفزعـت القـاصي والـدَّاني. وقـد سـارع سـامي بإغـلاق نافـذة المطبـخ بأصابـعٍ مرتجفـة، هلعًـا وجزعًـا!

* * *

٦

الأحد، يناير.

- «عندي ليكي خبر هيفرَّحك».

في الفصل، وبين فاصل إحدى الحصص، أتتْهَا خِتام بغتةً من خلفها، ووقفَت أمامها مُحدِّقة فيها بتمعُّن. وقد استحالَ فمها إلى خط رفيع مُتشقِّق لا يُعرَف إن كان مُبتسِمًا أم ممتعِضًا. استقرَّت يدا خِتام على رُسغيْها، طريقة دائمًا ما تفعلها مع أسْرَار للفت انتباهها كاملًا.

في البدء ارتبكت أسْرَار. فمَا الذي يُمكِن أن يكون لدى خِتام ما يُسْعِد قلبها؟ إنَّها لا تزال طفلة الحادية عشر، لا تهتمُّ سوى باستعارة مجلَّات ميكي من صديقاتها في المدرسة والسَّهر عليها على وهج الشَّمعة بطول اللَّيل مُنتَشيةً. ثُم انتابها الفضول. تلقَّى قلبها الإشارة من العقل لكي يخفق طالبًا أن تُسارِع خِتام في الكلام. فحرَّكت الأخيرة شفتيْها ببطء، ولم تقل شيئًا سوى أنَّها ألْهَبت فضولها أكثر: «قابليني في الحمَّام، أول ما جرس الفُسحة يضرَب».

كانت خِتام بارعة في هذا الأمر، كُليًّا. أن تَزُجَّ بِك إلى غياهب المُقدِّمات ولكن دون أن تمنحك ولو نتيجة واحدة، تُلهِب مشاعرك وعواطفك وتمسُّ فضولك، ومن ثَمَّ تلتفت عَنك، تُحرِّك ساقيْها الحَسِكتيْن في اضطراب مَلحوظ، وتُغادِر المكان بتمهُّلٍ كَئود يستفزّ

أعصابـك. تسـتطيع أن تُنصِـت لهَـا وهـي تتلفَّـظ بعبـارات بالفرنسـية أثنـاء مغادرتهـا. عبـارات لا تُفْهَـم مِنهـا شـيئًا سـوى الخبـول..

Autrefois Sara était une fille gentille. Quand même elle se sent comme une poupée brisée.

لقـد كانـت سـارة فتـاة طيبـة. لكنَّهـا تشـعُر، مؤخَّـرًا، مثـل دُميـة بـاربي مكسـورة.

لم تفهـم أسْرَار يومهـا مـا تلفَّظـت بـه خِتـام مـن كلـماتٍ بالفرنسـية، حملـت بـين ثناياهـا اسـم «سـارة». إنَّهـا ليسـت المـرَّة الأولى التـي تتحـدَّث فيهـا هـذه الفتـاة المُريبـة بالفرنسـية. فكثـيرًا مـا دفعـت بكلمـةٍ مـا فرنسـية في وسـط حديثهـا، تتعمَّـد ابتـكار مواقِـف وطرائـف معينـة تحكيهـا فيهـا عـن وقائـعٍ مـا، قصَّـة مـن قصصهـا المثيرة، تفسـيرًا غـير علمـي بالمـرَّة لظاهـرة طبيعيـة كالأعاصـير مثـلًا، لتُنهـي حديثهـا بعبارتهـا المعتـادة: ومـا بـينَ الواقِـع والخيـال يـرزح المـرء بثنايـا الهَـلاك، أليـس هـذا مُثـيرًا؟

C’est magnifique!!

مـرَّ جـدول حصـص مـا قبـل الفُسـحة بطيئًـا كَسـولًا للغايـة، انتظـرت فيـه أسْرَار سـماع صـوت الجـرس بشـغَفٍ عـلى أحـر مـن جمـر. ابتلعت ريقهـا عـدَّة مـرَّات. لم تسـتطع منـع نَفْسـها مـن النَّظـر ناحيـة خِتـام ومراقبتهـا بـين الحـين والآخـر، وهـي مُنكَبَّـة بحنـقٍ غـير مَعلـوم مَقْدَحه عـلى كِتـاب التَّاريـخ؛ وجههـا يمسـحه حُـزن عَميـق، مشـوبٌ بالسُّـخرية. ولمَّـا كانـت تتلاقـى الأعـين، وقبـل أن تـصرف أسْرَار عينيْهـا بتوتُّـرٍ ناحيـة السَّـبورة، تلـوحُ ابتسـامة بريئـة سـاذجة عـلى شـفتي خِتام.. لا تسـتطيع الجـزم، إن كانـت حقًّـا بريئـة أم هادئـة أم خبيثـة.

وجاءت اللَّحظة الموعودة.

كطفلةٍ حالِمةٍ كان قد عاهدها أباها بإحضار لها لُعبة، فرحت وملئها الحماس حينما أتت لحظة رن الجرس، والكلّ مُسارِعٌ في التَّدافُع والهرولة إلى السَّاحة. بينما التفتت أسْرَار إلى حيث تجلس خِتام، فلم تجدها! سريعًا لملمت كراريسها ووضعتها في حقيبتها، وهبطت الدّرج المُتآكلة عتباته ودخلت إلى دورة المياه الخالية في هذا التَّوقيت.

كانت الإضاءة سيئة للغاية، والتَّهوية رديئة وقاحِلة، والبلاط الأبيض موحَّلٌ بدَرن وقذارة نِعال الطَّالبات. دارَت أسْرَار برأسها تبحث عن صديقتها، وأطرافها ترتعش، بردًا وحماسًا. فهمست لهَا خِتام من إحدى غُرَف الحمَّام: «تعالِ.. هِنا».

تردَّدَت أسْرَار، قليلًا، قبل أن تخطو قدماها تلقائيًّا صوب الحمَّام المفتوح بابه نصف فتحة. في هذه اللَّحظة على وجه التَّحديد، مرَّ شريط حياتها سَريعًا أمام عينيْها: منشأها، تديُّنها، عائلتها، حَسَن، حارة الفِرياني، الخرابة وأساطيرها، الشيخ المُتألِّه، الإمام التَّقي، لحظات التَّشوُّش الفِكري ودوَّامات الإلحاد، كم احتاجَت لعناقٍ طويلٍ من أمّها لكنَّها أبدًا لم تجده، صوتٌ من أقصى اليمين يُحذِّرها من الدُّخول، وصوتٌ قريبٌ جدًّا يهمس لأذنها اليُسرى بالمتابَعَة.. فأنصتت لهذا الأخير، ورضخت لمشيئته.

- «ما تخافيش.. قرَّبي أكثر».

عثرت أسْرَار على شجاعتها حينما وجدت خِتام تقف بجانب المِرحاض مُباشرةً، تبتسم لهَا بعينيْن لامعتيْن كقطط مُنتصف اللّيل السَّوداء، تحمل بين يدها ورقة بَدت كبردية طويلة، مَلفوفة بإحكام

بسلكٍ أَسْوَد، سُرعان ما نَقَلتها إلى يدها الأخرى، وهي توجّه سؤالًا لأَسْرَار التي وقفت إزاءها مرتبكة:

- «أنا معايا كل الأسرار. الأمنيات. الحاضِر. الماضي. وخبايا الأرواح».

ابتلعت أَسْرَار ريقها والعَرق يسيل على خدّها..

- «إزَّاي.. مش فاهمة حاجة».

لعقت خِتام شفَّتها العُليا بلسانٍ باهتٍ، ثم قالت:

- «تحبّي تجرَّبي؟».

- «أجرَّب.. أجرَّب إيه؟».

بانَت النَّغزة الحَجرية الغائصة في خدّها وهي تبتسم:

- «تسأليهم عن أكثر سؤال شاغِلك».

انتابَ أَسْرَار رعشة ظاهرة بعدما تلقَّت كلام خِتام. قالت:

- «أسأل مين؟ فيه إيه يا خِتام!».

- «مش إحنا صحاب؟». هدَّأت خِتام من ملامحها قليلًا. «واتَّفقنا إننا نلعب مع بعض كل يوم؟ يَلَّا نلعب!».

حرَّرت خِتام اللُّفافة من بين أصابعها انسيابًا كالماء، وفضَّت وثاقها بهدوء وثقل في أعصابها، بملامحٍ شاحبة أرْعَبت أَسْرَار، ثم لم تلبث أن فَردتها أمامها فتجلَّيا بَهَتَانها وقَتامتها، ونظرت إليها بعينٍ وأخرى ما تزال تتناول ما تحويه اللُّفافة! ذُعِرَت أَسْرَار مِنها وأرادت الفرار، لكن استوقفتها خِتام بيدٍ قويَّةٍ لا تُلاءم يد طفلة وقالت:

- «لو نفّذنا الكلام الموجود في الورقة دي، هيتفتحلك باب عمرك

ما كنتِ تحلمي إنِّك تدخلي جوَّاه، أبدًا!».

ثم استطردت:

- «معايا طلسم بيفك شفرة من شفرات الكون.. من خلاله هنعرف أسرار كتير ما كُنَّاش نعرفها. ممكن نبقى أغنياء.. نعمل كل اللي في نِفْسنا فيه يا بِت!».

بشفتيْن مرتعشتيْن سألَتها أسْرَار:

- «إإ..إنت..ي جبتي الورقة د.. دي.. منين؟».

لم تُجبها. اكتفت فقط بإعطاءها نظرة غير مُبالية بالإجابة على هذا السُّؤال العبثي. وقبل أن تعزم على ما ستقوم به، أكَّدت على أسْرَار مرَّة أخرى لكي يكون الأمر كله بإرادتها الحُرَّة: «موافقة يا أسْرَار؟ نكمّل؟».

أطْرَقت أسْرَار رأسها إلى صدرها. لم تتكبَّد عناء التَّفكير حتَّى، وأَبَت الإصغاء إلى الصَّوت المُحَذِّر لها.

- «موافقة». وهكذا، تتحمَّل أسْرَار كامل المسئولية على عاتقها.

كانت اللُّفافة خشنة وسميكة للغاية، قديمة جدًّا وتحمل من عبق التَّاريخ شِراره كُلّها. فور أن حملتها أسْرَار شعرت برهبة جامحة، كأنَّها تقف أمام قوى ما هائلة خفيَّة أثقلت صدرها وشَحَّت أنفاسها وأهطلَت دموعها لا إردايًّا. ألقَت نظرةً مُتفحِّصةً على ما تحويه. وقد نُقِشَ الطَّلْسَم بحبرٍ أسودٍ وبخطٍّ ثَخين واضح، بحيث يستحيل محوه مَهْمَا طال الزَّمان، وكأنَّ اللُّفافة قد صُنِعَت من الطَّلْسَم ذاته.. الذي ما إن ارتأته، انتصبت شعيرات رأسها هلعًا!

لكنَّه لم يكن المشكلة.

المشـكلة تكمُـن في تلـك الحـروف المُبْهَمـة المُتشـابكة ببعضهـا البعـض كحشـد هائـل بُلغـةٍ مـا لم تـرَ أسْرَار مِثيـلًا لهَـا مـن قبـل، مُتاخِمـة لهَـا ترْجمتهـا العربيـة الأكـثر غرابـة وهـولًا، في قالـبٍ إعجـازيّ يسـتحيل فعلـه عـلى بـشريّ: (بِالعُـلَا نَكْهَـوْ شَـمْخِيثَا شَـلَمْنِيثَا بِرَوفِيرَوشٍ مِهْرَاقُـوش هِـيرُومْ سِـيرُولْ جَمْجَامِـيرِشْ زَمْهُـورِشْ عَيْصَارْجَـأُورِشْ هَلُمُّـوا هَلُمُّـوا هَلُمُّـوا هَلُمُّـوا هَلُمُّـوا بِحَـقِّ إِزْرَاعِيـلْ وسِيمْسَـائِيلْ هَلُمُّـوا هَلُمُّـوا هَلُمُّـوا أَيَـا لِيَاخِيـمْ لِيَافُـورْ لِيَـارُوثْ لِيَاشِـلْشْ..).

وفي مُنتَصـف النِّجمـة، نُقِشَـت أربعـة اسـماء مزخرفـة بالطِّـين: دِنْيَائِيـلْ دَرْدَائِيـلْ أَشْـيَائِيل عَفَـرْ.

ملاحظـة: لا تُكـرِّر هـذه الأسـماء الأربعـة، ويُسْتحْسَـن عـدم نطقهـا أصـلًا..

انتزعـت خِتـام اللُّفافـة مـن أسْرَار، وشرعت تسـتحضر ما أتَـت لأجله، بصـوتٍ جَهـوري مَهيـب ترتجَـف لـه الأبـدان: «فلتتوكَّلـوا يـا خُـدَّام هـذه الأسـماء المَجيـدة بحـق سـاروخ العـاري ابن سـيد الكـون، المُقدَّس

إبليس العَظيم المُبجَّلة أسماءه بالأراضين السُّفلية، وبحق ما يتخفَّى وراء أسْرار المفاتيح ٨٣٢٥ د ٢ ن ٣ هـ ٦ ش بحق العهود السُّريانية..». وتلفَّظَت ببعض عِبارات ثَقيلة اللِّسان جدًّا بالسُّريانية (تحفَّظت المرأة عن الإخبار بِها). ثم تابَعَت خِتام: «بحقّ أسرار عظمة هذه الأسماء الأربعة أطيعوا واحضروا لَنَا مَن يُعلِّمنا أسْرارهم ويَرْشِدنا لبلوغهم. ولكم مِنَّا الرُّضوخ لكل ما تطلبون».

وظلَّ صوتها يعلو أكثر فأكثر كُلَّما اخْتَتَمَت التَّعْزيمة بـ.. «لقد أقسمتُ عليكم بحق المفاتيح وأسرار عظمة الأسماء الأربعة.. ما إن سمعتم النِّداء وَجَبَتْ عليكم السَّمع والطَّاعة وتنفيذ حضوركم المُبجَّل». مُكرِّرة إيَّاها مِرارًا وتِكرارًا، حتَّى صُفِقَ باب دورة المياه بقوَّة شديدة كزلزال، وامتلئ المكان بصهدٍ عاتٍ كأنفاس سَخينة مُلْتهبة جاءت من أقصى بُقْعة من الجحيم ذاته؛ جحيم المُعذَّبين تحت السَّبع أراضين.

هُناكَ طنينًا سَخيفًا رَفيعًا تتبدَّى موجاته الصَّوتية في الفَرَاغ رويدًا رويدًا، يزداد ويرتفع ببطء ضاري كادَ أن يُفجِّر رأس أسْرَار، المُلْتَصِقة إلى الحائط، المُنْكَمشة في نَفْسها كورقة. ثم تصاعَد الطَّنين فجأة ليشمل بطيَّاته هَزَّةً أرضيةً خفيفةً شعرت بِها أسْرَار من تحت قدميْها. لم تكد أن تتلفَّظ بالبَسملة - بشكل تلقائي فِطري - من فَرْط الخوف، حتَّى مَنعتها خِتام بصرخة شاهقة: «أوعي تفكّري تنتطقيها!!!!».

أطرقت أسْرَار برأسها خَشيةً. لكن ما إن رفعتها مُجدَّدًا صوب الحائط المستكن وراء الكَنيف، حتَّى ظَهَر ظلٌّ ما قاتِم السَّواد، طَفَقت هيئته تتشكَّل تدريجيًّا على الحائط، فتجلَّت: جِسم أجْوَف

بالـغ الضَّخامـة، مَحنـي الظَّهـر كعجـوزٍ طاعِـن في السـن، مُنْتفـخ الأدواج بقـدر بدانتـه المُفْرِطـة، لديـه مِخلَـبٌ مُدَبَّـب في إحـدى أصابـع يـده الثَّخينـة المكسـوَّة بالشَّـعر الكثيـف كحـال سـائر الجسـد، تتَّقـد عينيْـه احمـرارًا وقَدحًـا، تتفرَّسـا في أسْرَار كَفريسـة وجدهـا سَـهْلة للغايـة.. أتتـه بإرادتهـا حُـرَّة طَليقـة هاجـرة للرحمـة الإلهيـة.

تخشَّـبت قدمـا أسْرَار في مكانهـا، اصطَّكـت سـاقيْها ببعضهـما البعـض خوفًـا وفزعًـا، وعُقِـدَ لِسـانها فهـي خرَسـاء مَشـدوهة في تلـك الـرَّأس الملتصقـة بلحـم الكتـف، ذات الوجـه الشَّـيطاني المُخْـزِع لأشـدّ النَّـاس فتـوَّةً وشـجاعةً.

أخْـرجَ الكائـن لِسـانه الأسـود وتحـدَّث بِاللُّغـة السِّريانيـة مـع خِتـام (صوتـه أجـش، شـديد الضَّخامـة): «لقـد سـمعنا ولَبَّينـا. مـا هـي حاجتـك يـا ابنـة الصَّيـاد؟».

خـرج صـوت خِتـام هادئًـا للغايـة ومُتَّزنًـا كأنَّهـا تعرفـه مـن زمـن طويـل: «باسـم العُهـود السُّريانيـة أحضرتـك يـا سَـعف السُّـعوف. إنَّ صديقتـي قـد نـالَ مِنهـا كَبيركـم، فاشْـتَهَت أن تُطِـئ بقدميْهـا عالَمَكـم.. فـما هـو رَدَّكـم؟».

تفحَّـص الكائـن (سـعف السُّـعوف) أسْرَار بنظـرات ناريـة مُتجهِّمـة، كأنَّـه عـلى وشـك الانقضـاض عليهـا والتهامهـا دفعـة واحـدة، ثـم أشـاحَ لِخِتـام مـرَّة أخـرى، أخـرج لِسـانه الأسـود، وقـال بنـبرة مسـتهجنة: «إنَّ العفاريـت الأربعـة لا يأبهـون لهـذا الوجـه الصَّـارخ بالـبراءة المُقـزِّزة. علينـا أولًا أن نَضُمّهـا لحاشـيتنا، فتصـير خادمتنـا المُخْلِصـة».

- «وكيف تستطيع أن تصير خادمتكم المخلصة؟».

ارتفع الكائن عدَّة سنتيمترات إلى أعلى، مُلتصقًا بالحائط: «أَبْلِغِيها عَن المَصْدَر. أعْلِميها بالمطلوب. ادفعي روحها للدنس؛ فنُريدها خارج الجَسَد».

لم تكن أسْرَار تفهم أيًّا مِمَّا قيل في هذه اللَّحظة. كانت فقط تنظر إليهما بخوف عنيف، تُريد أن تخرج من دورة المياه، تفرُّ بحياتها، لكنَّها لم تكن تعلم بأنَّ الباب ما أن ولجته.. أُغلِقَ خلفكَ إلى الأبد.

رمقت خِتام أسْرَار بطرف عينها. ثم أومأت برأسها للكائن الهُلامي بالموافَقَة. فابتسَم بخبثٍ. وانكمش في نفسه مُتلاشيًا إلى العدم، كمَا جاء.

حينها التفتت خِتام إلى أسْرَار، وأعلمتها بالحديث الذي دارَ بينهما كاملًا.. باستثناء التَّرجمة غير الدَّقيقة لبعض الكلمات عن قصد.

تتحدَّث المرأة عن هذه الفترة، قائلة: عندما فَرَغَت خِتام من حوارها مع هذا الشَّيء البشع، انتابتني رجفة الخوف أكثر. ليس بسبب ما رأيته. لكن بسبب ما أنا مُقدمة عليه. شعرتُ أنَّني أدخل بابًا قاتمًا بملئ إرادتي لن أتمكَّن من الخروج مِنه، وإن فعلت، بأعجوبةٍ ما، فلن أكون سالِمة. نبَّأتني خِتام بالمطلوب، والدُّور الذي سأتلبَّسه جيدًا في أيَّام صباي المقبلة.. التي لم تعد فترة صِبا مُعتادة بعد الآن. كانت اللُّفافة مقطوعة من المصدر نَفْسه؛ إحدى طلاسم السَّاحر أليستر كراولي، مُمْتزجة بتعزيمة سُريانية لتستحضر به هذا الكائن، تمهيدًا لِمَا سيتأتَّى لاحقًا. كابدتُّ مجهودًا مُضنيًا لأصِل إلى أصل المخطوطة مَهْما تكلَّف الأمر. وسُرعان ما أخبرت بها حَسَن (الذي عمل أنذاك في فرشة لبيع الكُتُب المزيفة في الأزبكية) وأوصى صديقًا

مُتميِّـزًا في هـذا الصَّـدد بجلبهـا لي مـن أحـد سَـحَرة المَغْـرب المُخضرمـين. ومضـت ثلاثـة أشـهر كاملـة، حتَّـى أتـاني بهـا حَسَـن ذات صَبـاح خفيـةً وقـالَ راغـمًا نفسـه عـلى الابتسـام «ده كتـاب كامـل، ثمنـه غـالي. كلّفني تحويشـة عمـري كلـه. مـش فاهـم محتـواه إيـه ولا إنـتِ محتاجـاه في إيـه.. بـس مـا يغـلاش عـلى حبيبـة قلبـي». تسـبَّب ثمنـه في إفـلاس حَسَـن، وهـو مـا أدَّى لبيعـه كل الكتـب المتبقيـة لأحـد أصدقـاءه هُنـاك، وتطوُّعـه بعدهـا للعمـل في عربـة أبيـه. خبَّـأتُ الكتـاب تحـت سريـري، وأبقيتـه سِرًّا مـن أسرار عالمـي. لكـن في أحـد أيَّـام الصّيـف، أتذكَّـر جيـدًا، خَمَشـني الفضـول وصرعتنـي اللَّهفـة ليكـون جَليـسي في ليلتهـا.. وهـو مـا حـدث بالفعـل..

إنَّهـا ذِكـرى مُمِضَّـة بشـعة، أكـره أن أسـتذكر تفاصيلهـا. فطَلْسَـم اللُّفافـة كان بمثابـة الرَّضيـع بالنسـبة لِـمَا تطرَّقـتُ إليـه فيـما بَعـد.

لقد كان «سعف السُّعوف»، حقًّا، بريئًا للغاية!

* * *

٧

لم يَـرِد في السـجلات المدنيـة أي ذِكـر أو معلومـة واحـدة مُفيـدة عـن ماهيَّـة شـخصية عَبـير أُمُّ ربيـع. تلـك المـرأة التـي تمتـاز ببشْرتهـا البيضـاء وبجسـد أميـل إلى النَّحافـة، وصـدرًا بـارزًا مُنْتفخًـا للأمـام، وسـاقيْن طويلتـيْن مصقولتـيْن بشـكل مُثـير، ورُدْفـيْنَ سـمينتيْن مَنْفوشـتيْن دائمًـا خلـف عبـاءة باهِتَـة كبركـة ضحلـة وسـيل مـن السَّلاسـل الذَّهبيـة المُنكفئـة إلى بطنهـا، والتـي كانـت ومـا تـزال وسـتظل أبـدَ الدَّهـر تتفاخَـر وتتبَاهـى بِهـا أينـما ولَّـت وجههـا وفي البلكونـة صباحًـا مـع إحـدى جاراتهـا وكذلـك عندمـا تُجالِسـهنَّ عـلى السّـلم في المسـاء. لا أحد يعـرف مـن أيـن لهَـا بهـذا الذَّهـب، لا سـيَّما أنَّهـا تدَّعـي الفقـر المُذْكِـر والعَـوز، شـكَّاءةٌ بـكَّاءةٌ أمـام الجميـع. أيـن زوجهـا وأبناءهـا؟

إنَّ اسـمها عبـير أُمُّ ربيـع.. ورغـم ذلـك ظـلَّ اللُّغـز يتمنْطَـق حـول حقيقـة ابنهـا «ربيـع» الـذي لم يُـرَ في الفِريـاني أبـدًا!

مـا أن يُلامِـس نَعْليْهـا تُـراب الحـارة، حتَّـى تتقصَّـع مُتَبَخْـتِرة في مَشـيتها كفتـاة ذات دلال، تُلْفِـت الانتبـاه وتجـذب العيـون نحـو رُدْفيْها فيشـتعل أحدهـم شـهوةً ويهمـسُ في أذن نَديـم الشَّيشـة بتعجُّـبٍ:

- «هي السِّت دي مالهاش راجل يُشْكُمها بقى ولَّا إيه؟!».

ليسْـعَل الآخر بَلْغَمًا في منديلٍ يحتفظ به دائمًا في جيب سـترته الرَّديئة

بعد قرْقَرة شيشته العميقة، ويعرض عليه قائلًا:

- «ما تخليك إنتَ الرَّاجل ده وتُشْكُمهالنا.. الله!».

- «تصدق فِكرة ياض يا روحية!».

منحه نظرةً مُزْدريةً مُستاءةً وقال بامتعاض:

- «يا عم اسمي مصطفى!!».

- «اسمك في البطاقة مصطفى روحية.. ما فرقتش!».

رَاقَت الفِكرة لفتحي، أحد «علاولة» الحارة وأعْدمهم قيمة، كثيرًا. نَهض من مقعده في المقهى ولم يلبَث مصطفى أن سأله:

- «رايح فين يا عم أنتَ؟».

فأشارَ له فتحي بيده، وهمَّ خارجًا من المقهى، مُيَمِّمًا شطره خلف مُصْلِية غَريزته.

لا يجْرؤ شاب على المُضي في المنطقة التي تقع فيها الخَرابة ليلًا، لكن هذا الرَّجل المُتَأسِّد الذي يُحرِّكه قضيبه فحسب، قد اتَّخذ قراره صارمًا في السّير وراءها، مَهْما تكلَّف الأمر، يجب أن تُخْمَد الشَّهوة. كانت هي لا تزال تتعمَّد في الخُطى المتمعِّجة المُدلَّلَة، وازدادَت في دلالها هذا حينما عرفت أنَّه يقفو أثرها بعناد.. فأدركت أنَّ وجوده هُنا، غير آبهًا بالخرابة، ليس بريئًا أبدًا.

على طرف مدخل الخرابة التفتت له عبير أُمُّ ربيع، ابتسمت له ببراءة مُراهِقة تتمسْكَن لأن يدنو مِنها أكثر، فأكثر.. حتَّى وقف بإزاءها مُباشرةً، وكُلّه اشتعالًا واتِّقادًا، يرمقها بشهوانية ناهِمة مفرطة، ويُحرِّك لِسانه استعدادًا للعق رقبتها البضَّة. اسْتسلمت له، وفتحت له

ذراعيْه على مصرعيهما، وعلى وجهها ابتسامة حنون..

أو هكذا ظنَّ في بادئ الأمر.

ولم يُذْكَر أن عادَ فتحي إلى الحارة مُجدَّدًا..

* * *

لا تعرف أسْرَار كيف استطاعت تلك المرأة المُتطفِّلة أن تُقْنِع والدتها بجلبها إلى الشِّيخ ناصِر، طارِد الأرواح الشريرة وقاهِر الأعمال الخبيثة وراهِب قبائل الجِن العبثية. فقبلها استماتت السِّت رضوى في رفضها القاطع لتسليم ابنتها إلى هذا الدَّجال. أجل، فقد عُرِف عنه دجله وزيف علمه وجشعه لأموال وذهب النساء المُتلهِّفات عليه من كل حدبٍ وصوب ليُشفى فلذَّات أكبادهن على يديْه. ولذلك كانت تكرهه أسْرَار، الغير معترفة أصلًا بمثل هذه الأشياء، وتمقُت سيرته وتستصغر كل مَن يُمجِّد فيه كأنَّه مُرسَلًا حقًّا من السَّماء.

ولكن ماذا عساها أن تفعل الآن، وقد نجحت عبير أُمُّ ربيع في اقناع والدتها بهذه المهارة والاحترافية؟ أنَّى لها الرَّفض، وقد صرخت السِّت رضوى في وجهها نافذٌ صبرها، قائلة:

- «هتروحيله يا بِت إنتِ يعني هتروحيله!! خلص الكلام».

- «يا ماما ده كلب فلوس.. وإحنا مش معانا فلوس لجشعه ده! وفي الآخر مش هيتنيل يعمل حاجـــ..».

قاطعتها بصرامة:

- «إن شالله أبيع كل اللي حيلتي بس أعرف إنتِ فيكي إيه!!».

تدخَّلت عبير أُمُّ ربيع بقولها:

- «والشِّفا على إيده..... بإذن الله».

تخضَّبت ملامح أسْرَار بالضِّيق وعدم الرضا.. لكن ما باليد حيلة. إنَّها الآن تقف أمام والدتها المُتأثرة جدًّا بكلام ومديح عبير للشيخ ناصِر، وتعرف جيدًا أنَّها ما أن أصرَّت على شيء إلَّا وسيحدث عاجلًا أو آجلًا. أطرقت رأسها كمدًا، وأغلقت باب غرفتها بعنف.

وفي مُنتصف هذا الليل، سُمِع صراخها المعتاد من داخل الغرفة. فهرول أباها إليها مُنفزعًا، وأماني والأم من خلفه. كان الباب موصَدًا باحكام، وكأنَّ الذي قيَّدها بالداخل قد صَهَر الكالون بالأسمنت والحديد. ظلَّ عم سَعْد يدفع الباب بمنكبيْه بقوَّة ويركله بقدميْه، وكذلك تعالى صراخ ابنته العاجِزة بالدَّاخل، فازداد هلعًا، واشتدَّ وطيس الألم بداخل أماني، بينما كادَ قلب الأم لينخلع من صدرها إذ تصرخ:

- «بنتي! بنتي حبيبتي!!! بنتيييي!!!».

لم يجد عم سَعْد حلًّا آخرًا سوى إحضاره لفأس كبير، عازمًا بملئ قوَّته على تهشيم الباب إربًا. وقد نجح في الأمر، واستطاع أن يرى من إحدى الفوهات التي أحدثها ابنته و.. ثَمَّة شخصٌ ما يوسعها ضربًا بشيءٍ ما في يده وراء السَّرير!

أخيرًا وبعد إلحاق أضرار جسيمة بالباب، ركله بقدمه ركلةً عنيفةً، انكبَّ الجميع بالغُرفة وإلى أسْرَار المُلقاة على الأرض بإزاء السَّرير مباشرةً، غارقة في دموعها ومُصابة بنوبة هيستيريَّة من الفزع والجزع واللّطم والصُّراخ حتَّى انجرحت حنجرتها، وكادَت أن تُبْتِر شرايين يدها بموسٍ في قبضتها لولا أن احتواها الأب بذراعيْه وانصبَّت الأم

تحت أقدامها مُنهارةً وانتشلت أماني الموس منها بسرعة شديدة.

لم تكن أسْرَار تُكرِّر سوى جملة واحدة.. «هيقتلني قريب!! هيقتلني قريب!! هيقتلني قريب!!!».

انتفض عم سَعْد وجال بنظره بأنحاء الغرفة يبحث عن هذا الشَّخص، الذي تلاشى فور أن كُسِرَ الباب إلى العَدَم!

هُنا، أدركت السِّت رضوى أنَّها، حقًّا، بحاجة ماسَّة للذهاب بِها إلى الشّيخ ناصر.. وإنْ تطلَّب الأمر بيع نَفْسها، فلن تتردَّد في ذلك.

في صباح اليوم التَّالي، جاءتهم عبير أُمُّ ربيع ووقفت على عتبة الباب، بابتسامة منتصرة قالت:

- «مش يلَّا بيننا بقى ولَّا إيه؟».

رافقهم حَسَن إلى الشّيخ ناصر، القابع في إحدى محافظات الصعيد (نعتذر عن ذكرها)، بتروسيكل إحدى أصحاب ورش الحِدادة المجاورة. وقد استغرقت الرحلة سبع ساعات قضتها أسْرَار في الصَّندوق المكشوف دون أن يمسُّ شفتيْها المتشقِّقتيْن شربة ماء؛ إذ وبُناءًا على تعليمات عبير، لا ينبغي أن تأكُل أسْرَار ولا تشرب إلى بعد انتهاء الجلسة، ولم تُفصِح عن السَّبب.

سبع ساعات يا كفرة في ظل هذا الزحام الخانق من أجل الوصول إلى دجَّال! هكذا همس حَسَن لنفسه غير مُقْتنعًا على الإطلاق بما يحدث. إن كان في وسعه، فسينتشل محْبوبته وسيفرُّ بِها إلى الصَّحراء وليحدث ما يحدث. إذا كان لا وجود لله.. فهل يُعقَل وجود خوارق للطبيعة؟ ما هذا العته والخبل!

استقرَّ التروسيكل في الشَّارع المعني. سُرعان ما هبطت عبير وساعَدت الفَريسَتيْن على الهبوط. زَفَر حَسن استياءً. لكن الرَّهبة تملَّكته حينما جاءهم طفل لا يتعدَّى عمره السِّت سنوات، بجلبابه الأبيض المبقَّع بالدم ذي الأكوام الواسعة، وفغرَ فاهه وعينيْه ثابتتيْن نحو أسْرَار:

- «ورايا..».

ترك الجميع أنفسهم للطفل، لا إراديًّا تبعوه إلى حيث قادهم: أزقَّة ضيِّقة للغاية تكثُر فيها النَّوافذ القريبة من الرُّؤوس، وفي داخلها النِّساء والأطفال يتفرَّسون في أسْرَار، على وجه التَّحديد، كأنَّهم يعرفون أنَّها هي المعنية، حواري ودروب مُعتمة مُتَّصلة ببعضها البعض عن طريق تَفرُّعات جانبية تحمل وعورة بالغة المدى يحفظها الطفل دون أن يراها.. إنَّه أصلًا أعمى! فعيناهُ بيضاويْن تمامًا ليس فيهما البؤبؤ الأسود.. كيف لم يلحظ حَسَن ذلك من قبل؟ كيف له أن يُدرك ذلك بعد أن وصل بهم الطفل إلى خيمة فاقعة الحُمْرَة كبيرة جدًّا، تهيمُ أمامها الأغنام والماعز والبقر بطلاقة، وجيادٍ عربية لا غضاضة في أصالتها.

وعلى باب الخيمة، انتصب فتى فارع الطول وعريض الصَّدر ومتجهِّم الوجه، هو الذي قادهم إلى الدَّاخل، وأجلسهم في غرفة ضيقة قاحِلة التهوية على كراسي خشبية متهالكة للغاية، بجوار عشرات.. بل مئات النساء المتكدِّسات كالدَّجاج موشَّحات ومتدثِّرات في السَّواد كأنَّهن قد أتين من قبر.. يبدو أنَّهم لن يرحلوا قبل الفجر!

كان الصَّمت بين النِّسوة سيد الموقف، مَهيبٌ مُطْبِقٌ ببراثنه على

الغُرفة. أحدٌ لم يجسُرُ على التَّفوُّه ببنس شفة، لا سيَّما والجميع يتناهى لمسامعه همْهَمات وأنين مجهول المصدر تعتصران الجدران عصرًا، وريحٍ تصطدم بالوجوه القمْحاوية والعباءات المُتربة من حين لآخر.. أيضًا مجهولة المصدر. ظلَّت أسْرَار حائرة، مرتبكة، تتصارَع في داخلها حول ماهيَّة مشاعرها في تلك اللَّحظة: لماذا تشعرُ بالخوف؟ ألا تعلم بأنَّ كل ما يجري هُنا ليس إلَّا نصب واحتيال؟ خدع بصرية، ربما؟ أولم تُنكِر الله؟ إنَّ كان خوفها الباطني بسبب إيمانها الفطري بوجود شيءٌ ما ليس على ما يُرام بهذا المكان.. فمَن خلق هذا الشَّيء الخارق للطبيعة؟

ربما رهبة الموقف فقط.. ربما بسبب السَّفر والانهاك وعدم إخماد شهوة معدتها.. ربما لأنَّ هذه المرأة الغجرية التي تتمايَل بنعومة إذ تسير، نادَت أخيرًا عليها. ها قد أزف دورها بعد ثلاث ساعات كاملة. ها هي ذا تخطو بجوار حَسَن إلى طُرقة طويلة العُنُق مفروشة ببساط أحمر مَحبوك من فِراء الفاقِم، وحتَّى باب خشبي مَتين يفضي إلى خيمة أخرى داخلية، إضاءتها بالشُّموع الخالِصة، مُبَلَّطة برُخامٍ أسوَد، مجالسها عبارة عن وسادات كبيرة بلون مُقلَّم ما بين البُني والأحمر الغامق، تتواثَب آلاف الكُتُب المكسوَّة بالغُبار والمخطوطات التي بدا لأسْرَار أصالتها وقدمها بداخل مكتبة هائلة الضَّخامة تبتلع جزءًا لا بأس به من الغرفة. وفي أحد الأركان، جلس العلَّامة الأُسطورة على إحدى الوسادات المنفوشة.. قدَّمته المرأة الغجرية على النَّحو التَّالي:

- «تأدَّبوا واخشعوا. إنتوا واقفين في حضرة الدكتور العلَّامة الشّيخ المُبجَّل، سِيدِي وسِيدْكُمْ، ناصِر الكَرْبلائي. سِيدْكُم يقول.. وعليكم السَّمع والطَّاعة بدون أسئلة. يجعل شفاكي يا

نِــنّ عنيَّــا عــلى إيــد الباااارَااكَــة المكشــوف عنَّــه الحِجــاب!».
وتــردَّدت زغروطتهــا بأنْحــاء الطُّرْقَــة.

جــاء صــوت الشّــيخ ثَقيــلًا غَليظًــا للغايــة مــن الرُّكْــن المُظْلِــم.. مُتســائلًا:

- «دَفَعُوا المَطْلوب؟».

أسْرَعت الغَجَرية.. «كُلّه تمام يا شيييخنا».

أفْرَغـت مـن هـذه الكلـمات وأغْلقـت البـاب وراءهـا برفـق. أحسَّـت أسْرَار بـأنَّ الغُرْفـة تبتلعهـا وحيـدةً عاجـزةً إلى مَعـدة الأسـد، فاسـتمدَّت بعـض مـن الأمـان مـن مُلامسـتها ليـد حَسَـن، المُتَغضِّنـة أسـاريره لِـمَا دُفِـع باهِظًـا لأجـل هـذا الهُـراء.

سـطع شـبح ابتسـامة مـن بـين الظُّلمـة التـي يجلـس بلُجَّتهـا.. «هايــل».

وصفَّق بكفّيْه تصْفيقتيْن قويّتيْن.

بَزَغَـت إحـدى يديْـه وهـو يقـول آمـرًا، بعـد صمـتٍ طـالَ افـترَس الغُرْفَـة:

- «اجلسوا..».

وجلسـوا حيـث أشـارَ إليهـم الشـيخ نـاصر عـلى هـذه الوسـادات الفُقَّاعيـة. فهـمَّ واقفًـا باتِّـزان عـلى سـاقيْه، وتحـرَّك نحـو أسْرَار التـي تظاهَـرت في محاولـة خـاسرة لأن تتحـدَّاه بعينيْهـا، فابتسـم لهَا بإشْـفاق، وقـال بنـبرة سـاخِرة:

- «ناعمة وجميلة.. أكيد جِنّي خلبوص دايب فيكي!».

ومسَّـدَ وجنتهـا بفظاظـة أغضبـت حَسَـن، فقبـض عـلى ذراعـه سـاخطًا مُحـذِّرًا:

- «ما تلْمِسْهَاش يا راجل إنت!».

ومـا كان عـلى الشـيخ سـوى أن منحـه نظـرة ناريـة حـادَّة، وعيـدة وتخلـو مـن أي خـير، وانـصرف مُبْتعـدًا إلى منتصـف الغرفـة. كان مُلفَّعًـا في جلبـاب صـوفي مـن مفرقـه لأخمـص قدمـه، حليـق الـرَّأس، لـه لحيـة مُشَـذَّبة، وشـارب كثيـف كدُغـل، ووجـه أبيـض مُسـتدير، وعينـان زرْقـاوان حادَّتـان تجمعـان مـا بـين الصَّلابـة والحنـان، وبُنيـان قـوي رغم عمـره الـذي يزيـد عـلى سـتّين عامًـا قـضى منهـم ردحًـا لا بـأس بـه في دراسـة السـحر والأعـمال السُّـفلية وقـراءة الطَّوالـع والكـف وتسـخير قبائـل الجِـن، لكـن الجـزء الأكـبر مِنهـا كرَّسـهُ للنصـب والاحتيـال ببيعـه الـتُّراب في زُجاجـات، لمَّـا رأى أفـواج البُلَهَـاء يتأتَّـون إليـه ويتنامـون يومًـا بعـد يـوم مـن كافَّـة أصقـاع البـلاد.. فطَغَـى زيفـه عـلى عِلمـه الحقيقـي الـذي نحَّـاه جانبًـا وانتهَـجَ المهـام السَّـهلة. فـمَا أسـهل أن تنهـب الأمـوال مـن جـرَّاء المُغَفّلـين!

ولكـن هـذه المـرَّة، كانـت مختلفـة بجسـامة. لقـد استشْـعَر بمهابـة الموقـف. هُنالـك شيءٌ مـا جـاد في هـذه الحالـة، وليـس مُجـرَّد توهُّـم أو أمـراض نفسـية كسـابقيها. فـأسْرَار الجالسـة أمامـه بتوتُّـرٍ، تسـيحُ عيناها بِمـا فيهـا مـن عَنـاءٍ كئـود لم يـرَ مثيله مـن قبل قـط. لقد كان حـين يرمي نظـرةً عـلى الضَّحيـة.. يسْتَشِـفُّ كل مـا يقبـع بغياهبهـا مـن تخاريـف. ولكـن أسْرَار.. فثمَّـة خطـبٌ مـا حقيقـي بِهـا، طافـحٌ بصراحـة واضحـة مُنْجليًـا أمـام عينيْـه. لـذا.. فإنَّـه اسـتقرَّ بجـوار المكتبـة، يُفكِّـر بجديـة لم يعهدهـا منـذ مُـدَّة طويلـة، مـاذا ينبغـي عليه فعلـه الآن؟ مـا الذي على

أسْرَار لا يستطيع فهمه؟

- «شـوفِلِنا أي حِجـاب مـن بتوعَـك بقـى يـا شـيخنا ده أنـت بركتنـا وحضرتـك سـيد العالْمِين».

قالتهـا عبـير أُمُّ ربيـع بعفويـة، لكنَّهـا لم تتوقَّـع أن تـرى منـه تلـك النَّظـرة المرتبكـة حـين رمقهـا برسـالة اسـتوعبتها كُليًّـا، فحواهـا.. الأمـر يفـوق كل البُعـد عـن الحِجـاب والاحتيـال!

قال:

- «الأول لازم هنكْشِـف.. علشـان نعـرف هـي فيهـا إيـه بالظبـط. ومـن خلالـه نقَـدَّر العـلاج المناسـب».

سَلخه حَسَن بعينيْه باستحقار، وقال بسخرية لاذعة:

- «مـش أنـت المفـروض العلَّامـة المكشـوف عنَّـك الحِجـاب؟ مـا تقولنـا هـي فيهـا إيـه مـن نظرتـك الحـادة الفولاذيـة!».

نفـث الشـيخ نـارًا مـن منخريْـه، شـاحِذًا بـصره إلى عبـير.. لِـم أحـضرتي هـذا الوغـد إلى هُنـا؟! ولم يتكبَّـد عنـاء الـرَّد عليـه. سُرعـان مـا أخـرج لُفافـة مـن بـين رُزَم المخطوطـات المتكدِّسـة في المكتبـة، طواهـا بسرعـة، وأمـر بـأن توضَـع تحـت قـدم أسْرَار، وأوضـح قائـلًا:

- «دي ورقـة كشـف. هتحطيهـا تحـت رجْلِـك. قِفـي ثابتـة وأوعـي تتحـرَّكي.. واسـمعي كل الـكلام الـلي هقولهولـك بالحـرف.. اتفقنـا؟».

لم تجـد أسْرَار مناصًـا سـوى الاذعـان لـه، بعدمـا رمقـت حَسَـن بنظرةٍ ذات معنـى، أشـاحَت وجههـا مُجـدَّدًا ناحية الشَّـيخ، الـذي شرع يُعطيها

الأوامـر بصرامـة شـديدة، والسِّـت رضـوى تشـاهدهما بـروح مضعْضعـة وبعينـيْن دامعتيْن:

- «قِفـي ثابتـة خالـص.. مـا تتحرَّكيـش.. قَلِّـلي أنفاسِـك شـوية.. شششـش.. نفَّـضي مـن ذهننـا كل الخيـالات والأفـكار.. سـلّمي ودانـك لصـوتي.. شششـش... اهـدي.. اهـدي..». قبـض بيـده عـلى رأسـها ومسَّـد جبينها بابهامـه، فأرتخَـت أعْصابهـا نوعًـا مـا وهدأت أنفاسـها رويـدًا رويـدًا. أخـذ يُهمْهِـم بكلـماتٍ غـير مَفْهومـة، بلحـنٍ شَـجَوي كإحـدى تراتيـل سـحرة العصـور الوسـطى، ثـم طَفَقـت شـفتاه تتلفَّـظ بالتَّعزيمـة، تمهيـدًا لنـداءه لقبائـل الأعـوان المسـئولين عـن الكشـف.. بصـوت خفيـض في بـادئ الأمـر:

(بُرْهَـامٌ بُرْهَـامٌ غَزِيـرٌ مَدِيـدٌ إِزْرَارٌ إِزْرَارٌ قَحَـثٌ قَحَـثٌ..). شـهق بعمـق، وتابـعَ بصـوت عـالي. (عزمـتُ عليكـم يـا معـشر الأعـوان بعـز اللـه وبنـور وجهـه وبحـق أسـمائه إلَّا مـا أقبَلتُـم وأسرعتـم في قضـاء الحاجـة بحـق الأنـوار المضيئـة والأسـماء البهيَّـة والشّـعاعات العَرْشـية والكلـمات الرَّبانيـة والتَّسـابيح اليونانيـة والأقسـام العبرانيـة والعزائـم الملكوتيـة وبحـق الأقسـام والأسـماء المكتوبـة عـلى قوائـم العـرش أسْرِعـوا بحـق الكـف الأعظـم وبحـق آهيـا شراهيـا براهيـا أدونـاى اصباؤت آل شِـدَّاى إنَّ عـذاب ربـك لواقـع مـا لـه مـن دَافـع عـلى كل مـن عـصى عزيمتـى هـذه مـن قبائـل الجـن المنـوط بهـم جلـب الحاجـة أجيبـوا أجيبـوا واقضـوا حاجتهـا بحـق مَـن لـه العـزة والجـبروت).

ليـس مـن المفـترض -كـمَا يحـدث عـلى شاشـات التلفـاز مـن عـروض وهمية هدفها جلب المزيد من المشـاهدات- أن يتحرَّك ذراع أسْرَار لأعلى

أو لأسفل أو أشياء من هذا القبيل. بل المفترض، بعد أن يفرغ الشَّيخ من كلماته وهَمْهماته الذي تَلاها عشرات المرَّات بسرعة خيالية، يحسُّ بوخزة خفيفة في رأسه، يهمسُ صوتًا في أذنه يعرفه جيدًا، ويتراءى له ماهيَّة الحالة، تفصيلًا.. وكُلّه بإذن الله، على حد زعمه.

صمتٌ مَشْحون.. تمدَّد وتمطَّى ليسع الغرفة كُلَّها. الجميع مُترقِّب عن نتيجة الكشف. الشّيخ لا ينبس بشفة، وهذا غريب ولم تعهده عبير أُمُّ ربيع من قبل. ماذا يرى يا تُرى؟ ما الذي تشعر به أسْرَار الآن؟ ظلَّت قبضته مازالت مُستمسكة برأسها، ولا يزال يُردِّد بعض الهَمْهَمات من النَّص السَّابق..

ثم فَتح عينيْه بغتةً.. مُحمْلِقًا في أسْرَار طويلًا.. مُغرقًا في وجهها الجميل الهادئ. ابتلع ريقه، تبدَّت ملامحه بالرَّبكة، ارتعشت أطرافه بشكل طفيف غير مَلْحوظ، تراجع للوراء خطوتيْن وحدقتاه تجحظان إلى آخرهما بوجلٍ، في ترقُّبٍ مُخيف لِمَا سوف يحدث.. بعدما علم بكل شيء!

اهتزَّ صوته وهو يتلفَّظ بـ «أسْرَار». ففتحت أسْرَار عينيْها ببطء، جاحظتان لا تريا شيئًا أمامها. ثم طَفَت على محياها ابتسامة هادئة بعض الشَّيء، سُرعان ما استحالَت إلى رسمة خَبيثة، ثُم ضحكة تنامَت عالية.. فزع لهَا وقال على إثْرها مُختلِجًا: «خلِّي باااالِك!!!».

و..

صفعة قويَّة بئيسة شديدة الصَّلابة سُدِّدَت لبطْنها.. أسْقَطتها أرضًا من فرط ضخامة القبضة التي ظهرت كخيال مائي شفَّاف يُلْحَظ بالعين بعد تدقيقٍ عَصيب. فزعت الأم وأطلقت صرخة عاليةً. بينما

كان هـو لا يـزال واقفًـا مَذْهـولًا يُـردِّد بخوف لم يشـعر بـه في حياتي قط: «يـا نهـارك إسـود!! إنتِ عملتي إيه!!! مسـتحيل!! مسـتحيل!!!».

تلـك اليـد الصَّلبـة أمسـكت بشـعرها، وبطُغيـانٍ لا رأفـة فيـه.. أسْـحَلَتها عـلى البَـلاط وألْقَـت بِهـا عـلى الحائـط فتشـقَّق مـن قـوَّة الرَّميـة. تزايـدَ صراخ الأُم.. حـاول حَسَـن التَّوجـه نحـو أسْرَار بأقـصى مـا لديـه مـن قـوَّة ولكنَّـه صُفِـع عـلى وجهـه صفعـةً شـديدةً طرحتـه أرضًـا.. ناضَـل لينهـض مُجـدَّدًا.. لكنَّـه تلقَّـى ضربـة عنيفـة عـلى رأسـه كمطرقـة.. أفقدتـه وعيـه تمامًـا!

التزمـت عبـير أُمُّ ربيـع الهـدوء التَّـام، ملامحهـا لا تـشي بِمَـا تُفكِّـر بـه في هـذه اللَّحظـة. «مسـتحيل! مسـتحيل!»، ظـلَّ يرددهـا الشَّـيخ وهـو يهـرْوِل إلى المكتبـة مُتعـثِّرًا في الكتـب التـي سـقطت، واسـتجلب أحـد مُجلَّـدات شـمس المعـارف الكُـبرى العتيقـة المُهترئـة صفحاتـه لأحمـد بـن عـلي البـوني، وبصعوبـة بالغـة، بينـما كانـت الريـح تعـوي زاجـرةً لأي حركـة، اقتطـع مِنـه صفحـة باهِتـة فيهـا -هكـذا ظـن- إخـمَاد لِـما يحـدث.. بـدت هكـذا كـمَا في الصـورة التَّاليـة:

وطفـق يُـردِّد بلسـانٍ ملئـه الخـوف وبقلـبٍ مُرتَّـع بالفـزع: «بسـم اللـه الرَّحمـن الرحيـم السَّـميع العليـم أَزْلِي أَزْرَار أَزْرَار أَنُـوخْ أَنُـوخْ أَصْبَـاؤُتْ أَصْبَـاؤُتْ أجيبـوا أجيبـوا أيُّتَهَـا الملـوك الأرضيـة وافعلـوا مـا تؤمـرون بـه بحـق الملـوك العلويـة الحاكمـين عليكـم بحـق الاسـماء العظيمـة شَـيْغَابْ هَلْيـوب شَـلْيوبْ تَيْغُوبْ هَيْطُـوبْ شَـيْطُوبْ طَلْقُوبْ هَـارُوتْ مَـارُوتْ بَهْيُـومْ أجيبـوا بحـق هـذه الاسـماء وتوكَّلـوا يـا خُـدَّام هـذه الاسـماء وصـدُّوا هـذا الملعـون صـدُّوا هـذا الملعـون صـدُّوا هـذا الملعـون بـارك اللـه فيكـم!!».

يارب! يارب! يارب!

صرخة مُفْزعة أطْلقتها أسْرَار، فوجدها قد نهضت ووقفت أمامه شاحِبة الوجه، تغتصبه بعينيْها المُتَّقدتان من الجحيم، بدت كالموتى الأحياء بكل ما تحمله الكلمة من معنى، على وشك الانقضاض عليه والتهامه حيًّا غير مُسْتبقية عظمة واحدة فيه. كادَ أن يبكي وهو يصيح فيها بفزع: «ارجع إلى حيث كنت يا ملعون الزَّمان! ارجع لموطنك يا مَلْعون! حسبي الله ونعم الوكيل.. حسبي الله ونعم الوكيل.. حسبي الله ونعـــ.....».

اقتحمت المرأة الغجرية الغرفة، ومن خلفها عشرات الرُّؤوس النسائية تتزاحَم مُشْرَئبة في فضول وترقُّب. فوَجَدَت حَسَن، والسِّت رضوى، مُلقيان على الأرض فاقدان الوعي وعلى وجهيْهما أثر الفزع والخوف، وعبير أُمُّ ربيع لازالَت تجلس في مكانها ثابتة ساكنة، تراقب المشهد أمامها عن صدمة شلَّت لِسانها، مَشهد غير مُتوقَّع على الإطلاق. كمَا دُهِن وجه أسْرَار بدماءٍ غزيرة للغاية، خاصَّةً فمها وأسنانها التي كانت تُقطِّر دمًا وجِلْدًا.. تجلس القُرْفصاء وفي يديْها شيء تأكُل مِنه بتلذُّذٍ..

هل ينبغي أن أصف لكم ما كان عليه الشَّيخ؟

* * *

٨

لسوء حظِّها الأكْهَب، أنَّ حَسَن لم يكن يعرف القراءة والكِتابة. فقد اقتصر عمله على بيع نِفايات المكتبات من الكُتُب التي لم تعد في حاجة إليها، أو انتهى عقد كُتَّابها ومرَّ زمنٌ طويل عليها، دون أن يتطلع على أيٍّ مِنها. ولو علم ما استحضره إلى محبوبته، لمَا تجرَّأ ودفع كل أمواله في هذه المخطوطة، وفي الكُتُب الأخرى التي شرع يجلبها لهَا بين الحين الآخر انصياعًا لرغباتها الغير قابلة للطعن.

حقًّا أحبَّها، وقَدَّس سيرتها بكل سَهْرة كان يقضيها مع أقرانه من فُتْيان الفِرياني، ورضخ لمشيئتها عندما أفصح لهَا عن نواياه تجاه مُسْتقبلهما، لمَّا أخبرته بأن يفرك التَّشغُّف لديه ويُوقظه من سُباته العميق ويسْعَى حثيثًا لأن يُصْبِح إنسانًا هامًّا في المجتمع، إذ لا يُعْقَل أن يظل هكذا مهيض جِناح الحارة ومن «علاولتها»؛ أولئك الذين يقضون يومهم بأكمله مُتنقِّلين بين صُحْبَة المقاهي اللَّا مُتناهية وافتعال المشاجرات بين شباب الحارة بين الحين والأخر بدافع الملل والتَّفرُّغ النَّفْسي.

ماذا سيُخبِر أبيها حينما يعزم على الزَّواج مِنها؟ إنّي لم أتلقَّ تعليمًا بسبب تردّي حالة أبي المادّية ولم أستغل مواهبي في الإطاحة بأسطورة النَّجاح بالشَّهادة فقط؟ وقفتُ ساكِنًا بلا حراك أُشاهِد حبيبتي تنضجُ عامًا بعد عام ولم أُصارِع الدُّنيا من أجلها؟

اقتنع بكلامها. ظلَّ يَهيمُ بِها ويعمل على إرضاءها مَهْما تكبَّد الأمر، وإن وصل أن يجلب لهَا كُتُب ومخطوطات يعجز أصلًا عن قراءة عناوينهم ويدفعها إلى خَنادق الهلاك، فسيفعل.. وها قد فعل، الغبي قد فعل!

لو أنَّه عزم على تعلُّم القراءة والكتابة، لكان أحرى به زجْرها عما يتقّد برأسها المُنْحَرِف. لكن عوضًا عن ذلك، ولمَّا أتته في أحد أيَّام الصَّيف لتطلب مِنه مُفتاح مخزن أبيه لتُصرِّف فيه بعض من أعمالها السرية، وافقها على الفور ودون أن يستفهم مِنها ما تُريد القيام به هُناك. أخبرته أنَّ الأمر سِرِّي للغاية وأنَّها تُفضّل الاختلاء بنفسها بعيدًا عن أعيُن البيت، مُنفردةً بكتاب ومُنْتشيةً بالهُدوء. حسنًا ولِمَ يعترض طريقها؟ وهو مُراهِق الخامسة عشر، وقد جالَ في خاطره أنَّه ما إن وفَّر لهَا كافَّة سُبُل الرَّاحة وبقيَ تحت طوع بَنانها.. فحتمًا سترضى عنه.

كانت الدُّنيا ظلامًا دامسًا مُخيِّمًا على آفاق (الواحدة بعد منتصف الليل) شهر أبريل. وكانت أسْرَار تتسلَّل في ذلك الوقت كفأر صغير مُنزوي خفية بأزقّة الحارة إلى حيث يقع مخزن عم خيري، الشبه خالي دائمًا نظرًا لتهافُت الجميع على الأكلات الشَّعبية التي يُقدّمها فلا يجد ما يُخزّنه ويُنحّيه جانبًا، حاملة على ظهرها حقيبة المدرسة، وقد انتفخت إثر الأشياء التي عبَّأتها بداخلها.. تمامًا كمَا أخبرتها خِتام: إحدى مخطوطات السَّاحر البريطاني أليستر كراولي، صحيفة نُحاسية، فرشاة دهان كبيرة، دماء لقطّة بيضاء كانت قد نصَّبت لهَا فخًّا بَئيسًا وقامت بذبحها والاستيلاء على دمها في قنينة صغيرة أحضرها لهَا حَسن في إحدى جولاته معها في خان الخليلي، صفحة

سـورة الإخـلاص اقتطعتهـا مـن المصحـف الشَّريـف، خمـس شـمعات، وعلبـة كبريـت صغـيرة.

حبسـت أنفاسـها مُختبئـةً في أحـد الأركان بجـوار الحائـط، عندمـا تناهـى إليهـا وقـع أقـدام أحدهـم يُقبِـل مـن زُقـاقٍ مُجـاور، مـرَّ أمامهـا دون أن يشـعُر بِهـا، لم تتبـيّن ملامحـه ولا هيئتـه ولا رداءه، ظلَّـت تُراقب خطواتـه بطرفهـا حتَّـى تـوارى عنهـا، مُنعطِفًـا باتجـاه الخرابـة.

فليذهـب إلى الجحيـم.. ومـا شـأني؟ دَنَـت مـن بـاب المخـزن، وضعت المفتـاح بـه بخفّـة بالغـة، أصـدر البـاب مـا كانـت تخشـاه: صريـرًا طفيفًـا لكنَّـه مُزعجًـا وشـأنه إيقـاظ البيـوت في الأدوار العُلوية، ولحُسـن حظّهـا أنَّهـا دلفـت بسرعـة وأحْكَمـت غلـق البـاب جيـدًا وراءهـا دون أن يحـدُث شـيئًا كـمَا ترقَّبـت، سـلَّمت نَفْسـها لعتمـة المخـزن، ورائحـة شـوالات البصـل الموضوعـة فيـه بالرُّكـن الغـربي.

لم يُطْلَـب تشـغيل الإضـاءة، بـل إشـعال الخمـس شـمعات ووضع كُل شـمعة في الخمـس رؤوس المُتقابلـة. أخرجـت الفُرشـاة وقنينـة الـدم، حرَّرتهـا مـن غطاءهـا وسـكبت مـا بِهـا عـلى الأسـفلت، وقامـت برسـم نِجمـة خُماسـية طبقًـا للشَّـكل الـذي كان بالمخطوطـة.

أخرجـت المخطوطـة ووقفـت بجسـدها الضَّئيـل بمنتصـف النجمـة. كـم غريبـة هـي، وعجيبـة! فلـم تكـن تشـعر بالخـوف، منـذ تلـك اللَّحظـة الفارقـة في حياتهـا التـي رأت فيهـا الكائـن سَـعْف السُّـعوف، وتخلّيهـا عـن فكـرة الإلـه الرَّحيـم الطَّيـب، واطلاعهـا عـلى كتـب السـحر ومخطوطـات الطَّلاسِـم، وهـي لا تأبـه بـأي شيء قـد يحـدث لهَـا مـن جـرَّاء مـا تقـوم بـه. لم يكـن هُنـاك مَـن يقوِّمهـا، ولا مـن يحتضنهـا ويهتـم لأمرهـا. لقـد كانـت

وحيـدة تمامًـا ومهجـورة مـن العائلـة، تفعـل مـا يحلـو لهَـا سِرًّا وتسـير حسـب أهواءهـا كـمَا تشـاء. لكـن ظـلَّ الصـوت يُطنطـن بداخلهـا، مُسـتفزًّا: لا تفعليهـا.. لاا تفعليهـا!!!

إنَّهـا بصـدد اسـتدعاء أحـد العفاريـت، مِـمَّا أفْصَحـت عنهـم المخطوطـة باسـم «العفاريـت الأربعـة». وهُـم عفاريـت شـيطانية بشـعة المنظـر وليـس لهَـا هيئـة مُحـدَّدة، لهُـم طقـسٌ مُعـيَّن لا يُقـام إلَّا في توقيـتٍ مُعـيَّن خـلال العـام، يُشـترط أن يُقـدِّم السَّـاحر قربانًـا لأحدهـم، ولا يهـاب أو يتعـرَّق مـا أن يظهـر أحدهـم أمامـه حتـى لا يسـتصغره، فيدفعـه لهـوَّة الهـلَاك.. آبيًـا الانصيـاع لأوامـره، لذلـك عليـه ممارسـة الطَّقـس في خِلـوة رياضيـة، مُصفِّيًـا روحـه كاملًا في جـو روحاني عـلى وهْـجِ الشُّـموع. العفريـت المنـاط تحضـيره الآن هـو حَزْقِيَائِيـلْ (لا يتـأتَّى إلَّا في فصـل الصّيـف)، يُكتَـب اسـمه عـلى رقعـة (لم تجـد أسْرَار سـوى فـرْخْ مـن كراسـة رسـم كبـيرة) ويُحْـرَق اسـمه بالكبريـت مُختلطًـا بسـورة الإخـلاص في صَحيفـة نحاسـية، عارضًـا الطَّلْسَـم أسـفل قدمـه..

ومُنصاعًا تمامًا للآتي:

* رسم النّجمة الخُماسية بدماء القُرْبان على الأرض، عكس اتِّجاه القبلة. والحِكمة من هذا الأمر -كما بيَّنه كتاب شمس المعارف الكُبرى وما أكَّدته مخطوطة أليستر كراولي- بأنَّ الجهة المُشار إليها هي عرش إبليس.

* كتابة أحرُف اسم إبليس داخل رؤوس النجمة بشفرة توازي أحرف اسمه (إ ب ل ي س).

* وضع خمسة شُموع مضاءة على أطراف الرؤوس الخارجية للنجمة.

* قراءة العزيمة الإبليسية بصوتٍ جَهوري (تُقْرأ ٢٥ مرَّة):

(أَبْرَاشٌ أَبْرَاشٌ هِيلَاشٌ هِيلَاشٌ أَشْمَاشٌ أَشْمَاشٌ هَالُوخٌ هَالُوخٌ يا مَنْ تَفَرَّدَتَّ بِعَظَمَتِكَ فَوَضَعْتَ عَرْشَكَ عَلَىَ المَاءِ يا مَلِكَ مُلُوك مَعْشَرَ الجِنّ والشَّياطِين يا أيُّهَا المَلِك إبْلِيس العَظِيم عَلَيكَ السَّلَام اسْمَع عَزِيمَتي واقْبَلْ دَعْوَتِي وتنسَّم دُخْنَتِي واقْضِ حَاجَتي يا قَاضي الحوائج وهي أسْرَارُ الوجُود ومُحِيطُ العُلُوم بِحَقِّ قُوَّتِكَ وَعِزَّتِكَ وَسُلْطَانِكَ الرَّجَا الرَّجَا الوَحَا الوَحَا العَجَلُ العَجَلُ السَّاعَةُ السَّاعَةُ أَحْضِر لِي عَبْدَكَ حَزْقِيَائِيلْ).

ثم انتصبت أسْرَار في مكانها، وأغمضت عينيْها. أولًا، وضعت كفّيْها على خاصرها، بحيث تركت فراغ بين الإبط والسَّاعِد، وردَّدت كلمة «فَالْجَارَسْ VALGARS» ثلاث مرَّات. فَرجت

ذراعيْهـا عـلى مصرعيْهـما، وردَّدت «زِيرْزِيـرِدْ ZIRZIRD». أبقـت الـذِّراع اليُـسرى في موضعهـا، بينـما رفعـت اليُمنـى لأعـلى، فـارِدة قبضتهـا كُليًّـا، مُـردِّدة «دِيَالِيفَـا DIALIVA». وأخـيرًا قامـت برفـع كِلا ذراعيْهـا لأعـلى، مُشـيرةً إلى الـشَّرق والغـرب، مُـردِّدة الكلمـة الأخـيرة «كَرَالْبِـيرْ CRALPIR».

فعلـت أسْرَار كُل المطلـوب، بكامـل الضَّمـير والتَّفـاني، كأنَّهـا بالفعـل سـاحِرة محترفـة لا تخـشى الويْـلَات!

أخـذت تُـردِّد وتُـردِّد وتُـردِّد، وتتـمادى في إعـلاء نـبرة صوتهـا أكـثر فأكـثر، حتَّـى شـعرت بوخـزة خفيفـة مُبَاغِتـة في رأسـها شوَّشَـت عـلى مـا تُـردِّده. فصمتـت، وفتَّحـت عينيْهـا. صُـداعٌ ظَلِـفٌ اجتاحهـا بـضراوة، يـكاد يُفجِّـر رأسـها ويحبـس دماءهـا مـن إكـمال دورتـه. انتابتهـا قشْـعَريرة قويَّـة اهتـزَّ لهَـا الجسـد بسرعـة، لكنَّهـا اسـتماتت لتبقـي قدميْهـا الحافيتـيْن بداخـل النّجمـة. قبضـت بيدهـا عـلى رأسـها بشـدَّة لمَـا تزايـد الصُّـداع السَّـخيف في رأسـها، يدفعهـا للغثيـان، يُرهِّـل عضلاتهـا ويُشـوِّش رؤيتهـا. لكنَّهـا اسـتطاعَت أن تـرى رغـم ذلـك..

رأت الشُّـموع وهـي تنطفـئ بفعـل ريـحٍ قويَّـة عاويـة، والمخـزن يغـرق في ظُلمـةٍ حالِكـةٍ. رأت ألوانًـا قاتِمـة (أحمـر نبيتـي وأزرق غامـق ورمـادي سـوداوي) تزحـف عـلى الجـدار قبالتهـا ببطءٍ شـديد، ثـم تلتها أصـوات لهمسـات مُتَداخِلـة لأُنـاسٍ يتحدَّثـون بسرعـة خيالية، تسـتطيع أن تشـعر بزفـير أفواههـم وهـو يخـترق أُذُنيْهـا ويُغَلِّفهـما تغليفًـا. ثـم بـدأت الأرض تهتـزّ بخفَّـة أسْـفَلَها، ومـع إدراكهـا لذلـك.. كان ثَمَّـة شيءٌ مـا مُبْهَـم يقـف أمامهـا.. إن اعتبرنـا أنَّـه واقـف ولـه أقـدام مِثلنـا!

اســتطاعَت رؤيتــه بتشــوُّشٍ بســيط في حدقتيْهــا. كان تمامًــا كــمَا اتطلعــت عــلى صورتــه في المخطوطــة: هيئــة غريبــة مُبهمــة الملامــح، مثــل كتلــة عجــين مترهلــة في نَفْســها وغــير مُتماسِــكة، لــه حوافِــر في يــده الكبــيرة، وقــدم واحــد ضخــم بــه إصبعــيْن، بينــما توسَّــط الهيئــة العجيبــة وجهــه بشــكلٍ أعجــب، فتبــيَّن أنَّهــا كُلَّهــا عبــارة عــن وجــه ويــد وقــدم مُتداخلــون في بعضهــم البعــض! ذو عينــان ناصعتــان البيــاض، وأنــف معقــوف طويــل مُتمايــل كسَــمَكة إلى أســفل فمــه العريــض، يقــف مُتمعِّجًــا أمامهــا مُتراقِصًــا كفتــاة ذات دلال، وكذلــك بــرزت مئــات الوجــوه الممســوحة الملامــح مــن الجُــدران، كأنَّهــا عــلى وشــك اختراقــه متــى أمرهــم ذلــك العِفريــت الغريــب!

لا يجب أن تخاف.. لا يجب أن تخاف.. لا يجب أن تتعرَّ...

سالَت قطرات العرق على عُنقها!

ابتلعــت ريقهــا بحنــق، وقامــت بتوجيــه أول أســئلتها لــه بالفُصْحــى، بتردُّدٍ:

- «من أي قبيلة أنت؟».

يبــدو أنَّ قوتهــا تلــك كانــت فقــط ظاهريــة، والباطِــن حَــوى الكثــير والكثــير مــن الضّعــف والقــوى الخائــرة، تجلَّــى ذلــك في اختــلاج نــبرة صوتهــا. ليــس مــن المفــترض أن يســير الأمــر هكــذا!!

لم يُجبهــا. اكتفــى فقــط بنظــراتٍ غامضــة شَرســة تتفرَّســها مــن خُصــلات شــعرها إلى أخمــص قدمهــا، كأنَّــه يــدرس طبيعتهــا وهــل يُعيرهــا اهتمامًــا أم لا. كشــف عــن فكّــه الغليــظ الحــاد، وأخــرج صوتــه الغــير قابــل للتصنيــف -حرفيًّــا- وقــال: «طلــبٌ، وضرائــبٌ».

استفهمت أسْرَار، خائفة:

- «مـــ. ماذا تعني؟».

كرَّر بقوَّة: «طلبٌ، وضرائبٌ!!!».

ارتعشـــت، وتخضَّبـــت ملامحهـــا بالصَّفـــار. فقـــوَّة صوتـــه أفزعتهـــا وأرجفـــت أوصالهـــا! كادَ أن يقتلعهـــا مـــن مكانهـــا كشـــجرة مـــن فـــرط قـــوَّة الصَّـــوت!

أطْرَقت برأسها إلى أسفل إذ تقول مُنْصاعةً:

- «لَكَ ما تُريد..».

ظُلِّل وجهه الممسوخ بابتسامة حادَّة كالسّكين، وقال راضيًا:

- «طلبٌ».

يفترض الآن أن تطلُب منه طلبًا. ماذا تُريد مِنه أصلًا؟!

حاولـــت الحفـــاظ عـــلى وتـــيرة أنفاســـها، صدرهـــا يعلـــو ويهبـــط بصعوبـــة مـــن فـــرط الخـــوف. اســـتحضرت السُّـــؤال الـــذي أرادت معرفـــة إجابتـــه دومًـــا، فقالـــت:

- «أين الله مِن الكون؟».

تثبَّتـــت ملامحـــه لحظـــة. طفـــق يتأمَّلهـــا بعينـــيْن مُشِـــعَّتيْن بياضًـــا لامعًـــا. خُيِّـــل لهَـــا أنَّـــه -ربمـــا- يُفكِّـــر.. أو ربمـــا لا يُريـــد الإجابـــة عـــلى هـــذا السُّـــؤال تحديـــدًا. فلفـــظ الجلالـــة مرفـــوض ابتـــداءً في مِثـــل هـــذه الطُّقـــوس.. أهـــي غبيـــةٌ إلى هـــذا الحـــد!

لكـــن عـــلى غـــير المتوقَّـــع، أشـــار العِفريـــت بأحـــد مخالبـــه نحوهـــا، عازمًـــا عـــلى إنهـــاء إجابتـــه لهَـــا.

أشار نحوها.. أهذا كل شيء؟

تعجَّبت أسْرَار مِمَّا فعل. فقالت:

- «لا أفهم.. فلتُجبْنِي يا حَزْقِيَائِيلْ، أرجوك!».

أشارَ نحوها مُجدَّدًا، مؤكِّدًا الإجابة!

لا تزال لا تستوعب ما يحاول إيصاله إليها.

نظرت خلفها، لعلَّه يُشير إلى شيء ما خلفها.. لكن الفراغ كان بانتظارها. أشاحَت بوجهها ناحيته مرَّة أخرى، فوجدته لا يزال يُشير نحوها، فاقِدًا صبره من غباءها!!

ولمَّا انتهى من الإجابة، فغر فاهه واسعًا، وردَّد قرابة العشر مرَّات: «ضرائبٌ!! ضرائبٌ!! ضرائبٌ!!». مُبتسمًا وسعيدًا للغاية. أيضًا لم تفهم أسْرَار ما يعنيه بهذه الكلمة.. عن أي ضرائب يتحدَّث عنها هذا الوغد عديم النَّفع؟! وجَّهت له عدَّة أسئلة أخرى، لكنَّه استمسك بقوله ضرائبٌ ضرائبٌ!!

زفرت أسْرَار من فيْها الصَّغير، وصرفته يائسة: «حسنٌ.. فلتنصرف الآن. ولَنَا موعد قريب».

انحنى لهَا مُلبِّيًا في حركة مَسْرَحيَّة.. «بكل سرور!». واختفى عن ناظريْها.. واختفى معه كل شيء.. وعاد المخزن إلى العتمة مُجدَّدًا.

ما كادت أن تشرع في إعادة الأغراض إلى حقيبتها، ومسح النَّجمة الخُماسية من الأرض، حتَّى دُفِعت من الخلف، فانكفئت على وجهها بقوَّة. إنَّها رياح اصطدمت بظهرها، رياحٌ ساخِنة كأنفاس مُلْتهبة.. هل شعرتَ بِها أنتَ، أيضًا؟

* * *

الصُّورة الوحيدة للعِفريت «حَزْقِيَائِيلْ» بمخطوطة أليستر كراولي..

٩

سَـارَت ببـطءٍ وآليـة، لا يسـعها رؤيـة أي شيء في ظُلُـمَات الغابـة الموحشـة إلَّا مـن بُقَـع اليَرَعـات المضيئـة التـي تصطفك بوجههـا من حين لآخـر كفُتَـات طـوب، لا تسـمع سـوى وقْـع خطـوات قدميْهـا الصَّغيرتـيْن الحافيتـيْن عـلى الحشـائش والجـذور المتناثـرة والأوراق المُهشَّـمة التـي تُغطـي سـطح الغابـة في هـذا التَّوقيـت الهـادئ مـن اللّيـل. سـارَت عـلى نهـج الفضـول والاستكشـاف الطُّفـولي الـبريء. فبالنسـبة لفتـاةٍ مِثلهـا، اسـترعى اهتمامهـا تلـك الغابـة الفسـيحة القريبـة مـن منـزل أبويْهـا الجديـد، بعـد قرارهـما بالانتقـال مـن حيـاة المدينـة إلى سِـحْر الرّيـف وهـدوء نَسَـماته المُتَعطِّـرة بياسـمين الحقـول. لكـن هـذه الغابـة، قـد خَلَـت مِنهـا الياسـمين، والنَّفحـات النّديـة، واسـتعاضَت بريـح هوجـاء تُرْعِـش الطّفلـة وتُـبرِّد وجههـا الغـير متضحـة معالمـه.

آنَسَـها صـوت جنـادِب الليـل، ولهـو الرّيـاح مـع أغصـان الأشـجار بقـوَّة، لكنَّهـا لم تشـعر بالأمـان ولا الاطمئنـان في هـذا المـكان المُربَـدّ بالعَتمـة عنـد مسـتوى سـيقان الأشـجار. رغـم ارتفـاع القمـر واكتمالـه في سـماءٍ شـاحبة، إلَّا أنَّـه لم يفلـح في الإسـباغ عـلى الغابـة سـوى المزيـد مـن الغمـوض والرّيبـة فيـما تُخبّئـه بجعبتهـا.

مـرَّت بجانـب شـجرة باسـقة شـاهقة الارتفـاع. تطلَّـب الأمـر جُهـدًا بذلتـه لتتمكَّـن مـن رؤيـة وميضيْن لامعيْن يتسـلَّقا الشَّـجرة ببـطء كئود،

غـير مُفْصحـيْن عـن منبعيْهـما. ثبتـت في مكانهـا، تراقـب بعينـيْن يذْويهـما الفضـول الوميضـيْن وهُـما لا يـزالا يتسـلَّقان لأعـلى، حتَّـى بلغـا إحـدى الفـروع، وتوقَّفـا بغتـة.

تسـلَّل لمسـامعها صـوتٌ أشـبه بالنَّخـير، زَوْمًـا يُتاخـم حشْرَجـة غريـق يلْفُـظ أنْفاسـه الأخـيرة يائِسًـا، ذلـك حينـما حدَّقـا فيهـا الوميضـيْن، فـزادَ بريـق لمْعتهـما في قلـب العَتمـة المخيفـة. خامرتهـا خيـوط الخـوف، شرعـت تتغـزَّل بتـأنٍّ بداخلهـا، رويـدًا.. رويـدًا، والصّـوت مـا يـزال يتنامـى في عقلهـا، يُشْـعِرها أنَّهـا مُحاطَـة ولا يسـعها الهـرب.. الهـرب مـن مـاذا؟

مـا كادَت أن تسْـحب الفتـاة شـهْقتها، حتَّـى انتفـض قلبهـا هلعًـا في مكانـه، لمَّـا انتصـب الـشَّيء أمامهـا -الـذي اتضـح أنَّـه «شيء»- بوضعيـة الهجـوم، وقفـز في لمـح البـصر صارخًـا جازِعًـا مُطْبِـقٌ عـلى وجههـا بكيانـه كلّـه، مُفْقدهـا القـدرة عـلى الرُّؤيـة.. لا شيء سـوى السَّـواد، ملمـس خشـن لفـروة تُحكِـم الاطبـاق عـلى أنْفهـا وفمهـا لمنعهـا مـن التَّنفُّـس، صرخاتـه المفزعـة المَهيبـة لا تتناسَـب تمامًـا مـع حجمـه الصغـير، مُختلـطٌ بصرخاتهـا الطُّفوليـة وبصـوت الريـاح والجنـادِب وتلاطُـم أغصـان الأشـجار اهتـزازًا لـتردُّدات الصّرخـات، تحـاول أن تزيحه مـن عـلى وجههـا لكنَّـه كان ثقيـلًا جـدًّا وأقـوى مِنْهـا بمراحِـل فَلَكيـة لا تحلـم أن تبلـغ أيًّـا مِنهـا، غائصًـا فيهـا آبيًـا الانـصراف.. يجـب أن يحتفـظ بذكـرى مِنهـا في حـال انصرافـه.. ربمـا كرتـا عينيْهـا مثـلًا؟!!!

تهـاوَت حصونهـا دفعـةً واحـدة وانحنـت عـلى ركبتيْها خائـرة القوى، دموعهـا تتدفَّـق بغـزارة فادحـة مـن مآقيهـا لكنَّهـا تصطـدم بسـدّ هـذا الفراء الخشـن الخافِـس لعينيْها، الباتِر لجدائلها بمخالبـه الحادَّة كالنّصل.

لكـن فجـأة، ولحسـن حظّهـا، أنَّ صوتًـا قـد جـاء مـن الأمـام مُناديًـا بصيغـة آمِـرة: «ليـما! تعـالَ حـالًا!».

والغريـب أنَّ الـ «ليـما» انصـاع فـورًا لصاحبـة الصـوت، أرخـى عضلاتـه التـي كانـت نافِـرة إلى أقـصى حـد، نَعَّـم براثنـه، هـدأ صراخـه الأكْهَـب، وهبـط مـن وجـه الطفلـة متدحرجًـا بسرعـة إلى حيـث وقفت صاحبـة الصّـوت. لم يكـن الـشَّيء سـوى قطـة سـوداء شرسـة تنـثر بـين فكّيْهـا زبـدًا لزجًـا، تتفـرَّس في الطفلـة بقـدحٍ وغـلٍّ كأنَّهـا حاقِـدة عليهـا، تمـوء بصـوت أجـش، لا يُلائـم قِطـة بـأي حـال مـن الأحـوال!

اسـتعادَت الطفلـة بصرهـا مـن جديـد، بعـد سلسـلة طويلـة بائسـة مـن النَّهْنهـة والبـكاء لإعـادة التَّـوازن لجسـدها مـرَّة أخـرى. وقفـت عـلى قدميْهـا المرتعشـتيْن مفزوعـةً، فـرأت المـرأة تقـف أمامهـا مُنتصبـة بقـوامٍ ممشـوق يسترسـل عليـه خصـلات شـعرها حمـراء داكنـة مموَّجـة، بيضـاء البـشرة كالمَرْمَـر، ذات عينـان واسـعتان وأنـف مُدبَّـب وشـفتيْن مَرْسـومتيْن بدقَّـة كورقتـي شـجر، انفرجـت عـن سـؤالٍ حمـل في قُشـوره الـبراءة:

- «هل أنتِ تائهة يا عزيزتي؟».

استجمعت قِواها، وردَّت بتشنُّجٍ:

- «كلَّا. كنت فقط أتجوَّل في الغابة».

- «وهل يُعْقَل التَّجول في غابةٍ كهذه، ليلًا؟».

رمقـت الطفلـة فِـراء القطـة الأسْـوَد بتوجّـسٍ، بعدمـا تيقَّنـت مـن أنَّهـا بالفعـل قطّـة، قالـت:

- «لا أؤمنُ بالأساطير».

كشفت المرأة عن ابتسامة وهي تقول واثقة:

- «بلى تؤمنين.. كمَا أرى الفزع في عينيكِ!».

برَّرت بسذاجة: «إنَّها فقط القطة التي..».

- «أين تسكنين؟».

ابتلعت ريقها: «على بُعد فرسخٍ من الغابة.. على ضِفاف البحر».

رفعت المرأة حاجبًا وقالت: «أجل، أرى ذلك. أنتُم المُستَجدُّون».

أومأت الطفلة، فأستطردت:

- «حسنٌ. إذن ينبغي أن أُرَحِّب بكِ. ما رأيكِ في بعض الحلوى؟».

تحمَّست الطفلة كثيرًا لهذا العرض المُغري بالنسبة لهَا، فهزَّت رأسها بالموافقة. فأردفت المرأة شرطًا لازمًا لكي تُعطيها الحلوى: «ولكن، سيتحتَّم عليكِ أكْلها قبل عودتكِ للبيت.. ويُسْتَحْسَن أن يبقى الأمر سِرًّا بيننا، عاهديني بذلك».

هزَّت الطفلة رأسها في براءة، وتلفَّظت شفتيْها الصَّغيرتيْن بـ «حسنًا، أعدكِ». وقامت برسم علامة إكس (X) على قلبها.

مَسحت المرأة على فِراء القطة، التي ابتسمت مع ابتسامتها، ومن ثَمَّ أشارَت بيدها للطفلة وهي تُدْبِر وتتقدَّم للأمام:

- «اتبعيني».

* * *

رؤيـة جديـدة.. لم تنشـأ بسـبب حُلـمًا مـا عابـر كحـال بقيـة أحلامهـا الغـير مفْهومة.

في أحـد ليـالي الشّـتاء قارصـة الـبرودة، وفيـما كانـت العائلـة كلّهـا مُتَمركـزةً أمـام التلفزيـون يشـاهدون مُسَلْسَـل السَّـاعة التَّاسـعة عـلى القنـاة الأولى الفضائيـة، إذ جـاء طـرقٌ خَفيـفٌ عـلى بـاب المنـزل لم يُنْصِت لـه أحـد في بـادئ الأمـر لضعفـه، لكـن حينـما تحـوَّل فجـأة إلى طـرقٌ عنيـف هَلَـع لـه قلـب الأم، وانتفضـت لـه أسْرَار -ذات الثالثـة والعـشرون عامًـا- وتوجَّـس لـه هيثـم، نهـض عـم سَـعد مـن مِقعـده الأثـير وتوجَّـه ناحيـة البـاب، الـذي كان لا يـزال يُطْـرَق بنفـس ذات العُنـف.

- «مـا برَّاحـة يـا الـلي بتخبـط مـش عايشـين ورا البـاب إحنـا.. اللـه فيييـه إيييييـه!!».

قـرَّر عـم سَـعد أنَّ الطَّـارق لا يمكـن ألَّا يكـون سـوى حَسـن، عـلى سـبيل المثـال، أتاهـم بنبـأٍ كئيـب كعادتـه. أو ربمـا أحـد سُـكَّان العـمارة جـاء مخْمـورًا مـن سَـهرةٍ خليعـة في الكباريـه ولم يجـد أنْسَـب مـن منـزل عَـم سَـعد ليلْفَـظ فيـه كل مـا تجرَّعـه مـن خمـرٍ رديءٍ كريـهٍ.

لكـن الطَّـارق -المسـتفز في واقـع الأمـر- لم يكـن كـمَا توقَّـع أبـدًا. فقـد حـضَّر عـم سَـعد حنجرتـه لزجـر ذلـك السَّـخيف الوقـح، وكادَ كفّه القـوي أن يهـوى عـلى وجهـه، لـولا أنَّـه لم يكـن ليتحمَّـل الضَّربـة، ولا الصيـاح..

لقد كانت، فقط، إمرأة عجوز، هَزيلة للغاية كورقة شجرة!

لوهلـة، أحـسَّ عم سَـعد بالغرابـة والتَّوجُّس، فهـو لم يَرَهـا في الفِرياني مـن قبـل، وعـادةً لا يزورهـم أحـد مـن خـارج الحـارة إلَّا بميعادٍ مُسْـبَق.

ونـادرًا مـا يحـدث شيءٌ كهـذا، أصـلًا. ولكـن ليـس لهـذا السَّـبب أحـسَّ بالغرابـة، وربمـا الخـوف. لقـد كان مظهرهـا يوحـي بأنَّهـا قـد خرجـت لتوّهـا مـن مقـبرة، بعـد إفزاعهـا لعشـيرة جـن كاملـة!

تروي المرأة هذا المشهد سارِدة:

لا أستطيع أن أمحو هيئتها من لوحة خيالي، أبدًا.. أبدًا.

هـي قصـيرة جـدًّا، نحيلـة جـدًّا، في نحـو التّسـعين مـن العُمْـر، لهَـا وجـه صغـير ذو بـشرة مِثـل عجينـة اختمـرَت طويـلًا ونُحِتَـت بهـا تجاعيـد وتمعُّجـات كأنفـاق وشُـقُوق، وعينـان حادَّتـان صارمتـان، ولكـن في ذات الوقـت حنونتـان، وأنـف صغـير مُدَبَّـب كشـجرة مخروطيـة مَسْـنونة، وثُغـر يشـكّ المـرء في وجـوده أصـلًا مـن فـرط التَّجاعيـد حوله، وعُنـق نحيـل للغايـة يشـبه سـاق دجاجـة خاليـة مـن الـروح، وكانـت مُتَّشـحة بشـالٍ أسْـوَد كبـير مـن الدّمقـس[1] يُلفِّـع جسـدها بأكملـه، عـدا رأسـها. فقـد كانـت حاسـكة الـرَّأس، شـعرها أسـوَد مُبَعْثَـر بشـكل فوضـوي قليـل الشّـيب يلتمـع كأنَّـه ضُمِّـخَ لتـوّه بالزيـت. لم أعبـأ كثيـرًا بالنَّظَـر لقدميْهـا، لأنَّـه خُيِّـل حينهـا أنَّهـا تقـف بـلا قدميْن.

كانـت تسـعل وتُصـدر صوتًـا خفيفًـا جـدًّا يـكاد لا يكـون ملحوظًـا، أشـبه بترنيمـة أو إنشـاد لـشيء مـا مُبْهَـم. وأغلـب ظنّـي أنَّ أبي قـد ريـعَ مـن منظرهـا هـذا، وألقـى عليهـا نظـرةً خاصَّـة حـذرة، لأنَّنـي حـين أشـحتُ وجههـي إليـه ريثـما كان يقـف عـلى عتبـة المنـزل، بـدت ملامحـه مُتوتِّـرة للغايـة.. وهـذا قلَّـما مـا يحـدث لـه!

(١) نسيج غنيّ بالزّخارف من القطن أو الحرير أو الكتّان أو الصوف.

وقفـت العجـوز قبالتـه صامتـةً، تُسْـعِل، تحدجـه بنظـرةٍ سـائلة.. سـائلة عَنّـي!

- «بعد إذن حضرتك، يا أفندم.. ممكن أقابِل أسْرَار؟».

للمـرَّة الأولى، أرى أبي يتخشَّـب في مكانـه عاجـزًا عـن الـرَّد. فـلأيّ غـرضٍ تُريـدني إمـرأة مِثْلهـا؟ وأنَّى لهَـا معرفتـي أصـلًا! فلـم أُقابِلهـا في حيـاتي قـط، ولم أرَ مثيـل لهَـا في وجههـا المُتَعـرِّق بغـزارة بالغـة المـدى، كأنَّ الشَّـمس قـد صبَّـت عليـه مـن جـام حرارتهـا. تسـائل أبي مُتَعجِّبًـا:

- «حضرِتك مين الأول؟».

لم تعره المرأة أدنى اهتمام بسؤاله الشَّرعي، وأَصَرَّت بفظاظة:

- «عاوزة أسْرَار».

صوتهـا يرتعـش إذ تتحـرَّك أحبالهـا الصوتيـة، مَهيبًـا يشْرئـب لـه ألـف حِسـاب. بَـدَت واضحـة وواثقـة في وقْفتهـا المترسّـخة، وعيناهـا الثَّابتتـان نحـو أبي، وإلحاحهـا لرؤيتـي مَهْـما تكلَّـف الأمـر.

- «قوليلي مين حضرِتك الأول وعاوزاها في إيه!».

لكنَّها أصرَّت في عِناد:

- «لازم أشوفها حالًا!».

خَطـوتُ إلى البـاب بحـذر بجـوار هيثـم لأراها تقـف متغضّنـة الوجه تصيـح في وجـه أبي بـضراوة ريثـما كان يحـاول اسـتجلاء أي معلومـة عـن ماهيَّتهـا ومـن أيـن أتـت ولمـاذا تريـدني بهـذا الإصرار والإلْحَـاح؟! ولكـن حـين لمحتنـي بطـرف عينهـا، تدفَّـق الـدّم في عروقهـا بغتـة، وثَـارت، وظلَّـت تـصرخ بفجاجـة بصوتهـا العـالي المزعـج:

- «لازم أدخول لأسْرَار حاااالًا!!!!».

بينما عاندها أبي برأس متصلّد:

- «مش هتدخلي بقولك إلَّا لما أعرف إنتِ مين يا سِت إنتِ!».

وحدث ما لم أتوقَّعه أبدًا..

ثارَت إلى أقصى حد، وماجَت وصالَت على أبي تتشابَك معه بذراعيْها الهزيليْن، في عزيمةٍ حديدية لم أرها في إمرأة في مثل سِنّها من قبل. دَفَعَتْ أبي بقوَّة ضارية، فصدَّها بنصف قوَّته لألَّا يُصيبها بسوء، يستسمحها للرحيل لكنَّها أبت وأصرَّت على الدّخول. حاول أبي ردعها لكنَّه فشل خائبًا. كانت أسرع وأقوى مِمَّا توقَّعنا جميعًا، حتَّى أنَّ هيثم لم يقوى على زجرها. ففي كل مرَّة كان يشتبك معها تصفعه بقوَّة وتنفذ من بين ساقيْه كقطَّة وتُسدّد لكمةً مبرحةً في ظهره، فيعوي مُتألِّمًا، كأنَّها متفنّنة في الفنون القتالية إلى حد الاحتراف. صرخت أمي، واندفعت نحوها بثقلها تمنعها من الوصول لي، لكنَّها فشلت هي الأخرى في دَحْرها، فصرخة المرأة كانت مرعبة لدرجة أنَّني رأيتُ شعيرات رأس أمّي تنْتصب وتشيب من فرط الفزع! وهذا ما دفعني للفرار إلى غرفتي وإغلاق الباب بسرعة.

ارتعشت ساقيَّ من الهلع، أسمعُ تداخُل صيحات الجميع بالخارج، واشتباكاتهم مع المرأة القويَّة ذو الإرادة الجامحة. لا أدري كيف لم يُفكِّر أحدهم أنَّ الأمر يفوق مستوى المنطق والعقل، فهي، بكل تأكيد، لم تنحدر من صُلْب آدم، عليه السَّلام، فهيئتها وطريقتها المهارية في القِتال وإصرارها ونبرة صوتها لم توحِ أبدًا بأنَّها طبيعية. أوصدتُ

بــابي بالمفتــاح، جيــدًا، واختبــأتُ أسْــفَل السّريــر كــمَا كنــت أفعــل في صِبــاي -الفــترة البريئــة مــن حيــاتي- عندمــا كنــت ألهــو مــع أختــي، أمــاني. ارتجفــت، وانتابتنــي غُصَّــة ألجمــت حلقــي وأشْــعَلت صــدري. مــا الــذي يحــدث!!

وقــع طرقاتهــا المفزعــة عــلى البــاب خلــع قلبــي مــن موضعــه، ولســوء حَظّــي أنَّنــي لم يكــن لــديَّ مُغيــثٌ أســتنجد بــه، ولا آيــة واحــدة ولا دُعــاء واحــد أُردِّده.. جرحــتُ أحبــالي الصــوتي بصرختــي المُقْذعــة:

- «امشي من هِنااااااااااااااااااااااااا!!!!!».

صاحَت أماني، وسمعتها ترْدعها بقولها، بسذاجة:

- «لو ما مشيتيش من هِنا حاااالًا أنا هطلب البوليس!!!!».

لكنَّنــي لم أتلــقَّ أي رد مــن المــرأة عــلى شــقيقتي. فقــط طرقــاتٌ وطرقــاتٌ عــلى بــاب غرفتــي. كل طرقــة تــرجُّ قلبــي، فيؤلمنــي بــضراوة، فأبــكي جازعــةً عاجــزةً عــن صنــع شيء لعائلتــي التــي لا أعــرف مــا حــدث لهَــا بالخــارج!

وعلى حين غرَّةٍ.. سكن كل شيء.

غرقــت عينــاي في ظُلمــةٍ حالكــةٍ، يحملنــي شــخص مــا أعرفــه حــقَّ المعرفــة، ويــزجّ بي في عُنــف بداخــل الصَّنــدوق الخشــبي ويحبســني بداخلــه. هلعــتُ، وظللــت أصفــع الخشــب المَسْــنون بالمســامير بيــديَّ بقــوةّ وبــلا إرادة، كانــت غريــزة الفِــرار هــي مــا تدفعنــي لذلــك، غــير آبهــة بــألم راحتــيَّ والدّمــاء المنبجســة منهــما إثــر المســامير المســننة.

لكــن فجــأة، تناهى لعقــلي صوت المرأة العجــوز وهي تُبَسْــمِل، انتزع

صوتهـا طبلتـي أذني انتزاعًـا، فتألَّـم رأسي كأنَّ حجـرًا اصطفـك بـه هاويًـا. شرعـت المـرأة بقـراءة سـورة الفاتحـة، ثـم انتقلـت لأوّل خمـس آيـات مـن سـورة البقـرة: ﴿الم {١/٢} ذَلِـكَ الْكِتَـابُ لاَ رَيْـبَ فِيـهِ هُـدًى لِّلْمُتَّقِـينَ {٢/٢} الَّذِيـنَ يُؤْمِنُـونَ بِالْغَيْـبِ وَيُقِيمُـونَ الصَّـلاةَ وَمِـمَّا رَزَقْنَاهُـمْ يُنفِقُـونَ {٣/٢} والَّذِيـنَ يُؤْمِنُـونَ بِمَـا أُنـزِلَ إِلَيْـكَ وَمَـا أُنـزِلَ مِـن قَبْلِـكَ وَبِالآخِـرَةِ هُـمْ يُوقِنُـونَ {٤/٢} أُوْلَئِـكَ عَـلَى هُـدًى مِّـن رَّبِّهِـمْ وَأُوْلَئِـكَ هُـمُ الْمُفْلِحُـونَ {٥/٢}﴾. وحينـما بـدأ صوتهـا يعلـو ويزهـو بالآفـاق، ويـتردَّد صـداه مَهيبًـا مُفْزِعًـا لـكل شَرٍّ، بآيـة الكُـرسي، تشوَّشـت رؤيـاي، وشـيئًا فشـيئًا أُوبْـتُ إلى الواقـع، فرأيتنـي مُلقـاة عـلى حِجرهـا، ورأسي بـين كفّهـا الـذي صـار ثَخينًـا وحاويًـا كوعـاء لفـروة شـعري كلّـه، ومـا تـزال تُـردّد بضـع آيـات مُعيَّنـة مـن القـرآن، ثـم ردَّدت: «يـا خَفـيّ الألطـاف نجّهـا كـمَا تشـاء مِـمَّا تخـاف.. وهِـب لهَـا طـوق النَّجـاة».. مـرارًا مـرارًا مـرارًا!

ارتجفَ جسدي دونما إرادة.

كان جليًّـا لعائلتـي أنَّ المـرأة لم تـأتِ هُنـا مـن أجـل ضرر أو مَثْلَبة، بل لقـراءة رُقيـة دينيَّـة لغـرضٍ مـا، لم أسـتطع فهمهـا أنـذاك. ولمَّـا أفرغـت مِـن تِلاواتهـا للنصـوص القرآنيـة بقـراءات معينـة تُخالِـف المُسـتقر في أذْهاننـا، همسـت لي، أخـيرًا، بـشيء مـا مبهـم في أذني لم أسـتوعبه، بلغـةٍ مـا غريبـة ربمـا كانـت غـير بشريـة عـلى الإطـلاق، وانصرفـت في هـدوء وأغلفـت البـاب وراءهـا.. كأنَّ شـيئًا لم يكـن. وكالعـادة، وفي هـذا التوقيـت تحديـدًا، تجمهَـر سُـكَّان العـمارة لمَّـا سـمعوا أصـوات الصَّرخـات.. الآن!

لم تظهـر المـرأة العجـوز مـرَّة أخـرى، ومُطْلَقًـا لم يرهـا أحـد، سـواء في الحـارة أو خارجهـا، تلاشَـت إلى العَـدم فعليًّـا. وحتَّـى عندمـا كان أبي

يحـاول شرح مـا حـدث تفصيـلًا لأهـل الحـارة، ورغـم تيقُّظهـم وصَحْوتهـم للدَّاخـل والخـارج، كانـوا يسـتغربون ويتعجَّبـون للغايـة، لا سـيَّما عنـد تلفّظـه بـ «المـرأة العجـوز».. ويقولـون مُجمعـين، بـأنَّ بـاب العـمارة ظـلَّ مُغْلَقًـا طـوال هـذه الفـترة، وأحـدًا لم يُبْـصِر أي عجـوز في الفِريـاني.. أبـدًا!

حَسَـن، هـو الوحيـد الـذي صدَّقنـا، وآمَـن بـكل مـا حـدث كأنَّـه عـاشَ تفاصيلـه بنفسـه، ووقـف إلى جـواري حتَّـى شـفيت مـن صدمتـي. فقـد رقـدتُ في سريـري أسـبوعًا كامـلًا غـير مسـتوعبة كل مـا حـدث، وأعتـصر عقـلي اعتصـارًا لأعـرف مَـن تكـون هـذه المـرأة ومـن أيـن ولِـمَ أتـت ولمـاذا رَقَتنـي وبمـاذا همسـت في أذني؟! خصوصًـا أنَّنـي حـين عُـدت إلى الواقـع عـلى تلاوتهـا، لم تكـن يـداي داميتـان! مـا الـذي فعلتـه بي بحـق الجحيـم!

لم أجـد الإجابـة في صـورة «إجابـة قوليـة»، أو مَعْرفـة حِسّـية، لكنَّـي وجدتهـا في هيئـة مادّيـة بَحْتـة.. خمَّنـت أنَّهـا هـي الإجابـة المُنـاط بلوغهـا. فمنـذ أن انصرفـت هـذه المـرأة الغريبـة، وأنـا أرى الكـوخ الخشـبي البسـيط المسـتقر عـلى ضِفـاف البحـر المتوسـط وعـلى بُعـد فرسـخٍ مـن الغابـة، وأسـتبصر طفلـةً ألْفَـت إمـرأة جميلـة ذات شـعر أحمـر في سُرَاهـا أثنـاء تجوّلهـا في الغابـة ليـلًا، ومـن ثَـمَّ تصطحبهـا إلى كـوخ كبـير مـن الطَّمـي، وتُغْلِـق البـاب المصنـوع مـن البـوص، قبـل أن تَلْتَفـت بوجههـا يُمنـةً ويسـارًا في ريبـةٍ وتوتُّـرٍ لألَّا يراهـا أحـد!

أيضًـا تنامـى -مؤخَّـرًا- الصـوت الهامِـس لي في رأسي كُلَّـما رأيـت ذلـك الرّجـل بشـع المنظـر الحامِل للسـاطور. حين يحبسـني في ذلـك الصندوق بـلا سـبب واضـح، يهمـس لي الصـوت ويحـاول تحريـر روحـي، ويُخـبرني

دائمًا بأنَّ الذي يُسيطر عليَّ لا سُلْطان له على روحي، وإنَّما هو يتعمَّد التَّلاعُب بعقلي وإيهامي بأنِّي مُقيَّدة، في حين أنَّ جسدي لا يزال مُتَمدّدًا في الفراش.. فالمعركة ليست مادّية، بل معنوية بَحْتة وينبغي عليَّ -أو علينا- الانتصار فيها.

لم أعرف حينها منبع هذا الصوت، لكنَّني لاحقًا عرفته جيدًا.. عرفته حقَّ المعرفة!

* * *

بَقي حدث وفاة الشّيخ ناصِر الكَرْبِلائي علكة يلوكها أهل حارة الفِرياني فَرْدًا فَرْدًا، خلال أوقات عملهم وزياراتهم العائلية لبعضهم البعض، وتستذكرها الجارات على عتبات منازلهن ويتشدّقْنها أمام القريب والغريب طوال الوقت. ما قيل في الصُّحف، أنَّ الشّيخ قد مات جرَّاء أزمة قلبية مُباغِتة، عندما لم يستطع تقديم المساعدة للفتاة التي كانت قيد يديْه، بينما رواية المرأة الغجرية، كانت خِلافًا لما تناقلته الصحف كُليًّا. لكن على أي حال، لم يكن هُناك ما تستطيع عائلة أسْرَار تقديمه للشيخ ناصر، فلم يستطع أحد أن يصل لأي فرد من عائلته، حتَّى شكَّ البعض أنَّه يملك عائلة أصلًا. بينما ظلَّت أسْرَار طريحة الفِراش، عليلة الجسد، تنْتابها الرُّؤى الغريبة والكوابيس البشعة، تصرخ بإناء الليل والنَّهار كقطَّة مُزْعِجة لا ينقطع مواءها عن مناور العمارات، تسير أثناء نومها وتُفْزع شقيقتها وهي تضحك مغمضة العينيْن في حلكة الظَّلام، وتُشير بسبَّابتها نحو شيء ما يقف وراءها.. فلمَّا تلتفت أماني، رويدًا رويدًا، شيئًا فشيئًا، ببطء وهلعٍ، تنقضُّ أسْرَار على رقبتها وتحاول التهامها كوجبةٍ دسمة!

في إحـدى الليـالي الكابوسـيَّة، سـمع عـم سَـعْد أزيـز البـاب وهـو يُفْتَـح. نهـض مـن فراشـه وقطـع مسـافة الطُّرقـة نحـو البـاب ليعـرف مَـن هـذا المُتَسـلِّل. مَشَّـط بعينيْـه النَّاعسـتيْن السّـلم كلـه، لكنَّـه لم يجد أحـد، لا صاعِـد ولا نـازل. أغلـق البـاب بهـدوء. ربمـا كان يتخيَّـل؟ فهـذا المنـزل قـد صـار مرعـى للظواهـر الخارقـة للطبيعـة بـكل وقاحـة!

وقبـل أن يعـود إلى غرفتـه لاسـتئناف نومـه، ألقـى نظـرةً سريعـة عـلى غرفـة أسْرَار، فلـم يجدهـا. بَسْـمل جهـرًا، أشـعل إضـاءة الغرفـة كلّهـا، ردَّد لسـانه اسـمها وهـو يُنقّـب عنهـا في كل مـكان وموضـع كـمَا المُنَقِّـب عـن حجـرٍ كريـم في كهـف صغـير، أيـن ذهبـت هـذه الفتـاة؟ تصاعَـدت أنفاسـه مـع ازديـات ضربـات قلبـه خوفًـا وقلقًـا. جـالَ البيـت كلّـه، وأيْقَـظ الجميـع بفـزع، لكنّهـم لم يسـتطيعوا العثـور عليهـا في المنـزل أبـدًا. خطـر لـه أنَّهـا هـي التـي خرجـت مـن البيـت، رغـم أنَّـه لم يرَهـا ولم يسـمع وقـع خطواتهـا وهـي تنـزل!

هبـط الـدّرج وثبًـا، لاهثًـا عـلى ابنتـه، لا يُريـد لفكـرة أنَّهـا قـد أصابهـا مكروهًـا في هـذا الجنـح الصَّامـت مـن الليـل أن تجتاحـه، أبقـى توجُّسـاته بعيـدة، حتَّـى خـرج مـن بـاب العـمارة. وفـور خروجـه، أبصرهـا كـمَا لم يبصرهـا مـن قبـل!

وجدهـا مُمَـدَّدة عـلى الأرض، أمـام الخرابـة، ينتفـض جسـدها فَرَقًـا بطريقـة مُبالغـة، عينيْهـا واسـعتان أكـثر مـن الـدَّارِج ومفتوحتـان عـلى آخرهـما، وقـد اسـتحال بؤبـؤ العـين إلى خـطّ رفيـع كأعـين الزَّواحـف، وتبعـثر احمـرارًا متوهّجًـا بدلًا مـن البياض، فبـدت العينـيْن كحفرتيْن من الجحيـم، يخـرج مـن فمهـا رغـوةً غزيـرةً كزبـد الأمـواج ممتزجةً بسـيل

الدّمـاء، وتصـدر صوتـًا أشـبه بفحيـح أفْعـى تلفـظ أنفاسـها الأخـيرة.. حههحههحححححححههحححححححححححـح .

كانـت مُتدثّـرة في ثوبهـا التَّقليـدي المنـزلي، لكـنّ بُقعًـا مـن الدمـاء قـد تناثَـر بأنسجة الثـوب في أكثر مـن موضـع: عنـد الكمّـين والجانبـيْن والفَـرْج، كأنَّهـا تعـرَّض لاغتصـابٍ عنيـف و....

هي بالفعل تعرَّضت لاغتصاب عنيف!

صرخ عـم سَـعْد بأعـلى صوتـه، فتجمَّـع أهـل الحـارة حولهـما وحاولـوا مسـاعدته في حملهـا. ومـن أعـلى، شـقَّ عويـل السّـت رضـوى، وصيـاح أمـاني سـماء الفِريـاني الشَّـاحبة، فأضفيـا للمشـهد المزيـد مـن الهلـع والحـزن والأسى! لم يُصـدِّق عـم سَـعد مـا يحـدث، ابنتـه غارقـة في دماءهـا عنـد مَصـب فرْجهـا بكـثرة، المغتصـب لم يتهـاون معهـا أبـدًا!

وعندمـا صعـد بهـا إلى فراشـها، سـمح للسـت رضـوى بفصحهـا بنفسـها.. فوجـدت مـا خـشيَ منـه بالفعـل: غشـاء البـكارة ممحـوًّا، دِمـاء تسـيل، مِهْبـل ٌينبـض مـن شـدَّة الألم، وجـرحٌ طـولي غائـر بمنطقـة الفخذيـن، تتَّخـذ شـكل المخالِـب، غائصـة في اللّحـم مُفْسِـدة للدمـاء!

أسرع بهـا أبوهـا إلى الطبيـب في نفس ذات الليلة. كانـت أسْرَار فاقدة للوعـي، كُليًّـا، ولم تكـن تـدري أيـن هـي تحديـدًا، ومَـا هـذه الوجـوه الصَّغـيرة المبهمـة المتراصَّـة بجـوار بعضهـا البعـض المُحدّقة بها في شـفقةٍ يُـرْثى لهَـا، تحـسُّ بملمـس في يدهـا، ثَمَّـة شيءٌ مـا قابضٌ براحتـه على يدها اليُمنـى، لكنَّها لم تسـتطع مَعْرفة ماهيَّته. شـعرت كأنَّهـا تهوى في الفضاء، وسـط بعْـثَرَة النّجـوم البيضـاء كحبَّـات الأرز البعيـدة، وبين كواكـب رأتَ أقوامًـا مجهولـين الملامـح يحْيَـون فيهـا، وبـين ثَنَايا ضيـاءٍ يُحيـط بظُلُمات

الفضاء ويشعّ بنوره الأرجاء. كانت الوجوه لا تزال تُحدّق فيها، بترقُّبٍ وتمعُّن، والملمس النَّاعم كالمخمّل على يدها له مذاق خاص، أشعرها بالآمان، وأخرجها من بوتقة الألم والحيرة والرَّبكة للحظاتٍ لم تطُل، مع الأسف. فإذ فجأةً، عادَت إلى واقعها المُزري. فوجدت نفسها مُمَدَّدة على سرير في مستشفى، وحولها عائلتها وبعض من أهل الفِرياني مَن تطوَّع لنقلها إلى المستشفى عبر سيَّارته الخردة، يحملقون في وجهها بحزنٍ واستياء شديديْن.

قالت: «أنا فين؟ و.. إنتوا بتبصّولي كده ليه؟».

لم تستطع الأم تمالُك نَفْسها. انهارَت وبَكت بُكاءً بالغ الأسى!

أرخت أسْرَار سدولها، ونامَت بعمق، غير مكترثة بما حدث لهَا.. لقد اعتادَت على ذلك.

علمت لاحقًا، أنَّها قد تعرَّضت لاغتصابٍ مدوّي، أدَّى إلى التهاب مِهبلي عنيف أفقدها القدرة على الإنجاب، للأبد، نتيجة للجروح الفاتِكة التي أحدثها المُغتَصِب، كما لو كان قضيبه آلة حادَّة كالمِبْضَع!

وقُيِّدَت القضية ضد مجهول..

* * *

١٠

الخميس، مايو.

طَلَبٌ.. وضرائبٌ!

جلست أسْرَار على «طَبْلية» العشاء الدَّائرية مع عائلتها. وقد وضعت عليها صحني الفول والبطاطس المقلية في زيتٍ استنزفته السّت رضوى استنزافًا ورغيف عيش لكل فَرْد من الأسرة. كانت جائعة للغاية، تشعر أنَّ معدتها خالية تمامًا من ذَرَّة فُتات، أو قَطْرة ماء. لذا، فقد اسْتَرْعى انتباه أماني نَهَم وجشع شقيقتها في تناولها وابتلاعها للطعام مثل غول يفترس فتاة وجدها في الحقول دفعةً واحدةً، وشُرْبها الكثير من المياه أكثر من المُعَدَّل الطّبيعي المتعارَف عليه في البيت، حتَّى أنَّ الزّجاجات قد فرغت بأكملها. وحين طلبت أسْرَار المزيد من الطّعام والشَّراب.. هتفت أماني في وجهها ضاحكة:

- «ما تيجي تاكليني أحسن!».

برَّرت أسْرَار موقفها المُشين جدًّا بالنسبة لعائلة تبرَّمت كثيرًا حين عرفت أنَّ علبة الفول قد صارت بثلاثة جنيهات فقط، وقرص الطعمية بنصف جنيه كامل!

- «حاسَّة إنّي ماكلتش من السَّنة اللي فاتت! مش عارفة مالي بجد..».

ضحك هيثم وقالَ ساخرًا:

- «هُـمَّ البنـات في السّـن ده بيبقـوا كـده.. بيبقـوا حَلاليـف مفاجيـع!».

لخَّصَـت أسْرَار ردّهـا كلّـه في نظـرةٍ مُزْدَريـةٍ باهتـة، نهضـت مـن الطبليـة ومـا تـزال تشـعُر بالجـوع المفـرط، جـدًّا، وأغْلَقَـت عـلى نَفْسـها بـاب غرفتهـا كالعـادة.

مَعدتهـا لا تـزال تؤلمهـا، جوعًـا، ورأسـها يطـنُّ بصـداعٍ مَريـر يدفـع للغثيـان، والمَـرّئ مُلَبَّـد بسـحابةٍ سـخيفة مـن حموضـة لا تعـرف مَصْدَرهـا، تُصْلي حلْقهـا نـارًا مُتَّقـدةً تندفـع بغـزارة بمنطقـة البلعـوم. للمـرَّة الأولى تشـعر أنَّهـا كتنّـين غاضـب، وقـد أوشـكت النـيران عـلى الخـروج مـن بـين فَكّيْـه، وعـلاوة عـلى ذلـك أيضًـا، تجـد صعوبـة في التَّنفُّـس، فـلا هـواء في الغرفـة.. فقـط لا شيء!

لم تعْبَـأ كثـيرًا.. فهـذه الليلـة كانـت تُمثّـل لهَـا عيـدًا مدويًـا كل أسـبوع..

إنَّه ميعاد مَعْشوقها أحمد يونس على الرَّاديو!

سـمعَت عنـه للمـرَّة الأولى مـن صديقـة لهَـا بالمدرسـة، أخبرتهـا أنّـه يحـكي بأسـلوبٍ سَـلِس ومُبْتَكَـر، قصّـة رعـب، سـواء مـن تأليفـه أو مـن تأليـف أحـد المسـتمعين، كل أسـبوع، في تمـام الثَّانيـة بعـد منتصـف الليـل. ومُنـذ هـذه اللَّحظـة وهـي تواظب على سـماعه ولم تفـوِّت حلقة واحـدة مِنـه مَهْـمَا كان الثَّمـن. لا سـيَّما أنَّه أعلـن بكل صراحـة، أنَّ قصَّة اليـوم سـتكون نسـبةً كبـيرةً منهـا مُسـتوحاة من أحـداث حقيقيـة، وهذا مـا دفعهـا لعـدم الاكـتراث لأي شيء أخـر يُعكّـر صفـو مزاجهـا، مُنْصاعـةً تمامًـا للطقـوس التـي وضعهـا كـشروط للاسـتمتاع بتفاصيـل القصَّـة:

وضـع سـمّاعتيْن Headphones، إطفـاء أنـوار الغرفـة، والجلـوس وحيدًا مُترقِّبًا أي صرخـة مفاجئـة تـضرب طبلتـي أذنهـا فتنتفـض مُنْتَشِـيةً مـن الهَلَع!

عاشَـت تفاصيـل القصَّـة، كأنَّ روحهـا قـد تلبَّسـت بطلهـا وكل مـا حـدث معـه شـعرت بـه فعليًّـا، وهـذه إحـدى مميـزات أحمـد يونـس -مـن مميـزات عديـدة لا حـصر لهَـا- في تقنيـة الـسَّرد، يُسْـحِرُك ويجعـل مِنـك دُميـةً يتلاعَـب بخيوطهـا كيفـما شـاء، وإن عـبرت نسـمةً طفيفـة بجانبـك.. فسـتيقظ البيـت مـن صرختـك!

حـين وضعـت رأسـها عـلى الوسـادة لتعتـدل في جلسـتها، وفيـما كانـت القصَّـة قـد بَلَغـت ذروتهـا، شـعرت بشـعورٍ طـاغٍ لحُـوح برغْبَـةٍ للذهـاب إلى الحـمَّام، رغـم أنَّهـا، فعليًّـا، لم تكـن تريـد الذَّهـاب لعـدم وجـود مـاء يُفْـرَغ. لكـن الرَّغبـة الشَّـهاء كانـت قويَّـة للغايـة، وعنيفـة الوقْـع عـلى منطقـة الحـوض، تضغطهـا وتعتصرهـا اعتصـارًا، أهـذا توقيـت مناسـب للدخـول إلى الحـمَّام!!

قالـت لنفسـها: لِـمَ ينبغـي عـليَّ أن أخـاف؟ فلقـد رأيـت أشـباحًا بأم عينـي، أنـا مَـن اسـتحضرتهم بنفـسي، فِلَـما الخـوف؟ لكنَّنـي لا أحـب التَّبـوُّل وأنـا لا أسـتطيع التَّحكُّـم في موضـع سـمَّاعات الأُذن، إذ يمكـن أن تفوتنـي تفصيلـة مـن تفاصيـل القصَّـة الممتعـة.. الممتعـة بحـق!

ولكـن عـلى أي حـال.. رَضَخَـت للأمـر الواقـع. بعـد إلحـاح مُزْعِـج، خلعـت السَّـماعات، حطَّـت بقدميْهـا عـلى الأرض، سـارَت في عتمـة الغرفـة تتحسَّـس مِقْبَـض البـاب، ودلفـت إلى الحـمَّام بأقْـصى مـا لديهـا مـن سُرعـة لتلحـق بقيـة القصَّـة.

أشعلت إضاءة الحمَّام الباهِتة بدورها، فأضفت كآبة لا مَزيد عليها فوق كآبة الجو النَّفْسي المُقْبِض الذي تشعر به فور ولوجك من عتبة الباب، جلست على قاعدة المرحاض في انتظار -باستعجال- أن يخرج البول سريعًا. لكنَّه لم يخرج أبدًا. حاولَت مِرارًا لكنّ الشُّعور نَفْسه قد ولَّى، ووجدت نفْسها في نهاية المطاف تقف بِلا هدف واضح.. هدفٌ ليس هدفها هي، ابتداءً...

انقطعت الكهرباء في المنزل بأسره!

هذا ما كان ينْقُص فعلًا.. خصوصًا وأنَّ بطل القصَّة قد قُطِعَت الكهرباء عن منزله لتوّه!

ارتدت سروالها القطيفة، وبآلية ذهبت إلى حيث ينتصب باب الحمَّام المُغْلَق تتحسَّس مقبضه للخروج، إن كان هُناك بابٌ أصلًا!

أين ذهب الباب؟!!

ظلَّت تتحسَّس بأناملها مَوضع الباب، فلم تجد سوى الحائط المكسو بالتُّراب يقف سدًّا منيعًا أمامها. ارتبكت. خطت إلى مرآة الحوض تبحث عن مِصباح وُجِدَ لمثل هذه المناسبة السَّخيفة. وريثما تسير أصابعها بين الأغراض الموضوعة بحثًا عن هذا المصباح المختفي، بَزَغ وميض رفيع للغاية كخيط من المرآة، فأوقَفت عملية البحث، وأمعنت النَّظر في انعكاس المرآة. كان وهجًا خفيفًا، تتنامى ألْسِنته تِباعًا كُلَّما دقَّقَت فيه أسْرَار بحدقتيْها أكْثر فأكثر. ثم اختفى إلى العدم فجأة. وصاحَ صوتٌ عملاقٌ بجانب أذنها اليُسرى الموجَّهة ناحية بانيو الاستحمام..

ضَراااااااااااااائِبٌ!

انتفضت وثْبًا من مكانها، انخلع قلبها من مكانه طيرًا كأنَّه لُدِغ من عقْرَب، اصطدمت بالحائط بظهرها.. تدور بعينيْها تنْقيبًا عن مصدر الصّوت، الذي لم يكن غريبًا عليها.. إنَّه حزقيائيل، نفس النَّبرة الغريبة العملاقة، ونفس ذات الكلمة التي لا يكفُّ عن تكرارها كعلكة في فمه.. ولكن هذا ليس هو.. الواقف أمامها بجوار ستار البانيو، هذه ليست هيئة حزقيائيل العِفريت.. هذا رجلٌ!

وَسِعَت عيناها وهي تُحدِّقان بذهول إلى ذلك الرجل الغريب الواقف أمامها في ثبات وسكون تام. كان ممشوق القوام، غريب الملامح، مُشْعِث الشَّعر، يرْتدي مِعْطفًا زيتيًّا من القطيفة، وسروالًا يربط خصره بِحزام جلديٍّ عتيدٍ، يُحدّق فيها بإمعان ودراسة ماحقة، وبابتسامة بلا فم! إذ أنَّه لا يملك فَمًا من الأساس! فمنطقة ما فوق الذقن مطموسة كُليًّا كأنَّها لم تُصنَع ليتواجد فيها ولو شعرة واحدة حتَّى. هذه المواصفات (نحن) نعرفها جيدًا.. لكنَّها كانت المرَّة الأولى التي تراه فيها.. المرَّة التي أعطاها ترحيبًا حارًّا يليق بِها!

ابْتَلَعت ريقها بمشقَّة، تيبَّست في مكانها مرْتعشة مُلْتَصقةً بالحائط، تترقَّب ما سيحدث بعد لحظات.. أين ستكون؟ وهل ستنجو وترى عائلتها مرَّة أخرى؟ أسئلة كثيرة ضُخَّت بعقلها وصقلت صدرها فأخافتها أكثر من خوفها الموجّه كلّه صوب هذا الرَّجل الغريب!

لم يُبْدِ الرجل أي تعبير إضافي لوجهه سوى الابتسام. بكل هدوء، شرعت يده بخلع الحِزام من سرواله، طواه ببعضه البعض كما تفعل الأم حين تأُدِّب ابنها، خطا ناحيتها ببطء دَغْدغ أعصابها وأفْغَر فاهها وأزْهق روحها فتشوَّشَت رؤيتها. وبنفس ذات الهدوء، هوى بكفّه

الأخـر بصفعـةٍ عنيفـة عـلى خدّهـا، ثـم قبـض عـلى جدائـل شـعرها بقبضـة حديديـة، حملهـا مـن فـروة الـرَّأس، فارتفعـت بضع سـنتيمرات فـوق الأرض، وباليـد الأخـرى.. شرع يضربهـا بالحِـزام بشـدَّة لاسِـعة، ضربٌ مـبرحٌ لا رحمـة ولا رأفـة فيـه، لا يُفـرِّق بـين موضـعٍ حسَّـاس وغـير حسَّـاس في جسـدها، الجِلـد واللَّحـم كلّـه مُهيَّئًـا ومُعَرَّضًـا للـضرب والصَّفعـات المتتاليـة السَّريعـة الغـير متوقِّفـة! بَطَحهـا عـلى البـلاط، وهـي لا تـزال في حالـة صدمـة وهلـع، مَشْـلولة وعاجـزة، خائـرة ومَهيضـة الجِنـاح، كفراشـة آلَ مصيرهـا بـين كفّـيْ إنسـان، واسـتمرَّ بضربهـا بالحِـزام عـدَّة لَسَـعَات متفرَّقـة بأنحـاء الجسـد: الوجـه، العنق، الفخذيْـن، البطـن، القدمـيْن، الجانبـيْن، البطـن، الوجـه، الرُّسْـغين، الثَّديـيْن اللَّذيْـن في طريقهـما للنمـو، الوجـه، الذِّراعـيْن، احمـرَّ سـائر الجسـد، وهـو لا يـزال يـضرب بِـلا أي نيَّـة للتوقُّـف، يضغـطُ بقدمـه المتصلِّبـة عـلى قدمهـا اليُمنـى، ويُبَـاشِر مُهِمَّتـه بضمـيرٍ وبشـغفٍ عـلى أكمـل وجـه!

هل انتهى العرض؟ هل يحقّ لهَا الخروج من الحمَّام الآن؟

كلَّا، ليس بعد!

بـدأت هـي بالبُـكاء، باسـتيعاب هـذا الكـمّ الهائـل مـن الألم، جِلْدهـا يـصرخُ احمـرارًا ونَبْضًـا وارتعاشًـا وكَوْيًـا، عِظامهـا تربـد وجعًـا لا يُحْتَمل، هطلـت دموعهـا سَـخينةً عـلى وجنتيهـا المنكبَّتـيْن عـلى البـلاط، بينـما ألقـى هـو الحِـزام بجوارهـا، وبيُـسراه رفعهـا مـن فرْوتهـا مُجـدَّدًا، مُحْكِـمًا قبضتـه عـلى خصلاتهـا التـي انفجـرت بالدِّمـاء، فصرخـت وانْتَحَبـت.

حاولـت المهادَنة والمقاومة، وهذا يُحْسَـب لهَـا ولرفضها الخنوع الكُلّي، لكـن صَفْعتـه المدويـة عـلى رقبتها كانـت هي الـرَّدع الملاءم عـلى تمرُّدها

الغير شَرْعي عَقْلًا ومَنْطِقًا. حدجها بنظرةٍ ناريَّة مُدْبَجة بغضبٍ لا تسع الكلمات وصفه، استقرَّت قبضته مُحْكَمة الإغلاق ببطنها إثر لكمةٍ مَهيبة أخيرة بصقت لهَا دمًا، رماها على الأرض كمَا لو كان يرمي عود سيجارة، وتلاشى خلف ستار بانيو الاستحمام، ومن ثَمَّ إلى العدم!

ظلَّت هي طريحة على البلاط، تتأوَّه، ليس ألمًا، بل لعدم استيعاب عقلها لهذه العَلْقَة المفاجئة التي لم تعمل حِسابًا لهَا في يومٍ من الأيام، شُلَّ جسدها كُليًّا، فقدت الشُّعور بالألم.. من فرط الألم!

وهُنا، صدح الصّوت العِملاق ليرجُّ طوب الحمَّام ويُفجِّر مسامعها:

- «ضرييييبةٌ مَدْفوووووعةٌ!!!».

* * *

١١

السَّـقف والجـدران مـن الطَّمـي اللّـزج، الأرضيَّـة مُنبَّتـة بحشـائش رطبـة باهِتـة الاخـضرار، البَـاب مُلْتَحـفٌ بأعْمـدة البـوص ومُرَصَّعـةٌ ناحيتـه الدَّاخليـة ببعـض الرُّمـوز، التـي وجدتهـا الطفلـة، مُبْهمـة للغاية وغـير قابلـة للقـراءة والفَهْـم إلَّا بدراسـةٍ خاصَّـة. اسـتقرَّ القـط الأسـود مُنْسَـدِحًا عـلى طاولـة مـن العـاج مُعانِقًـا لـرُزَم الكتـب المُكدَّسـة فـوق بعضهـا البعـض كأبـراج ممتقعـة يُنـير رَهْبتهـا وهـج المِشْـكاة المُعلَّقـة بإحـدى زوايـا الحائـط.

أَحْكَمـت المـرأة، ذات الشَّـعر الأحمـر المموَّج، غلـق البـاب خلْفهـا. أَشـارت للطفلـة بـأن تجلـس عـلى إحـدى الأرائـك المتراصَّـة قبالـة الحائـط. توجَّهَـت إلى غرفـة داخليَّـة وغَابـت لدقائـق داهَـم فيهـا القـطّ الطّفلـة بعينيْـه المفْترسـتيْن، وبمـواءه المفـزع مثـل مَريـض يحتـضر، ثـم عـادَت وعـلى وجههـا ابتسـامة فَصيحـة وفي يديْهـا كأسـيْن مُرَتَّعتـيْن نَبيـذًا، عرضـت عـلى الطفلـة بإلحـاح، رفضـت في بـادئ الأمـر، لكنَّهـا انصاعَـت، لمَّـا أوْحَـت لهَـا المـرأة بالأمـان بطريقـة مَدْروسـة واحترافيـة للغايـة.

جلسـت المـرأة بجوارهـا، تجرَّعـت الـكأس دفعـةً واحـدة، وبـدأت الحـوار قائلـة:

- «يَفْنى الإنْسان بسرعة إنهائي لهذا النَّبيذ!».

ثم أشارت لهَا بأن تسْتأنف شرابها. أرْدَفت:

- «الواقع طاغٍ. السَّماء مُغلقةٌ أبوابها. الأبرياء يُعانون بالأسفل، ثم يَفْنون كمَا لو لم يتواجدوا أبدًا».

قالت الطفلة وهي ترشف من النَّبيذ:

- «ولكن.. الأبرياء سيُخَلَّدون مع مَلَكوت المسيح في النَّهاية!».

ابتسمت المرأة بلا مُبالاة:

- «مَن قالَ لكِ هذا الكلام؟».

ببراءة أجابَت:

- «أبي».

- «إنَّه يخْدَعكِ لكيلا تصْطَدمي بالحقيقة المؤلِمة للغاية..».

نجحت المرأة في جعل الطفلة تتجاوَب معها، فتسائَلت بحيرة:

- «حقيقة؟ أيُّ حقيقة؟».

دَنَت المرأة بشفتيْها من أذن الفتاة وهمست:

- «حَقيقة الفَناء!».

ثم عادَت بقوامها إلى جلْستها على الأريكة، تُراقِب ماحِصةً تعابير الطفلة السَّاذجة، أكثر من اللَّازم، وهي تتبدَّل وتتحيَّر، ومُحاوَلة عقلها استيعاب مَفْهوم كلمة «الفَناء» وتحليله وتفسيره، بل وإعطاءه مُبَرِّرًا دينيًّا في حال التَّسْليم به، علاوةً على رَشفاتها الصَّغيرة للنبيذ الحُلو، الذي يفْعَل برأسها ما فعله في نفس الطفلة السَّابقة التي جلست على نفس ذات الأريكة، وتلقَّت نفس ذات الكلمة من المرأة: الفناء!

في نهايـة الحـوار، منحتهـا المـرأة بعـض الحلـوى، أكَلتهـا أمامهـا سريعًـا، ثـم سـمحت لهَـا بالانـصراف، عـلى اتِّفـاق بـأن تعـود لهَـا في اليـوم التَّـالي لتطلعهـا عـلى كِتـابٍ مُعـيَّن يحـوي كل إجابـات الأسـئلة التـي طرحتهـا أثنـاء الجلسـة. بـشرط، ألَّا تُخـبر والديْهـا أبـدًا عـن هـذه الزيـارة، والزيـارات اللَّاحقـة!

اسـمها كارولينـا، سـتحْتفل بعيـد ميلادهـا العـاشر بعـد شـهر مـن الآن، تنحَـدِر مـن صُلْـب عائلـة كاثوليكيـة مُتَشـدِّدة في تَعاليمهـا، وصارمـة في سـن قواعِـد تنظيـم الحيـاة بـين الأسْرَة المؤلَّفـة مـن الطفلـة والوالديْـن فقـط. وتُعْتَـبَر كارولـين قـد خالَفـت إحـدى هـذه القواعـد الصَّارمـة في تجوُّلهـا في الغابـة ليـلًا دون إذن والدتهـا، وهـو مـا سَـبَّب لهَـا مشـاكل لا حَـصْرَ لهَـا فيـما بعـد، حـين علمـت والدتهـا ونصحتهـا أكـثر مـن مـرَّة بعـدم التَّجـوُّل في أرْتـاع الغابـة وحدهـا؛ إذ يُمْكِـن أن يفترسـها حيوانًـا أو مـا شـابه. لكـن كان رأي الأب مُخالِفًـا تمامًـا، وإنْ أسَرَّه في نَفْسـه لألَّا يُفْـزِع ابنتـه.. فقـط اكتفـى بنصحهـا بصرامة وبشـدَّة مـرارًا، لكنَّهـا لم تهتـم. فـكان سِـحر المـرأة، ومجالسـتها وحديثهـا وتلـك الأفـكار الفاسِـدة التـي تزْرَعهـا في رأسـها المخالِفـة لأي عقيـدة أكـثر فِتْنَـةً وتأثـيرًا مـن نصائـح الأبويْـن. فوصـل المطـاف إلى زجـر أبوهـا لهَـا بعنـف، وحبْسـها في غُرْفتهـا رَغْـمًا عنهـا، دون أن يعـرف السّر وراء تجوالهـا في الغابـة بهـذا الإصرار والعِنـاد.

بقيـت كارولينـا في غرفتهـا حزينـة، تتـوقَّ فقـط لرشـفة صغيـرة مـن نبيـذ المـرأة الـذي صـار إدمانًـا بالنسـبة لهَـا. جافَتهـا الأفـكار والأُطْروحات العَدَميـة النّـوم، وظلَّـت تُفكِّـر بهـا وتسْـتنبط أحكامها بذكاءهـا الفِطْري الفَـذ وتسترْسِـل بأسـئلة إضافيـة لا طائـل لهَـا حول فِكْـرَة الأديـان بصفة

عامـة، وخـلاص المسـيح بصفـة خاصَّـة. عـلى مـدار خمسـة زيـارات، مَحـت فيهـم المـرأة أي تعلُّـق دينـي لـدى الطفلـة، وأهْدَمـت كل النَّوافِـح والشَّـذرات التـي كانـت تعلمهـا تلقّيًـا مـن تصرُّفـات والديْهـا، كالصَّـلاة والصّـوم والأعيـاد. لم تتكبَّـد الطفلـة سـؤال نَفْسـها: لمـاذا تخبرهـا المـرأة بأشـياء كهـذه تحديـدًا، ومـن الجلسـة الأولى؟ مـا الدَّافـع وراء كل هـذا؟ فقـط، إنصاعَـت لهَـا وآمَنَـت تِباعًـا بأفكارهـا التـي وجدتهـا أكـثر منطقيـة مـن العقائـد، فعلقـت في شِـباك العنْكبـوت، ولم تتكبَّـد أيضًـا عَنـاء تحريـر نَفْسـها.. إذ أنَّهـا لم تَـرَ -أصـلًا- أنَّهـا قـد وقعـت في الفـخ! الفـخ الـذي نُصِـب لمَـن قبلهـا، ولم يسـتطع النَّجـاة منـه أبـدًا!

* * *

١٢

رُشِقَت الكلمات مُلَبَّدةً بسُحب الدُّخان الكثيف المُعبّئ لغرفة المعيشة بين عائلة السّت رضوى حول ما ينبغي فعله مع أَسْرَار، لا سيَّما أنَّها قد فقدت عُذْريتها من ذلك المجهول وحُرِمَت من الإنْجاب إلى الأبد، وهو الشَّيء الذي مَثَّل عارًا وكارثةً كُبرى في العائلة. قيل بأنَّها كانت على عِلاقة مع أحد شَباب الحارة وانتهت قِصَّتهما حين اغتصابه لهَا في الخرابة وفِراره، ووصل الأمر بأن أُشِيرَت أصابع الاتهام إلى بعض الشَّباب العاطِل المعروفين بشهوتهم وسَفَالة نُفُوسهم، فأثَار هذا القول مراجِل الغضب في عم سَعْد، واشتبك مع أحد المُتَّهمين بالأيدي لفِرْيته التي لم يؤازرها أبدًا بدليلٍ قاطعٍ. وذهبت أقوالٌ أخرى إلى أنَّ المُتَسبِّب هو أحد أشباح الخرابة الطَّوافون ليلًا ليصطادوا ما يشاؤون من البشر السَّهرانين، رَاقَت له أسْرَار، فاعتدى عليها وعادَ إلى حيثما جاء. أيَّد الكثير هذا الزَّعم، مِمَّن ما يزالون يؤمنون بأساطير الخرابة التي لا حَصْرَ لها.

لكن في لحْظةٍ ما، وقف عبد الرّحيم، شقيق عم سَعد العائد من السَّفَر، من مجلسه، ببدْلته الأنيقة ورابطة عنقه الزَّرْقاء وببعض الخصلات الشَّقراء بين ثَنايا خصلات أخرى شيباء، مُعْلِنًا رفضه واحتجاجه المطلق على كل ما يدور في هذه الجلسة المُربدَّة بالكوارِث والجهل والتَّفاهة، وقالَ زاعمًا شبه مُتأكِّد من زعمه:

- «يـا جماعـة، إنتـوا عمَّالـين تخترعـوا في نظريـات ومؤامـرات وجـن وأشـباح وعمَّالـين تأكلـوا في بعـض.. وماحـدش فيكـوا فكَّـر ولـو للحْظَـة واحـدة إنَّ أَسْرار تكـون مريضـة نفسـية ومِحْتاجـة أخصَّـائي نَفْـسي بـدل الجهـل والدَّجـل الـلي بتخرَّفـوا فيـه ده!».

صاحَت السِّت رضوى في وجهه مُحْتَجَّة بنبرةٍ مِلْؤها الغضب:

- «اخراااس! قَطع لِسان اللي يقول على بِنْتي مريضة!!».

حاوَلَ عبد الرحيم تبرير قوله:

- «يـا سِـت رضـوى افهمينـي، عنْدنـا في أمريـكا مـش بيعترفـوا بالـكلام الـلي بتخرَّفـوا فيـه ده! الحـالات الـلي زي دي بتتصنَّـف كمـرض نفـسي ولازم يكـون ليـه عـلاج مُعـيَّن!».

كأنَّها لم تستمع إلى ما قاله أصلًا:

- «بِنْتي أنا مش مريضة!! بِنْتي مش مريضة!!!».

تدخَّـل أحـد أفـراد العائلـة يُحـاور عبـد الرّحيـم، مُحْتَـدًّا في حديثـه:

- «أنـتَ عـمَّال تِقـلّ مِنّنـا وتتفّـه مـن مُعْتَقداتنـا! يكونش سـفريتك دي نَسِّـتك أصْلَك!!».

اسـتفزَّ هـذا الفَـرْد كبريائـه، وأهـانَ مـن شـأنه أمـام العائلـة، وأثـار غضـب دخيلتـه، فصـاح فيـه زاجـرًا:

- «أولًا أنـا مـا قلّلتِـش مـن حـد، كل الـلي قاعديـن دول عـلى راسي مـن فـوق». رفـعَ يديْـه حتَّـى رأسـه، ثـم تطايَر الـشَّرر مـن عينيْه إذ يُـرْدِف: «ثانيًـا أنـت تحـترم نفْسَـك وأنـت بتتكلـم معايا يـا ولد إنت بـدل مـا أعلَّمـك إزاي تتكلَّـم مـع واحـد أكبر مِنَّـك سِـنًّا ومَقَامًـا يـا

كَلْب!!».

لحسن حظ «الولد» أنَّ أبوه قد زجره، وألْزَمَه حدوده، بل وصرفه من الجلسة مَدْحورًا قبل أن يشتعل فتيل الفتنة بين أفراد العائلة، والوقت لا يُسْعِف فتنة جديدة مكْمنها بعض الأراء المحتدمة. حطّت ذراع عم سَعْد على كتف أخيه يرجوه بأن يجلس، ويُتَابع عرض رأيه في هدوء، فاسترْسَل وقد خُمِدَ القدح من عينيْه:

- «بقالكوا سنيين بتردّدوا قِصص وأساطير عن الخرابة الخرابة والعفاريت والكلام الفاضي ده. ودّيتوا عيالكوا للاسمه الشّيخ ناصر وأمثاله، الله يجْحِموا النَّصاب قد كل واحد ضحك على عقله وسرق من فلوس وباعله الوهم، وإيه النتيجة؟ هل واحد فيهم خف؟؟ هل أَسْرَار المسكينة اللي مرْميَّة جوَّا اتحسِّنت؟؟ بل إنَّها زادت مرض فوق مرض! وأكبر دليل على صِدق كلامي وإن الرَّاجل ده كان نصَّاب، هو إنّه مات! زيُّه زي أي حَد بيموت يعني نتيجة لفشله في علاجها!».

أمَّنَ حَسَن على كلامه بقوَّة، وآزَرَه مستطردًا:

- «عبد الرحيم معاه حق. العِلم ما فيهوش التَّخريف وكلام الدَّجالين ده. الغرب طلعوا القمر وإحنا لسَّة بنتناقش في إذا كانت البنت ملبوسة ولَّا مَحْسودة!».

أشَار بيده شرْقًا نحو الخرابة، وتابع: «كلام كتيير عمَّالين تقولوه عن الخرابة دي.. وولا واحد اتجرَّأ يقتحمها ويأكِّد القصص دي من عَدَمها! لكن ده ما بيحصلش. عارفين ليه؟ علشان إحنا شعب يموت في تسليم دِماغه للي يفكَّرله استسهالًا من التفكير بنفسه!».

وتفحَّص حَسَن وجوه الجالسين تِباعًا، ولكن لم تنم وجوههم على أي شيء يعكس أنَّهم قد سمعوا ما قاله أصلًا. كُلٌّ مِنهم لا يُنْصِت سوى للصوت الذي تربَّى عليه، وترَعْرَع بين ثَناياه، وما يزال يأبى العثور على صوت جديد شأنه أن يُغيِّر طريقة تفكيره ولو قليلًا. أحسَّ بأنَّه يقف، بمنتصف غرفة المعيشة، مُحاقًا بأصنام لا تنبُضُ فيها الحياة، ولا تُغْني ولا تُسْمِن من جوع، ولا توحي بأنَّها ذو فائدةٍ تُذْكَر. ربما هو التوقيت المناسِب للبوح عن كل ما قبع برأسه من أفكارٍ تَنْويرية، صمتهم وعدم اكتراثهم يوحي له بذلك، فلن يؤذوه، لأنَّهم أصلًا لا يسمعوه. استغرَق ثوان ليُفكِّر فيها في كل شيء مرَّ كشريط سينيمائي أمام عينيْه، منذ اللَّحظة التي قرَّر فيها اتّباع قلبه وتَيَتُّمه بأسْرَار وغضّه الطرف عن عشق شقيقتها أماني له -رغم أنَّه صارحها مرارًا بأن قلبه مع شقيقتها- وانبهاره بأفكارها الخارجة عن المألوف حول السُّؤال -فقط السُّؤال- عن موقف الإله مِن خلائقه، وأين يوجد، ولماذا لا نراه، وهل بالفعل إن صَحَّ الدين الإسلامي بتعاليمه وتفاسيره، هل سيُعذِّب الإله كل مَن كان خارجًا عن حظيرة الإسلام بهذه السَّادية؟ كل هذه الأسئلة طرحتها، وأرَقته هو، ولم يتكبَّد عناء أو مجهود عرضها على أصْغَر شيخ ليُجيبه عنها بكل بساطة وفي لمح البصر!

هؤلاء البُلَهاء لا يُدْرِكون ما يفعلون. هؤلاء سيفقدونه محْبوبته بجهلهم وتخلّفهم هذا. يجب أن يتصرَّف ويضع حدًّا لهذه المسرحية الهزلية الخائبة. فالتفت إلى عم سَعْد، واستجدى عطفه لأن يُنصِت قليلًا لكلام أخيه، وأنَّه لن يخسر شيئًا إن خاض التجربة، فمَن يدري، لعلّ وعسى، أن يكون الاتجاه صوب طريق العِلم هو الحل

لهـذه الأزمـة، وتحريرهـا مـن معاناتهـا هـذه. يقـول هـذا الـكلام، ويتمسَّـك بالعِلـم، وهـو مَـن أقْحمهـا في هـذه الدَّائـرة مـن بـادئ الأمـر، بجهلـه المطبـق!

زفرَ عم سَعْد بحرارة، لا يجد مناصًا أخرًا، وأعْلَن:

- «شوفلها دكتور يا عبد الرحيم. أمَّا نشوف أخرتها!».

عكسـت الوجـوه وقـع مفاجـأة غـير متوقَّعـة عـلى الإطـلاق مـن رجـلٍ مثلـه، وتبودلـت النظـرات فيـما بينهـم كأنَّهم يهمسـون لأنفسـهم بغرابـة السّـير هكـذا في طريـق لم يخضـه أحـد مـن قبـل، فربمـا كانـت نهايتـه أسـوأ وأبشـع مِـمَّا سـيحدث لـو تركـوا أسْرَار عـلى هـذا الحـال. أيَّـده مَـن أيَّـده، واعـترض مَـن اعـترض، وكان سـبب الاعـتراض ليـس على القـرار نَفْسـه، بـل قـال أحدهـم موضّحًـا مـا يـروم في صدورهـم:

- «يـا عَـم سَـعْد، إحنـا مـا عندنـاش مشـكلة إنَّهـا تـروح لدكتـور لـو كان طريـق العِلـم فيـه علاجهـا. بـس إزاي هنعمـل كـده وحنـا شـايفين دلائـل إنَّهـا ملْبوسـة «بسـم اللـه الرحمـن الرحيـم» بـأمّ عنينـا!؟».

التفت له عبد الرحيم وسأله:

- «دلائل إيه؟».

أجابَ وقد رُتِّعَ وجهه بالذُّعْر:

- «الحاجـة الـلي اغتصبتهـا دي.. أكيـد مـش هتغتصـب نفسـها يعنـي! والسَّـائل الأحمـر الـلي لسَّـة لغايـة اللَّحظـة دي مَرْشـوش عـلى مدخـل العـمارة.. ده تسـمّيه إيـه!».

قال عبد الرحيم على الفور، باندفاعة:

- «أسـمّيه أعـراض المـرض النفـسي! هـي كانـت في الخرابـة.. وممكـن تكـون هـي الـلي جرحـت نفسـها بالطريقـة دي.. Say بـإزاز مكسـورة مثـلًا، لإن التَّشْـخيص أفسـح عـن جـروح غائـرة في فخدهـا، والآثـار كلهـا بتشـير لسـن إزازة مكسـورة. أمَّـا عـن السـائل الأحمـر.. هـو حـد فيكـوا متأكّـد إنَّهـا ماكنـش معاهـا بويـة حمـرا مثـلًا في ايديهـا؟؟ الـلي سـمعتوا إن الحـارة مـا شـافتهاش غـير بعـد مـا صرخـت.. ماحـدش كان معاهـا علشـان يثبـت الواقعـة.. ولَّا إيـه؟».

هُنـاك احتـمال، وإن تبـدَّى ضعفـه، أن يكـون كلام عبـد الرحيـم عـلى حـق، لكنّـه يظـل تحـت تصنيـف «الاحتـمال». لم يجـد مَـن يُعارضـه في قولـه الأخـير، الجميـع شـعروا أنَّهـم ليـس بأيديهـم أي حيلـة يمكنهـم فعلهـا خِلافًـا لاحتمالـه، إذ مـن الممكـن أن تكـون أسْرَار، بالفعـل، مريضـة نفسـية.. مـا الـذي يُرجِّـح غـير ذلـك؟ ومـن الممكـن أيضًـا أنَّ كل مـا رأتـه، وعاشـته، ولا تـزال تعيشـه، مجـرَّد أوهـام نابعـة مـن مرضهـا النَّفـسي هـذا.. مـا الـذي يُخالِـف ذلـك؟ هـل لـدى أحدهـم دليـلًا ماديًّـا مَنْطقيًّـا آخـرًا يدحـض بـه هـذا الاحتـمال؟ لا يظـن عبـد الرحيـم، ولا حَسَـن، ذلـك. لقـد حُسِـمَ الأمـر، وبعـد مناقشـات أخـرى حـول الطبيـب، أسْـفَرَت عـلى أخصَّـائي نفـسي مـن معـارِف عبـد الرحيم، يُدْعـى الدكتـور ميشـيل سـعيد، سـينقل جلسـات العـلاج إلى غرفـة أسْرَار- تحـت إشراف عـم سَـعْد وحَسَـن، وسـيروا مـاذا سـيحدث بعـد ذلـك. هـل ستسـتجيب -أصـلًا- لفكـرة العـلاج؟ هـل سـتفعل معـه كـمَا فعلـت مـع الشـيخ نـاصر الكربـلائي و...

صرْخـةٌ شـقَّت الجـدران، واخترقـت المسـامِع كـمَا انفجـار الرَّعـد في السَّـماء، أتَـت مـن غرفـة أسْرَار على حـين غـرَّةٍ، أفْزعت الجميـع، وأنْزلت

قلوبهم إلى أقدامهم!

أشارَ عبد الرحيم بيده فقال:

- «شوفتوا؟ دي صرخة نتيجة صرع.. الحقوها بسرعة!!».

وفـورًا اقتحـم الجميـع بـاب غرفتهـا، وصرخـت السّـت رضـوى، لمَّـا رأت ابنتهـا بهـذه الوضعيـة المفْزعـة!!!!

* * *

١٣

الإثنين، يونيو.

أُثِيرَ غضب مُعَلّمة الفصل فور أن حطَّت بعينيْها سريعًا على أسْرَار، وأخْبَرتها بلهجة تحذيرية صارمة:

- «وإنتِ يا هانِم.. غيابِك كِتِر الفترة دي.. وده ما ينفعش. إحنا مش هنوقَّف الشَّرح علشان جنابِك بتدلَّعي في البيت ومكسِّلة تهزّي طولِك وتيجي المدرسة زي زميلاتِك..».

كانت أسْرَار جالسة على دِكَّةٍ خَشبيَّةٍ مبقَّعة ومرتَّعة بالدَّرن ورسومات الصَّبيَّات بأقلام الجاف، أمامها كِتاب العلوم فُتِح على درس البناء الضّوئي للنباتات، ومرسية ذقنها على رسْغها في تكاسُلٍ وشحوب. رمقتها بعينيْها الميّتتيْن، ولم تعطها أدنى اكتراث، فأضافَت المعلمة تحذيرها السَّاخِط:

- «لو اتكرَّر غيابِك تاني يا أسْرَار فهضطر آسِفَةً أعملّك استدعاء ولي أمر عند مكتب النَّاظرة!».

منذ متى وفي مدرستي ناظرة؟ فلم أَرَها مُطْلَقًا. قالَت أسْرَار لنفسها بعدما أولتها ظهرها وتابَعت الشَّرح على السبورة. مَالَت خِتام على أذنها بغتةً وهمست لهَا في غموض:

- «معْقولة عُمْرِك ما شوفتيها؟ مش بتشوفي سِتْ عجوزة كده قزْمَة لابسة أحْمَر بتتمشَّى بليل قدام سريرك؟».

ارْتَجَفت أسْرَار من صوتها الهادئ أكثر من اللَّازم، ومن معْرفتها لهذه الظَّاهِرة التي بدأت تحدث لهَا مؤخَّرًا، بعد أسبوع عَلْقَة الحمَّام البئيسة: كُلَّما وضعت رأسها على الوسادة وشرعت في الاسترخاء، بين ثَنايا الصَّمت والهدوء المطبق والعَتَمة والحَر، تشعر بخرْمَشَة مُزْعِجة تحت السّرير؛ أظافِرٌ تبدو من وقْعها حِدَّتها تخربش في الخشب، ثم تطرُقُ بأشاجعٍ من حديد خمسة عشر طرقة كُلّ عشرِ دقائق، وحين تدقُّ السَّاعة بالثَّانية بعد منتصف اللّيل، تتبدَّى هيئة لإمرأة قصيرة جدًّا لا يتجاوز طولها ركبة إنسان بالغ، مُلْتحفة بوشاحٍ أحمر ذا قلنسوة، تُهَمْهِم بكلماتٍ غير مفْهومة ذات مُضَمَّخةً بلحنٍ شجوي هادئ، وتظلَّ حتَّى أذان الفجر تتجوَّل بأنحاء الغرفة جيئةً وذهابًا!

وفي إحدى المرَّات، استيقظت أسْرَار في منتصف الليل إثر كابوسٍ مَهيب، أفْزَع قلبها فزعًا، وما إن فتحت عينيْها دفعةً واحدة، حتَّى أبْصَرت وجهًا مُجعَّدًا كورقة مُنْكَمِشة مُتْخَمًا بالكثير من البثور والثَّآليل، يبْتَسِم لهَا في تفحُّصٍ، يُقطّر من فمه العريض زُبْدًا كالكلب، ويجلس فوق صدرها بقامته القصيرة كحِزَم من الفِراء مُلْتَفَّة حول نفْسها!

استمرَّت في هذا الوضع طويلًا، طوال شهر مايو، مُعاناة مع تلك المرأة التي لا تفعل شيئًا نافعًا أو ضارًّا سوى التّجوال بالغرفة ليلًا والتحديق بوجهها حين تعود روحها من ميْتَتِها الصُّغرى، وإلى اليوم الرَّابع من شهر يونيو. حَّتى هذه اللَّحظة، لم تكن تعلم أسْرَار مَن تكون هي، إلى أن همست خِتام في براءة طاغية:

- «دي ناظرة المدرسة.. ماتت سنة ١٩٠٥ بعد ما اختفت قبلها فجأة وماحدش قدر يوصَل لجثّتها لغاية النهاردة!».

تساءلت أسْرَار:

- «سابِت كل مصر وجاتلي أنا ليه!؟».

واصَلت خِتام همْسَها، أجابَت:

- «لعْبِتْنا لسَّة شغَّالة..».

التفتت أسْرَار لها خلسة من المعلمة..

- «لعبة إيه؟».

أرْخَت خِتام كرتا عينيْها إلى الدّكة، وأجابَت بنبرة مشْفقة، وربما حملت نفحة ساخرة:

- «لعبة الهُيَّام!».

لعبة الهُيَّام؟ ما معنى الهُيَّام أصلًا؟!!

لم تستطرد خِتام أكثر من ذلك. فقط اكتفت بإثارة فضولها، قائلة:

- «تعاليلي البيت بليل.. وهنلعب مع لعبة الهُيَّام».

وعادَت بظهْرها إلى الوراء تُصفّر بنبرة خفيضة، وتُردّد كلماتها المبْهَمة بالفرنسية أثناء الشَّرح، كأنَّها لا تعْبأ بالمعلمة على الإطلاق..

Papa, pourquoi déteste tu Sara? Elle ne voulait que jouer!

بابا، لِمَ تكره سارة؟ لقد أرادَت فقط أنْ تَلْعَب!

في تلك الليلة، سَارَت أسْرَار خلف خِتام في طريق طويل ضيّق

أقْـرَب إلى زُقَـاق عَفِـن، يتفـرَّع منـه عـدّة طُـرُق أخـرى مُلْتَويـة كالأفاعي أكـثر اتِّسـاعًا، بعـض الـشَّيء. سـلكت خِتـام إحـدى هـذه الطُّـرُق، وقـد تناثَـر عـلى جانبيْهـا أكـثر محـال الملابـس رداءً وسـوءًا وعـدّة محـال أُخْـرى مغلقـة وكِشْـك سـجائر باهِـت الأضـواء، مَـدَّ فيـه الرَّجـل رقبتـه للأمـام يحملـق إلى أسْرَار بغرابـة شـديدة تخلَّلتهـا خيـوط مـن الخـوف والحـرص عـلى ألَّا تقـترب أبـدًا مـن هـذه الرّقعـة أمامـه. وجـدت في خوفـه المبالـغ هـذا تعجُّبًـا بالـغ المـدى، إنَّهـا ليسـت قبيحـة إلى هـذا الحـد!

دلفـت خِتـام أخـيرًا عـبر مدْخَـل العـمارة، خطـت عـلى فِناءهـا الكبـير ومـن ثَـمَّ صعـدت سَـلالم وجدتهـا أسْرَار طويلـة وشـاقَّة للغايـة، الإضـاءة خافِتـة وكئيبـة، ولا أَثـر لذُبَابـة. وبَلَغـت بِهـا الـدُّور الأخـير، أشْـعَلت خِتـام نـوره بيدهـا وفتحـت بـاب المنـزل ببـطء، فتسـاءلت أسْرَار، شـاعِرةً بالخجـل:

- «أهْلِك جوَّا؟».

توقَّفـت يـد خِتـام بغتـةً عـلى المفتـاح، أدَارَت رأسـها لأسْرَار، وسـألتها بإصرار:

- «اسْتَأذنتي من أهلك إنِّك تيجي البيت، صح؟؟؟».

أومأت أسْرَار لهَا بنعم، وأضافَت:

- «لغاية تسعة بليل وهروَّح..».

دارَت خِتـام بعينيْهـا في الفـراغ، كأنَّهـا تتربَّـص بـشيءٍ مـا بالسَّـقف، ثـم بـاشَرت فتـح البـاب دون أن تنبـس بكلمـة أخـرى.

* * *

١٤

خَدَّرَتني رائحة بخور عود اللَّاوي المَدْفون في مَبْخَرة مُذْهبة وضِعَت فوق مِنْضَدة «الكونْسُول» عند مَدْخَل المنزل، فَخْمًا وعريقًا وعتيقًا لا يمت لحُقْبتنا تِلك بأي صلة؛ مَصْنوعٌ هيكله من الخشب المطلي بماء الذَّهب، إطَار كريستالي برَّاق، ومرْآة لم تُشْعِرني أنَّني أقفُ أبدًا أمام مِرآة. كانت ضخمة للغاية، أكْبَر من الكونْسُول نَفْسه، تُساورك الحيرة فيما إنْ كانت تعكس وجهك أنت، أم وجْهًا آخرًا يلْبسكَ قِناعًا له! للحظةٍ تأمَّلتُ فيها نَفْسي، لحظة طالَت كثيرًا وبدَت كساعة، فعليًّا، بالنسبة لي، لم أكن أنا.. هذه ليست أسْرَار.. لا أعرف ما هو، لكن ما تيقَّنْتُ منه تيقُّن رؤيتِي لَكَ الآن إذ تنصت لكلماتي، أنَّها ليست أنا.

أدرتُ وجهي ناحية خِتام، فوجدتها مازالت تُغْلِق الباب وراءها، تعجَّبت من ذلك الوقت الذي مضى طويلًا أمام المرآة، وعادَ إلى طبيعته عند خِتام. رمقتني بنظرةٍ ودود، أسْبَغَت عليَّ ترحيباتها وإغْراءاتها لي بقطع الحلوى وكؤوس البرتقال، تحرَّكت أمامي سريعةً كذُبابة حائرة، لا تدري هل تُقدّم الحلوى أولًا أم الشَّراب أم تأتي لي بالألْعاب لتستعرضها لي مُنْتَشيةً.. أم تدخل في صُلْب الموضوع وتأتي لي بنهاية المطاف؛ ما جلبتني لأجله؟

المنـزل كان عاديًـا جـدًّا ولا تعْبَـث فيـه أي أُعْجوبـةٌ تُذْكَـر، نظيفًـا جـدًّا لا تشـوبه شـائبة، ولا تعيبـه عائبـة، صالـون أحـلام كل أم مصريـة تُكابِـد العنـاء والشَّـقاء لتُبْقيـه أنيقًـا ومُمَهَّـدًا لاسـتقبال الضيـوف، لا أثـر لحيـاة أخـرى سـواها، غرفتهـا تطـلُّ عـلى شـجرةٍ باسـقةٍ تترسَّـخ بِفنـاة المنـزل، وتُلْقـي بفـرع مـن فروعهـا إلى النَّافـذة، المطبـخ، الطُّرقـة، الحـمَّام، غرفـة المعيشـة، كل شيء طبيعـي للغايـة ولا يَـشي بمظْهرهـا القبيـح المُخيـف للتلميـذات في المدرسـة، ولا ينـمُّ عـن كونهـا تعبـث بأغـراض السِّـحر وتسـتجلب العفاريـت كـمَا فعلـت معـي في مرحـاض المدرسـة.

ولا زلتُ أجْهَل ما هي لعبة «الهُيَّام» هذه!

مِـرارًا سـألتها عـن عائلتهـا، فَـرْدًا فَـرْدًا، جرَّبـت كل الطُّـرق الممكنـة لأسـتجلي مِنهـا إجابـةً شـافيةً: الأدبيـة والتَّطفُّليـة والعَفويـة وتغيـير صيغـة السُّـؤال وزجّـه بأكـثر مـن موضـع والتَّلميـح الصَّريـح حـول أنَّنـي لا أشـعُر بالآمـان في منـزلٍ أجهـل قائميـه، فتبرَّمـت وانكمـش وجههـا، وصرخـت في وجهـي دفعـةً واحـدةً:

- «مش عاااااوزة أتزفِّت أتكلم عنهم!».

راعنـي صوتهـا، تراجَعـت بظهـري إلى الـوراء خوفًـا مـن أن تـزدرني حيَّـةً، لكنَّهـا هـدأت، وقالـت بـلا تفكـير:

- «أنا بكره أبويا... بكرهُه!».

لم أشَـأ أن أسـأل عـن سـبب كرههـا لأبيهـا، لألَّا تهجـم عـليَّ فعليًّـا، بوجههـا الممسـوخ هـذا. التزمـت الصّمـت، ولم تقـل هـي كلمـةً أخـرى بعـد ذلـك.

أحسستُ أنَّني، بإلحاحي السَّخيف هذا، قد لمستُ نقطة من نِقاط ضعفها، ربما، وخمشتُ كبرياءها في أن تكون هي قائدة الجلسة ومُقْذفة الفضول في القلوب وتركها دون إجابات واضحة.. وأحيانًا دون إجابات. لكن فيما يتعلَّق بلُعبة «الهُيَّام»، فقد جهرت بمعلوماتٍ عَنها، بعدما سحبت مِقعدًا من مقاعد الطاولة المُغطَّى ببطَّانية وجلَسَت قبالتي، مُسْتَطْرِدة:

- «من أول ما سمحتيلي إني أقرأ لك الطلسم في حمَّام المدرسة وإنتِ بالفعل اسمك بقى مُدْرَج في اللعبة دي. قواعدها بسيطة جدًّا. بعد ما قرأنا الطَّلسم، فتحنا بوَّابة بيننا وبين عالَم الأرواح الهُيَّام.. الأرواح الحائرة بين البَرْزَخ والحياة الدُّنيا. أغلب الأرواح دي ما بتكونش مرتاحة، علشان نهايتها ماكنتش سعيدة أبدًا..».

اسْتَرْعَى انتباهي ما تقوله عن مَفْهوم «الأرواح الهُيَّام» الحائرة بين عالمَيْن قُمْنَا بالعبث في بوَّابتها. لكن شيءٌ كان يعتصر عقلي بينما كانت تتحدَّث، سؤالٌ ومض بغتةً وأحتاج إلى إجابته الآن، فاستوقفتها في أدب، وسألتها بفضول:

- «ثواني. دلوقتي إحنا بقينا مُتأكّدين إن فيه أرواح وعوالم أخرى.. شوفت كل ده بعينيَّ بل واتأثَّرت جسديًّا بيه. السُّؤال هِنا: فين ربنا في كل ده؟».

ابتسمت خِتام نصف ابتسامة باهِتة، رفعت لي حاجبًا مُسْتَعليًا، وسألتني:

- «غريبة. من إمتى وإنتِ بتؤمني إن فيه إله موجود، أصلًا؟».

كنت ما أزال حائرة حول مَفْهوم الإله، دينيًّا، فَلْسفيًّا، واقعيًّا،

وأيضًا عِلميًّا. فِكرة الإلحاد كانت مسيطرة وضاغِطة بتثاقُلٍ على عقلي، بينما احتارَ قلبي بين ضلوعي، نَبَض بالحيرة والتَّشكُّك، كأنَّ فِطرتي تُرْغمني على إعادة التَّفكير -العاطفي- وإعادة بعض المفاهيم حول الإله وقدرته. أرفُض مفهومه في الأديان بصفة عامَّة، أرَى صورته -المزعومة- مُتناقِضة بعض الشّيء في تدبير هذا الكون وتخصيصه لفئة مُحدَّدة من تاريخ البشرية لحصرها في الجنَّة الأبدية. بينما جنحت قليلًا لمفهوم الإله في فَلْسَفتي، ورأيته أكثر مَنْطقية وواقعية من صورته في الأديان. لن أتحدَّث بهذا الشَّان الآن. كل ما أريدك معرفته هو أنَّني كنت في خضم صراع بين العقل والفِطرة، وجاءت خِتام بسؤالها هذا لتُرْبِكني أكثر ولتزيد معاناتي أكثر مِمَّا ينبغي!

أجبتُ حائرة: «يعني.. مش بالصّورة اللي النَّاس فاكراها.. ماعنديش دليل علمي على وجوده.. وكذلك ما عنديش ما يُثْبِت انعدامه من الكون. بس فِكرة العوالم، البَرْزَخ، كل اللي بقى بيحصلّي من بعد الطلسم اللي قرأتيه عليَّ، مخلّياني محتارة أكثر.. ومش عارفة».

خِيلَ لي أنَّ الدَّم يغلي مُنْدفعًا في عروقها النَّافِرة، كأنَّني قد تلفَّظتُ بسُبَّةٍ ما أو قمت بإهانتها، إذ رمقتني بعينيْن ثابتتيْن ساخطتيْن، خرجت أنفاسها ساخِنة وهي تصرّ على تلك الفِكرة التي تحاول زَرْعها برأسي طوال فترة صداقتنا بأي ثمن:

- «ما فيش.. حاجة.. اسمها.. إله!!! أنا دخّلتك اللعبة دي علشان إذا ما كنتيش مصدَّقاني.. الأرواح اللي ماتت.. وفضلت متشعلقة بين عالمين هي اللي تقولك بنفسها إنّهم، فعلًا، ما لاقوش إله

بعد الموت. مش مشكلتي إنّك مش كفؤ للعبة. عرفتي ليه بتحصل معاكي ظواهِر غريبة؟! علشان فيكي ذَرّة إيمان.. وده مخالِف للقواعِد يا أسْرَار! أنا بحبك، وعاوزة مَصْلَحتك».

تذكَّرت ما حدث مع العفريت حزْقيائيل، فقلت:

- «بس.. أنا لمَّا سألت العفريت اللي حضَّرته عن ربنا -أقصُد، هذا، الإله- ما اعترضش، بل وشاورلي على حاجة أنا ما كنتش شايفاها!».

ضحكت خِتام وقالت بنبرة ملؤها السُّخرية:

- «ما اعَتَرضش علشان دي مهمته من البداية. إنتِ دخلتي اللعبة دي علشان حَد فيها يأكّدلك عدم وجود هذا الإله، والدليل إنّه شاورلك في الفراغ.. بيستهزء بيكي من سذاجة السُّؤال! يا بنتي دي حاجات مافيهاش فِصال.. أ، ب، حياة. ماحَدِّش مِنهم ذكر إن فيه إله ومخبّيين علينا مثلًا! وبحذَرِك..».

رفعت سبَّابتها تُحذّرني، ثم استرْسَلَت:

- «انْزَعي من قلبِك أي ذَرَّة إيمان.. ده مش كويس علشانِك».

أطْرَقتُ رأسي بوهن استسْلامًا لهَا ولكلامها الذي بدا لي مَنْطقيًّا بعض الشَّيء، وفيه طوق نجاتي من مُعذِّبي الذي يوسعني ضربًا كُلَّما لمحني في حمَّام البيت؛ لدرجة أنَّني قد بِتُّ مؤخَّرًا أستأذن جارتي صَفية لاستعمال حمَّامها لأتجنَّبه كُليًّا، وبالفعل، لم أرَه هُناك أبدًا. لقد كانت الآيات القرآنية من سورة البَقَرة لا تُفارِق بيتها، وهو الأمر الذي لم انْتَبه له وقتذاك، ولم أكترث.. ظننته من قبيل المصادفة فقط.

جـاءَت اللَّحظـة التـي انتظرتهـا بفـارغ الصـبر، ذلـك حينـما افـترَّ ثُغـر خِتـام عـن نهوضِنـا عـلى الفـور لنسْـتأنِف لُعْبَـة الهُيَّـام، ولكـن في مرحلـة أكْـثَر اتّسـاعًا وصعوبًـا. قالـت أنَّ طقوسًـا ينبغـي أن تُقيمهـا قبل أن ترفـع البطَّانيـة مـن الطَّاولـة، التهمنـي الفضـول لأعـرض مـا تُخبّئـه أدْناهـا، لكنَّهـا اكتفـت بـأن أفْصَحـت عـن ذلـك الـشَّيء، بقولهـا:

- «المرحلـة الثَّانيـة مـن لُعْبـة الأروح. جيـه وقـت الطَّاولـة المُقَدَّسـة!».

وحـين سـألتها، بعـد مـرور ربـع سـاعة مـن تحضيرهـا للطقـوس، عـن كيْنونـة تلـك «الطَّاولـة المُقدَّسـة»، ابتسـمت لي في شَرٍّ، عـادَت خِتـام التـي أعرفهـا في لحظـاتٍ مُقْبضـةٍ كهـذه، كأنَّهـا لم تكـن تلـك التـي جالسـتني منـذ بضـع دقائـق فقـط، وأزاحَـت الغطـاء مـن عـلى الطَّاولـة، لتكشـف عـن أغـرب لوحَـة قـد رأيتهـا في حيـاتي قـط!

عُرِفَت باسم «طاولة كراولي المُقدَّسة»!

* * *

١٥

غاصَت مَخالِبه في دَرَن الوحل المُتَناثِر على بُعْد مِتْريْن من قبو المنزل. تمشَّت قوائمه الصَّغيرة النَّاعِمة بخُطى ثابتة هادئة إلى أن وَثَب بخفَّةٍ عبر فتحة القبو المَفْضي إلى طابقٍ أرضيٍّ مَثَّل مخزَن الوالديْن مُنذ قدومهما إلى هذا البيت العتيق. التصقَ بالجدار الأيسر وهو يهبط سَلالِم طويلة تؤدّي إلى المخزن، توارى خلف إحدى الصَّناديق بينما كان السَّيد نويل يُباشِر عدَّة أعمال على مكتبٍ يتفحَّص عليه فواتير مُتأخِّرة. مالَ بأرْبَاعه الخلفية وألْصَق نَفْسه بالجدار الأسْمَنْتي، وسَار ببطء واحتراس، خفيفًا كالرّيشة، غير مَلْحوظًا كالهَاموش، حتَّى بلغ السّلالم الصَّاعِدة، ثم عبَر بابًا خشبيًّا وتوجَّس يُمنةً ويسارًا لألَّا يُرى. واصَل طريقه إلى الرُّدْهة. فكانت السَّيدة تقوم بأعمال المنزل كعادتها. أخَذَ يتوارى ويختبئ بين كل هوَّة يجدها بين الكنب والكراسي وتحت الطَّاولة، إلى أن نجح أخيرًا بالوصول، سالِمًا، إلى غرفتها.

كانت كارولينا مُنْسَدحة على سَريرها واجمةً مُحْتَقِنةً من إحْكام أبيها غلق باب المنزل عِقابًا لهَا على مخالفة أوامره، ذلك عِندما لمحت القط الأسود يموء بجانب السّرير، ويشْرئِب بعنقه ليُلْفِت انتباهها إليه. شعرت بالسَّعادة لا الاستغراب من تواجده هُنا، إذ لم تتسائل أصلًا حول كيفية دخوله وكيف لم يلْحَظه أبَويْها وهو يتحرَّك بطلاقة في المنزل. كان يحمل بين براثنه ورقةً صغيرة جدًّا سُرعان ما مدَّها

لهَا، فالتقطتها، وفضَّتها بلهفةٍ، قطَّبت جبينها دهْشَة، نظرت إليه مرَّى أخرى غير مُسْتَوعبة فحوى هذه الرسالة الغريبة.. كيف و... لِماذا؟!!

زَفَرَت ضيقًا، توارى القط تحت السَّرير، وظلَّت تُفكِّر طوال النَّهار، ليس في هل ستقدر على فِعْل ذلك أم لا، بل كيف وبأي طريقة ستفعلها؟!

حَلَّ المساء بأثْوابه القاتِمة على المنزل، وقد صارَ القمر بَدْرًا مُرْتَفعًا في السَّماء أعلى الغابة. أزاحَت كارولينا الغطاء من عليها وتسلَّلت على أصابع قدميْها إلى المطْبَخ، تبعها القط في ترقُّب على ما ستتَّخذه من قرار، وقفت قليلًا تُعيد النَّظر في الأمر. إنَّها لا تزال طفلة، من أين ستأتي بالجُرْأة لعفل مثل هذه الفعلة الشَّنْعاء؟ أغْمَضت عينيْها وفَرْكتْهُما بأصابعها الصَّغيرة.. تُفكِّر.. وتُفكِّر.. وتُفكِّر..

صوتًا كهاجِس مُلِح، يُذكِّرها بِما قالته المرأة ذات الخُصْلَات الحمراء عن مَفْهوم القوَّة، والإرادة النَّاجِتة للواقِع كمَا نَرْغَب نحن، لا قوى الطَّبيعة الأُم. «حين تجْفَل رعاية الطَّبيعة الأُم عن مَخْلوقاتها.. يحين لَنَا الفرصة لنكون أرْبَاب الواقع. فإذا استللتُ سيفًا، وقمت ببتر رأسكِ عن جسدكِ، فأنا هُنا رَبُّ، واقعي، وواقعكِ الذي اخْضَعته لي، ذلك لأنَّني أدْرَكتُ في هذه اللَّحظة أنَّني سيدة الواقع العام أُشَكِّله كيفما أشاء، بينما تُرَتِّلين، أنتِ، الدَّعوات لقوَّةٍ لم تكن يومًا موجودة لإنقاذكِ!». وقْتها لم تستطع كارولينا فِهم ما عنته المرأة بهذا القول، ما هذه الفَلْسَفة الوجودية الغريبة جدًّا عليها؟ وهل تنْدرج تحت مُسَمَّى «الفَلْسفة» أصلًا؟ لا تعرف. كل ما قالته المرأة هو: «سترين

الواقِـع كـمَا تُريديـن.. لأنَّـكِ تحرَّكتـي نحـو الهَـدَف. لا حَـرَاك.. إذن لا هَـدف. لا هَـدَف.. إذن سـتصبحين الفريسـة؛ واقعًـا لغـيركِ يفعـل بـكِ مـا يشـاء».

رمقـت القطَّـة مُغْرَقـة في التَّفكـير. كانـت تنظُـر إليهـا برتابـة، تُريـد أن تُقـرِّر هـي.. مـا إن كانـت سـتنجح كارولينـا في الاختبـار، حقًّـا، أم سـتضمُّها لواقعهـا تفعـل بِهـا مـا تشـاء؟!

اختبـأت كارولينـا تحـت الطَّاولـة سريعًـا، وعـادَت القطـة إلى تحـت سريرهـا في الغرفـة بسرعـة فاقَـت ومْضَـة الـبرق، لمَّـا خـرج السَّـيد نويـل إلى الرُّدْهـة، يكسـو العـماص وجهـه، أخـرج زُجاجـة مـاء مـن الثَّلاجـة، أعادهـا مـرَّة أخـرى، وقـف قليـلًا في مكانـه بـين الصَّحيـان والنّـوم، ثـم عـاد إلى غرفتـه بخطـوات غـير متزنـة، اتَّخـذت كارولينـا فيهـا قرارهـا النَّهـائي، حـول مـا سـتفعله الآن في غرفتهـا.

عـادَت إلى غرفتهـا تَسَـلُّلًا، أوصَـدت البـاب بإحْـكام، وجـدت القـط ينتظرهـا مُنْسَـدحًا كفتـاة ليـل حـين تسْـتَقطب المُتسـكِّع ليـلًا، ابْتَلَعـت ريقهـا بصعوبـة، اسـتلَّت السّـكين المُخَبَّـأ في سِرْوالهـا، جلسـت عـلى السَّريـر بجـوار القـط، رمقهـا الأخـير بنظـرةٍ مُنْتَشـيةٍ مُنْتَـصِرة، ففـي كِلا الحالتـيْن هـو مُنتـصرٌ، رفعـت السّـكين إلى أعـلى بقبضتيْهـا، ارتعـش سـائِر جسـدها، خصوصًـا سـاقيْها، بَـرْدًا وتوتُّـرًا ووَجَـلًا، أغْمَضـت عينيْهـا، ثـم في لمـح البـصر، هَـوَت بـه لتشـقّ بطـن القـط، عِـدَّة طعنـات سَـديدة، الـذي أصـدرَ بـدوره هسيسًـا كغَرْغَـرة تُـردَّد في الحلـق، انْتَزعـت أحشـاءه بيديْهـا؛ المِعـدة والأمْعـاء وبقايـا طعـامٍ لم يكتمـل هضْمُـه بعـد، كُلٌّ غـارقٌ في الـدِّم المُلَـوَّث بـدَرَنٍ أسْـوَدٍ كالطّـين، ثـم أخْرَجَـت الجوهْـرَة - كـمَا أخْبرتهـا الرسـالة -

وكانـت عِبـارة عـن قِـلادة صغـيرة صُمِّمَـت عـلى شـكل جوهـرة، لهَـا بابًـا داخليًّـا يُفْتَـح، أخرجـت مِنـه ورقـةً أخـرى، رِسـالة ثانيـة موجَّهـة لهَـا.

شـهقت كارولينـا، أمْعنـت التَّركيـز في تنـاول الخـطّ الصغـير الـذي كُتِـب عـلى الورقـة، ناجِـلًا ودَقيقًـا للغايـة يحتـاج لعدسـة مُكَـبّرة.. لكنَّهـا اسـتطاعَت تمييـز بعـض الكلـمات مِثـل «تهانينًـا!»، «المرحلـة الأولى»، «انتظـري»، «المرحلـة الثَّانيـة»، «أهْـلًا»، «مَعنـا»... «أهـلًا بـكِ معنـا»، «سـعيدٌ للغـ... للغايـة»..

إِمْضاء: مُخْلِصَة الوحش.

* * *

١٦

بعـد سـبع جلَسـات قضاهُـم الدّكتـور ميشـيل سَـعيد في حـضْرَة الفاتِنـة أسْرَار، أغلبهـا كان عـلى سريرهـا جالسًـا أمامهـا وهـي مُسْـتندة إلى الوسـادة، شـاحِبة الوجـه، شـارِدة العينـيْن، خـرج مـن الغرفـة بعـد سـاعة كاملـة، فوجَـد جمـع العائلـة ينْتظـره بالخـارج في طوابـير مُتَكدِّسـة، أعنـاق مَرْفوعـة، أعـينُ مُتَرقِّبـة. أغلـق البـاب وراءه، وأعْلَـن مُفْصِحًـا عـن ابتسـامة متصنّعـة أمامهـم ليتجنَّـب صَدْمَتهـم:

- «مُجـرَّد تَهيُّـؤات.. هلوسـة نابْعـة مـن الشَّـبكة القشريـة الـلي بتغطّـي مسـاحة كبـيرة مـن دماغهـا.. بـس بشـكل مفـرط شـويتين».

كان يعلـم أنَّ فمـه ذهبيًّـا بالنسـبة لهـم، لا ينطـق إلَّا بالحـق، لأنَّ رؤوسـهم لـن تفهـم ولـن تتكبَّـد عنـاء الفِهـم والبحـث عـن أي مصطلـح أو كلمـة غريبـة، صحيحـة كانـت أم خاطئـة أم مُدْرَجـة لَغْـوًا في وسـط الـكلام، يتلفَّـظ بِهـا. وهـذا مـا وجـده بالفعـل، وجـوه شـارِدة، لم تتلـقَّ سـوى «هلوسـة»، الأمـر الـذي دفـع بحَسَـن أن يصيـح مبْتَهجًـا:

- «مش قلتلكوا إنَّها مريضة!».

سألت السِّت رضوى الدكتور مرتبكةً:

- «طيب والعمل يا دَكْتُور؟ في أمل إنَّها تتعالِج؟».

طمأنَ الدكتور ميشيل السِّت رضوى قائلًا:

- «اتطمنـي حضرتـك.. إحنـا في طريقنـا للعـلاج خـلاص. طالَـما هلْوَسـة يبقـى الموضـوع بسـيط، إن شـاء اللـه».

وبعدمـا انفـرط الحشـد، وذهـب كُلٌّ إلى عملـه، اسـتفْرَدَ الدكتـور ميشـيل سـعيد بعَـم سَـعْد عـلى بَسْـطَة السّـلم، ووجدها فرصة مناسـبة ليخـبره بالحقيقـة، فهـو رجـلٌ عاقِـل، وسـيتفهَّم الأمـر بالطريقـة المُثْلى، اسـتطرد:

- «شـوف يـا عـم سَـعْد.. هـي فعـلًا بتعـاني مـن هَلْوسَـات واضحـة جـدًّا. أكـثر مـن مـرَّة بتشـاورلي عـلى حاجـات.. بتقـولي إن فيـه راجـل قاعِـد جنبـي وأنـا مـش شـايفه.. حَكيتـلي عـلى مواقـف كتـير بتحصلّهـا بالليـل وهـي نايمـة.. عـن الكوابيـس الـلي كلهـا بتتمحـور في راجـل غريـب بيطاردهـا وفي إيـده سـكّينة.. أطيـاف لخيـالات سـوداء بترقُـص قدَّامهـا (زي تمايـل وهـج الشّـموع) عـلى حـد وصْفَهَـا.. سـألتها كتـير عـن طفولتهـا ومرحلـة المراهقـة ومـين الـلي كانـوا وقتهـا صحابهـا.. كل مـا أفتـح معاهـا صنـدوق ذكرياتهـا، وشّـها يحمـر مـن كـتر مـا هـي بتحـاول تفتكـر أي مشـهد واحـد حتَّـى ومـش عارفـة.. ذكرياتهـا ممسـوحة بأسـتيكة! كإنَّهـا اتولـدت وهـي في السـن ده. في الجلسـة الرَّابعـة تحديـدًا.. في وسـط الـكلام لاقيـت عينيهـا حـادَّة جـدًّا.. كإنَّهـا شـوية وهتقـوم تاكلنـي، حرفيًّـا أنـا خُفـت مِنْهـا! لمَّـا ركّـزت شـوية في وشّـها.. رجـع لوضعـه الطبيعـي تـاني. اسـتنتجت إن ده بيكـون نتيجـة لعزلتهـا، وكرههـا لنفسـها وده لاحظتـه جـدًّا.. فمُمْكِـن تكـون بتتقمَّـص شـخصيات في خيالهـا بطريقـة اعتياديـة لا إراديـة وبترجـع تـاني. مـا خبّيـش عـلى حضرتـك يـا عَـم سَـعْد.. هـي بيبـدر مِنهـا حاجـات غريبـة أه.. وكلامهـا معظمـه ملغبـط.. بـس

شـهادة حـق.. البنـت سـليمة.. مافيهـاش أي مـرض يُذْكَـر! عقلهـا حـاضر جـدًّا.. ملامحهـا طبيعيـة جـدًّا.. مافيـش رعشـة في جسـمها.. مافيـش أي حاجـة بتوحـي إنَّهـا مريضـة نفسـية بمفهـوم «المـرض النفـسي البحـت»! مـش عـارف هـي ليـه بتعمـل كـده.. وليـه بتقـول الحاجـات دي.. بـس الـلي متأكـد منـه.. إنَّهـا أعْقَـل واحـدة اتكلمـت معاهـا في حيـاتي! دي حاجـة كان لازم أقولهـا لحضرتـك قبـل مـا أمـشي.. ربّي يحفظهـا!».

وهمَّ هابطًا السَّلالم.

انْعُقِـدت الصَّدْمـة عـلى وجـه عـم سَـعْد إذ يقـف مُتيبِّسًـا مُتَصنِّـمًا في مكانـه بلسـانٍ مُتجمّـد عـن الـكلام، مـا الـذي عنـاه الدكتـور ميشـيل بأنَّهـا الفتـاة الأكْـثر تعقُّـلًا؟ وإن كانـت بالفعـل لا تُعـاني مـن أمـراض نفسـيَّة «بحتـة»، فسـؤال الدكتـور، أيضًـا، لمـاذا تفعـل ذلـك؟ لِـمَ تدَّعي بِمـا ليـس فيهـا؟ هـل تجـذب الانتبـاه لشـعورها بالوحـدة.. هكـذا فقـط؟ إنَّ عـم سَـعْد يعـرف ابنتـه جيـدًا، ويعلـم أنَّ هـذه ليسـت طريقتهـا في لفـت الانتبـاه، إذن.. مـا الـذي يحـدث لهَـا ولا يسـتطيع أحـد تفسـيره.. إن كان عبـد الرحيـم وحَسَـن يُنْكِـران القـوى الخارقـة للطبيعـة؟

ولِـمَ ينبغـي عليـه إنـكار ذلـك؟ أليـس الجـان مذْكـورًا بالقـرآن؟ المـسّ؟ السـحر؟ الحسـد؟ كل الأدلّـة تُشـير إلى شيءٍ مـن هـذه الأشـياء.. فعـلامَ الإنـكار؟

ظـلَّ واقفًـا حائـرًا مكانـه، حتَّـى انتزعتـه السِّـت رضـوى مـن شروده واسـتغراقه في تفكـيرٍ عميـق بقولهـا:

- «مالَك يا حج واقف كده؟ هو الدَّكْتُور قالَّك حاجة؟».

أسرَّ عـم سَـعْد حيرتـه في قلبـه، وإن لم يسـتطع إخفاءهـا مـن صفحـة وجهـه الشَّـاحبة كجبـل أشـيب، ومـن عينيْـه اللَّتـين تـكادان تُذْرِفـان دمعًـا. اكتفـى بـأن أومـأ لهـا برأسـه أن كل شيء عـلى مـا يُـرَام، نوعًـا مـا. زَفَـر باجهـاد. أغلـق البـاب وتوجّـه إلى غرفـة أسْرَار، إذ ربمـا تُريـد أن تتحـدَّث مـع أحـد ولا تجـد مَـن يُحدّثهـا مثـل أبيهـا الحنـون. إنَّـه سـيتحدَّث مَعَهـا للمـرَّة الأولى في حياتـه، وللمـرَّة الأولى، كذلـك، التـي يهتـم بهـا، ويشـدُّ حِبـال الوصـال بينهـما. هـو الـذي لم يكـن يعبـأ بأمرهـا، مـاذا تفعـل في غرفتهـا طـوال اليـوم وحيـدةً، ومـا تشـعرُ بـه، ومـا هـي المشـكلات التـي طفقـت تواجههـا في حياتهـا منـذ أن رأت حلقـة الشّـيخ في التلفزيـون وإرْسَـاله أهـل الكتـاب إلى الجحيـم قـولًا واحـدًا غـير قابـل للاسـتئناف أو الطَّعـن، وبعـد أن اتَّخـذت خِتـام، الطفلـة المُشَـوَّهٌ وجههـا، صاحبـةً لهَـا، التـي يبـدو لهـذه الأخـيرة أنَّهـا قـد أُجْتُثَّـت مـن شِـعاب ذكرياتهـا بطريقـةٍ مـا أو بأخـرى، فـلا تسـتطيع تذكُّـر هـذه الفـترة مـن حياتهـا، كُليًّـا!

مـا إن دلـف إلى حجرتهـا، حتَّـى تذكَّـر المشـهد المريـع الـذي رأه حـين دخـل الجميـع عليهـا قبـل ثـلاث أشـهر مـن الآن: تقـف عـلى كُـرسيٍّ خشـبيٍّ بثقلهـا ويلتـفُّ حبـلٌ -لم يعـرف أحـد، أبـدًا، مـن أيـن أتـت بـه- حـول عنقهـا، وقـد أوشـكت أن تدفـع بقدمهـا الكـرسي لينـزاح مـن تحتهـا أرضًـا، لـولا أنَّهـم أنْقذوهـا قبـل فـوات الأوان وفي الثَّانيـة المناسـبة. حاولـت السِّـت رضـوى التَّفاهُـم معهـا، لاحقًـا، فيـما اقترفتـه مـن جُـرمٍ في حـق نَفْسـها، والدَّافـع لجعلهـا تُقـدم عـلى فعلـةٍ كهـذه، لكنَّهـا لم تُجِبْهـا أبـدًا، سـوى بنظـرات وجـدَ فيهـا عـم سَـعْد اسـتغاثة واضحـة مَكْظومـة بداخلهـا، وهـي نفـس الاسـتغاثة التـي يراهـا الآن في عينيْهـا، إذ يجلـس عنـد طـرف قدميْهـا عـلى السّريـر، كأنَّهـا مُقَيَّـدة في داخلهـا، محبوسـة وراء قِنـاع مُشَـيَّد

مـن الأسـمنت والحديـد، يُحْكِـم قبضتـه عـلى وجههـا ويُجافيهـا راحـة التَّنفُّـس ويخنقهـا عـلى الـدَّوام.

ربّـت عـم سَـعد عـلى سَـاق ابنتـه المُمَـدَّدة بجمـود كلـوح خشـب، أطـالَ النَّظـر إلى وجههـا، غَـرق في تَفاصيـل عينيْهـا المسْـتغيثتيْن من شيءٍ مـا يسْـتعصي عـلى فِهمـه، ولـو أنَّـه فقـط يعرفـه لمَـا تأخَّـر عـن مـدّ يـد العـون. بـدت قُزَحيَّـة العـين سـوداء مائلـة للتوهُّـج، والصُّلْبَـة يقطعهـا عـدَّة خيـوط بلـون النّبيـذ مُتقطِّعـة، يـزداد التهابهـا عنـد الجـزء المبطَّـن للجفـن، كـمَا اتَّسـع البؤبـؤ بطريقـة إعْجَازيـة.. ينْفَـرج وينْقَبـض كل ثلاثـة عـشر ثانيـة عـلى وجـه الدّقـة. بَشْرتهـا شـاحِبة وجِلْدهـا خشـن ومُتقـشِّر وعِظامهـا هزيلـة كالعـصي يكْسـوها لحـمًا غثًّـا، صدْرهـا يعلـو ويهبـط كعلامـة عـلى أنَّهـا لازالـت عـلى قيـد الحيـاة، كذلـك لاحَـظ ارتعـاش شـفتيْها بصـورة مَلْحوظـة، تحـاول التَّلفُّـظ بـشيءٍ مـا لكنَّهـا عاجـزة تمامًـا؛ إذ لا تجـد أحبـالًا صوتيَّـة للعمـل أصـلًا!

انهمـرت الدُّمـوع مـن عينيْـه وهـو يتأمّلهـا بحـزنٍ لا حـدَّ لـه، وشرع يُحدّثهـا، أو بالأحـرى: يُحـدِّث صنـمًا جالسًـا في مكانـه خفـيرًا، لا يريـم بـه ولا يتحـرَّك أدنى حركـة:

- «أسْرَار، يـا بنتـي... مالِـك بـس؟ قوليـلي طيـب.. فيـكي إيـه وأنـا أسـاعِدك. أنـا بابـا يـا أسْرَار.. وماحـدش هيقـدر يسـاعِدك قـد بابـا. الدّكتـور قـال إنِّـك سَـليمة ومـش عيَّانـة.. وده طمِّـن قلبـي وبـثّ فيَّـا الأمـل إنِّـك الحمـد للـه رب العالمـين بخـير وفيـه فرصـة نفضفـض مـع بعـض. باللـه عليـكي، وحيـاة أغـلى حاجـة عنـدِك يـا حبيبتـي ردّي عليَّـا!! طمّنـي قلبـي وقـولي أي حاجـة.. أرجـو...».

ششششششششششششششششش

قطعت حديثه اليائس بهذا الصّوت من شفتيْها، تحوَّل وجهها بأكمله إلى الصَّرامة، واحتدَّت نظراتها كثيرًا، فبدتا أكثر تحدِّيًا وقساوةً. تغيَّرت نبرة صوتها شيئًا فشيئًا إذ خرج بطريقة مفاجئة..

- سارة كان نِفْسَها تلْعَب...

بتلقائية سألها أبوها بدهشةٍ:

- «سارة؟ سارة مين؟!».

ضاقَت حدقتيْها، واحتدَّتا أكثر..

- سارة نِفْسَها ترتاح. سارة تتعذِّب.

لم يكن هذا صوتها. لم يكن مُرْعِبًا ولا ضَخْمًا غليظًا، بل البراءة تُخضّب نبْرته فكأنَّها قد عادَت طفلةً صغيرةً ولكن بوجه لا يمتّ لها بصلة!

لم يستطع عم سَعْد إلَّا أن يشعر بحرارة جسدي السِّت رضوى وأماني يقفان خلفه دون أن يلتفت إليهما، فقد كان يحاول استيعاب ما تتفوَّه به ابنته.. التي لا يوجد أي دليل سوى أن يقول إنَّها ابنته..

تسائلت أماني، وقد ملأ الخوف عينيْها:

- «سارة مين يا أسْرَار!؟».

رفعت أسْرَار عينيْها إلى أماني ببطءٍ شديد ارتاعَت له، أطالَت النَّظر إليها دون أن تنبس بشفة، رمقت أمّها بحذر، بتشكُّكٍ غريب، كأنَّها المرَّة الأولى التي تراها فيها، عادَت تُحدِّق في عم سَعْد نفس

ذات التَّحديقة المستغيثة، أرْخَت سدولها إلى الفِراش ومعها أطْرَقت رأسها، ثم لم تلبث أن انفجرت في البكاء.. تبعها سيلٌ مَريرٌ من النَّهْنَهة كالأطفال، ولا تُردّد معها سوى «سارة نِفْسها ترتاح.. سارة تتعذَّب!!». لاحَظ الجميع أنَّ صوتها قد بدأ يعود لوضعه الطبيعي مع انهمار دموعها وازديادها في البكاء.. ولكن ما إن دَنَا مِنها عم سَعْد ليضُمَّها إلى صدره، حتَّى تغيَّر كُليًّا إلى صرخة ثائرة مباغتة، فأصبح ضخمًا مُقعَّرًا يتردَّد صداه عاليًا بأرجاء الغرفة:

- «ابعد عنّيييييييييييي!!!!!!!!!!!!!!!».

ثم دفعته بيديْن قويَّتيْن صَلْبتيْن إلى الوراء فهوى على ظهره أرضًا، مُحدثًا ارتطامًا مدويًا ألمَ سائر جسده. صرخت أماني بفزع عندما انفجرت لَمْبَة الغرفة من تلقاء نفْسها.. وغرقت الغرفة في ظلامٍ حالِك.. وتصاعَد معه أصوات صراخ لأُناسٍ كُثرٍ تتعذَّب وتأنُّ ألمًا وتوجُّعًا!

* * *

ارتقَت المرأة السَّلالِم، سَريعًا، بعباءتها الفاحِمة الملتصقة لَفًّا حول عودها المَنْحوت بتمرُّس خالِق أحْسَن صنيعته وأتْقَن في هَنْدسة تضاريسه اتقانًا مُتَفانيًا، تحمل كيسًا أسودًا مُنْتَفِخًا بيدها، وتعدل نِقابها إذ ترتقي السّلالم بيدها الأخرى. بدا على وجهها الرَّبْكة، وعدم الاتزان في عينيْها العسليَّتيْن. أنْفاسها تخرج من منْخريْها متقطّعة، والرّيق يُبْتَلَع باستمرار. وصلت إلى الشَّقة، أطرقت ثلاثة طرقات بطريقة مُعيَّنة على الباب، فتحت لهَا عبير أُمُّ ربيع بعد دقيقة من وقوفها أمام الباب، أسْرَعت في إدخالها بسرعة قبل أن تتأكَّد من خلو السّلم من

أي عيون مُتسلِّطة.

أغلقت الباب بسرعة.

- «حد شافِك؟!!».

خلعت المرأة نِقابها بسرعة..

- «زي الرّيشة في الهواء..».

سحبت عبير كرسيًّا وأجلست نَفْسها..

- «إيه الحكاية؟».

ألْقَت المرأة بالكيس على إحدى الطَّاولات في الصَّالة، واستطردت:

- «عاوزين كمّية أكبر..».

صاحَت فيها عبير مُحْتَجَّةً:

- «هو إيه ده اللي عاوزين كمّية أكبر! ده أنا طلع عيني في الرَّاجل الحَلُّوف ده!!».

التفتت إليها المرأة بوجهها ناصع البياض، الغريب تمامًا عن أشْكال وجوه الفِرياني، وقالَت بملئ فيْها:

- «يا ختشي أنا روحتلهم وعرضت عليهم البووضَاعَة زي ما قلتيلي بالظبط.. الراجل الكُوبَّارة اللي هِناك ده بصّ عليهم بصّة وقالي إنَّها ما تنفعش معاهم..».

- «إهِّيي! كل مرَّة بيكفّيهم راجل أو سِت.. التعليمات كانت واضحة: أطفال لأ. أعمل إيه تاني!!».

- «والله يا أمُّ ربيع ما عارفة أقولّك إيه... شوفيليك طلعة النَّهاردة يمكن تصيب.. بدل ما يزعلوا مِنّك ودول زعلهم وحش.. أه!».

السِّر وراء عبير أُمُّ ربيع لم يكن في خدمتها لهؤلاء الأغراب، بل قبع في الدَّافع الذي يجعلها تخدم هؤلاء وتفعل مثل هذه الجرائم لإرضاءهم بهذه الطريقة المفجعة! إنَّها لا تفعل شيئًا سوى أن تلعب دور القنَّاص ليلًا، تصطاد ما يروق لهَا من الأحياء، ذكورًا أو إناثًا، لا فارق، فالكل يفي بالغرض، تذهب بهم إلى بيتها بعدما تستدرجهم بكافَّة الألاعيب والفخاخ، ومن ثَم تسلخ جلودهم وأرواحهم ما تزال تنسري بين عروقهم، تُقطّع لحومهم وتبتر أطرافهم وتُقطّعهم إربًا، ثم تحتفظ بهم في أكياس سوداء تعطيها لهذه المرأة الغريبة عن الحارة المُنَقَّبة دائمًا، وتذهب بها إليهم. في كل مرَّة كانت تبعث لهَا المرأة برسالة الرِّضا من قِبلهم، لكن هذه المرَّة قد طلبوا فيها «زيادة».. غير معلوم مِقدار هذه «الزيادة»، هل يكفي فردًا أو فَرْديْن أو لفيف من النَّاس لا حصر لهم؟ ما الذي يضطر إمرأة أربعينية جميلة مثلها في اقحام نفسها في هذه اللُّعبة الشَّنعاء؟ ومَن هُم هؤلاء الأغراب؟

هي نَفْسها لا تعرفهم.. ولم ترهم في حياتي قط!

قالَت راضخةً:

- «طيب خلاص.. أنا هتصرَّف».

* * *

١٧

تفـرَّس الأمـوات بغـلٍّ رجـلًا متوسِّـط الطـول يحمـل كيسًـا كبـيرًا أسـودًا، يرتـدي جِلْبَابًـا رماديًـا، إذ يقـود امْـرأة إلى شـاهِد القـبر المَعْنـي، وقـد كُتِـبَ عـلى بابـه الصّـدئ «صـلاح الدّيـن جميـل». مثَّلـت اهتـزازات المصبـاح المتراقِصـة في فضـاءٍ مبْلـوعٍ بعتمـة قاتِمـة وقابِضـة للأنْفُـسِ عـلى شـاهِد القـبر أشـكالًا ووجوهًـا مختلفـة غاضِبـة تُحـدِّق فيهـا؛ تلـك الوجـوه التـي جـرَّدت أرواحهـا مـن أجسـادها وسَـلْخت كياناتهـم سَـلْخًا وحرمتهـم مـن أزواجهـم وأبناءهـم الذيـن جابـوا الأمصـار وقطعـوا القِفـار بحثًـا عـن أبـاءٍ لـن يعـودوا أبـدًا. كلـبٌ أسـودٌ وقَـف عـلى بُعـد ثلاثـة أمتـار مـن قدميْهـا، يزمجـر بشراسـة مُقْذعـة كمحـرِّك سـيارة نصـف نقـل، قِطَّـةٌ تمـوءٌ زجـرًا بأفُـقِ الظَّـلام اللَّا مُـتناه، وأمـواتٌ يرقـدون في قبورهـم أحيـاءًا مُتربّصـون لهـؤلاء العابثـون ليـلًا بزهـوٍ وبـلا اكـتراث.

ارتفـع القمـر في سـماء داكِنـة كميـاه عكـرة، بينـما وصـل بهـا الرجـل إلى فنـاءٍ صغـيرٍ مُعفَّـر بالـتُّرَاب ويكْثُـر بـورودٍ ذابلـة عـلى جانبيْـه، أخرج سلسـلة مَفاتيـح مـن جيبـه وفَرَزهـا بأناملهـا عـلى وهـج المصبـاح لينْتَقـي مِنهـا المفتـاح الخـاص بقـبر صـلاح الديـن جميـل، قـالَ وهـو يـدسُّ المفتـاح بالبـاب:

- «فِرش.. طازَّة، يا سِت هانِم!».

ابتلعت عبير أُمُّ ربيع ريقها، واسْتَعْجَلته وساقيْها يرتعدان قلقًا وخوفًا:

- «وحياة عيالِك اخلص!!».

طقطقة الباب، أزيزه المنفر إذ يُفْتَح، كان كفيلًا بأن يجعل عبير أُمُّ ربيع تُعيد النَّظر في هذه الفِكرة وتُعرض عنها تمامًا. الجو خانق ومُقْبض، ورائحة التُّراب مُعانِقة لرائحة الميّت حديثًا، لم تكد آخر قدم أن تَرْحَل عن قبره حتَّى أحْضَرت عبير التُّربي ودسَّت في جيبه ألفين وخمسمائة جنيه ليقوم بهذه المُهِمَّة من أجلها. لم تُطْلِعه على خِطَّتها وماذا ستفعل بهذه الجُثَّة، اكتفت بإعلامه أنَّها في أمسّ الحاجة إلى جُثَّة لا تزال طازجة للضرورة القصوى. ولم يحاول التُّربي الاستفهام أو السُّؤال.. فيكفي أنَّه سيدخل على بيته ومعه هذا الكم الوفير من المَال!

نزلَ الرَّجل على سَلالِم طويلة تؤدي لحجرةٍ سُفْليَّةٍ مُغلَّفة بنفحاتٍ ساخِنة اعترضت طريق عبير وألْقَت في قلبها رُعْبًا وقبضةً وخنقةً أوْحَت لهَا بأنَّ الرَّجل حين سيمضي بالحجرة سيتفاجئا باستقبال الجُثَّة لَهُمَا وستقوم بكافَّة أصول الضّيافة والكرم الذي تستحقّه امرأة مِثْلها. المِصْباح طَفَق فتيله يرْتَعش شيئًا فشيئًا ويدنو من أجله، ولذا فقد سارَع الرَّجل بإحضار الجُثَّة من قلب الحجرة، بعدما أشارَ لهَا أن تنتظره على السّلم إن أرادت ذلك.

مرَّت دقائق طويلة على عبير أُمُّ ربيع وهي تنتظر الرَّجل أن يأتي، ألم يتأخَّر أكثر من اللَّازم؟ عصفت بِها كافَّة الأفكار السَّوداويَّة المرعبة وكل القصص الظَّلامية التي سمعتها طوال حياتها وأساطير الفِرياني،

تتجسَّـد أمامهـا دفعـةً واحـدةً فتُخيِّـل لهَـا الجـدران تنضـحُ بأُنـاسٍ يمـدُّون أياديهـم ويُحاولـون الخـروج والإمسـاك بِهـا لاغتصابهـا!

- «ما تخلَص يا عمّنا بقى!».

هتفت له، مرتعشٌ جسدها، مُهتزٌّ صوتها.

عـادَ الرَّجـل بعـد ربـع سـاعة كاملـة قضتهـم عبـير في كابـوسٍ مُحيـطٍ لـن تـراهُ أبـدًا في منامهـا، يحمـل عـلى كتفـه جُثَّـة صـلاح الديـن جميـل، بكفنـه، مَلْفوفًـا بالكيـس الأسـود الفسـيح، يسْـعَل مـن فـرط خنقـة الحجـرة وخلاءهـا مـن أي نَسَـمة تُنْعِـش الرّئتـيْن. أخبرهـا أنَّـه قـد اقـترف جريمـةً شرعيَّـةً في حـق الملكـيْن وهُـما يسـئلان صـلاح الديـن، لكـن الأمـر يكـون ممتعًـا للغايـة إن كنـت لا تعـترف بهـذا الحديـث ولا بعـذاب القـبر!

الطريـق إلى العربـة المسـتأجرة (ميكروبـاص) اسْـتلْزمه صيـاح الكِلاب وتأوُّهـات القطـط بـين شـواهِد القبـور الغاضِبـة لصديقهـم المنْهـوب، لم تشـعر عبـير أُمُّ ربيـع، أبـدًا، بالنَّـدم عـلى قيامهـا بهـذه السّرقـة، ولا بالجرائـم السَّـابقة في حـق الضَّحايـا، فالأمـر يتطلَّـب أكـثر مـن ذلـك، ويسـتحق الاجتهـاد لبلوغـه. وضـع الرَّجـل الجُثَّـة بالكنبـة الخلفيـة للميكروبـاص، شـكرته عبـير باقتضـاب، جلسـت بجـوار السَّـائق وقـد أحسَّـت ببعـض الآمـان بعـد خروجهـا مـن المدافِـن، وانطلـق السَّـائق أخـيرًا، مُخلِّفًـا وراءه رجـلًا تطـارده الأرواح الهائمـة المفترسـة.

شَقَّت صراخاته الأليمة المستغيثة جنح اللَّيل..

* * *

اسـتقرَّ الميكروبـاص أمـام مَدْخَـل جانبـي للحـارة، يطـلُّ عـلى الخرابـة

مُباشرةً، يتحاشاه الجميع ويعتبروه مَلْعونًا طِبْقًا لحكاياتهم حول ما يحدث به من حالات اختطاف وجرائم قتل سحيقة الزَّمن. حمل رجلان بدينان الجُثَّة وساروا خلف عبير أُمُّ ربيع إلى مَدْخَل الخرابة المنزوي بين ركام القمامة والدِّماء. وضعوها على الأرض، سَعِدوا بالمبلغ، همُّوا بالانصراف وعلى وجْهيْهما ابتسامة رضا.

انتظرت أمام الخرابة طويلًا، الصَّمت يشقُّ الآذان، ويقذف الهول في الصُّدور. الوقوف أمام مَنْبَع الشُّرور لهو أمرٌ جللٌ، كأنَّكَ تقف في حضرة ملَك عاتٍ وفي غياهبكِ تعلم أنَّه سيفْتك بجمجمتك في أي وقت، مُتَرقِّبًا، مُتوجِّسًا، مرتعشًا أمام أكوام القمامة المتكدّسة صعودًا على سلم يؤدي لأعلى، حيث يظهر شبح لرجلٍ ما مُبْهَم الهيئة، لا ظلَّ له على الحائط، يقف مُتَمعِّنًا فيك دقائق كاملة تتسرَّب فيها الدَّم من عروقك، وتتجمَّد خلاياكَ رهْبةً ووجلًا، ثم يتقدَّم إليكَ بخطى وئيدة بطيئة تشلُّ حركتك، وتدفع قلبك للخفقان بصوتٍ مسموع كقرع طبول الحرب، تتَّضح هيئته تِباعًا مع اقترابه مِنك، هبوطًا، فتجده رجلًا كهلًا أضَنَّته الشَّيوخة، يتَّكئ على عصا أبَنُوسيَّة مَتينة أطْوَل من قامته المُحدَّبة كالقوس، له ملامح أعْجمية، لحية بيضاء مستدقَّة، تجاعيد تنخر وتبرز عِظام الوجه، يرتدي أسمالًا بالية واسعة ذي أكمامٍ فسيحة للغاية، يدنو منك ويتشمَّمَكَ كحيوان من رأسكَ إلى أخمص قدميْك.

الأمر ليس في ذلك الرجل -إذا اعتبرناه رجلًا- ولكن في ذلك الماعز الذي يقف مُنْتَصِبًا على أربع بجواره، ولا يفعل شيئًا سوى الابتسام لكَ في تحدٍّ مُذْكِر! يكسوه فِراء أسود كثيف للغاية، وينتصب من رأسه الكبير قرنيْن مقعَّريْن طويلين يصلان إلى ظهره.

هــمَّ الماعِــز يتفحَّــص الجُثَّــة بفمــه، كشــف عنهــا وتنسَّــم مــن رائحتهــا الفوَّاحــة، عــادَ بقوامــه الهائــل إلى الــوراء وأعلــن عــن رضــاه بُثغــاءٍ مُــدويٍّ بمثابــة الإشــارة بــأن يقبــض الكهــل عــلى الجُثَّــة ويجرُّهــا وراءه صاعِــدًا الخرابــة.

استوقفته عبير أُمُّ ربيع بصياحها، في نفاذ صبر:

- «ابني؟؟!!».

ولَّاها الكهل ظهره.. ولم يعرها أدنى اهتمام.

* * *

١٨

لم يكـن أبوهـا فظًّـا غليظًـا إلى هـذا الحـد الـذي يسـتدعي كل هـذا الكُـرْه الـذي تُكِنّـه لـه لمنعهـا مـن الخـروج والتَّجـوُّل في الغابـة كـمَا يحلـو لهـا، ولم تـرهُ يومًـا يُهينهـا أو يضربهـا إلَّا إذا تطلَّـب الأمـر ذلـك لفداحتـه. كان معروفًـا أنَّـه يُقـدِّس القوانـين الـذي وضعهـا في البيـت، يحـرص كل الحـرص عـلى إقامـة الصَّلـوات العائليـة اليوميـة بانتظـام كسـيورة الطَّعـام والـشَّراب، ويمْقُـت كثـيرًا التَّمـرُّد والثَّـورة عـلى هـذه القوانـين؛ إذ رأى أنَّ سـعادة العائلـة تتمخَّـض مـن احـترام هـذه القوانـين، المنزليـة والدينيـة، ولـن تسـمح لأحـد بالتأثـير عليهـم، سـلبًا أو إيجابًـا.

وكانـت كارولينـا، ذو العـشر سـنوات، مُتأثِّـرة بأفْـكار المـرأة ذات الشَّـعر الأحمـر، ومـا دسّـته في عقلهـا مـن سُـموم حـول فَلْسـفة الحيـاة والأديـان ودورهـا كفتـاة طفلـة في هـذا الكـون، تأثُّـرًا مُحْكـمًا. ولـولا أنَّهـا، بالفعـل، كانـت لا تـزال في ريـبٍ مـن أمرهـا، لَـمَا انصاعَـت للأمـر ونجحـت في الاختبـار وبَقَـرت بطـن القِـط الأسـود!

كان هـذا الاختبـار بمثابـة التَّمهيـد لعـدَّة اختبـارات تاليـة اجتازتهـم كارولينـا بنجـاح سـاحق. ففـي المـرَّة التاليـة، وبعـد مرور عـشرة أيام من واقعـة القـط، أرْسَـلت لهَا المرأة عصفـورًا حطَّ على نافـذة غرفتها، يحمل بقدمـه رسـالةً موجَّهـةً لهَا، احتفظـت به وهمَّـت بتناول الرسـالة، كانت عبـارة عـن تعليـمات آمِـرة تقـوم بهـا كارولينـا لاجتيـاز الاختبـار. أُمِـرَت

بـأن تذبـح العصفـور وتصـبُّ جـام دمـاءه في وعـاءٍ يُتْـلى عليـه التَّعزيمـة الإبليسـية -الآنِـف ذكرهـا في فصـلٍ سـابقٍ- ومـن ثَـمَّ تتجرَّعـه دفعـةً واحـدة فينـسري أثَـرهُ بصدرهـا، عقلهـا، كيانهـا، ثـم روحهـا. وكانـت قِطَّـة هـي مَـن تُراقِبهـا وتُرْسِـل للمـرأة كل تفاصيـل الاختبـار، إن أُعْتُـبِرَت أنَّهـا بالفعـل تنْـدرج تحـت فصيلـة «الهريـات».

تـلاهُ اختبـارًا أخـر، أُمِـرَت فيـه بالإمسـاك بصليبهـا مَعْقوفًـا (أي مقلوبًـا رأسًـا عـلى عقـب) وتُرتِّـل عليـه بعـض التَّعزيمـات والطَّلاسِـم المُتعدّيـة، أصـلًا وفصـلًا، عـلى تعاليـم المسـيح، والمتطاولـة كُليًّـا عـلى الـذَّات الإلهيـة، والمُمَجِّـدة فيـما أطْلَقَـت عليـه المـرأة في الرّسـالة بـ «الوحـش». لم تعـرف أبـدًا كارولينـا مـا هـو ذلـك الوحـش ولا ماهيَّتـه، كل مـا عرفتـه -بنـصّ كلام المـرأة- أنَّ كل مـا تقـوم بـه يُرْضيـه.. وإن نجحـت في كافَّـة الاختبـارات فسـتحظى بـشرف مقابلتـه شـخصيًّا، وهي ميـزة لا تلحـق سـوى بالنُّبَغـاء أمْثالهـا.. ومـن ثَـمَّ سـتنفتَّح عليهـا كل أسْرَار الوجـود كتفتُّـح الـورد، وسـتصبح «إلهـة عـلى الأرض» غـير قابلـة للـردع.

صرخـات طفـلٌ في الحـمَّام، انقطـاع الكهربـاء عـن البيـت عـلى الـدَّوام، همسـاتٌ لأُنـاسٍ يتحدَّثـون، أنـينٌ لآخـرون يتعذَّبـون، رؤيـة الأم لأطيـاف هلاميـة تومـضُ سريعًـا ثـم يختفـي أثرهـا، تبعْـثُر موجـات المذيـاع مـن تلقـاء نفسـه وتغـيُّر الأصـوات بداخلـه، بقـي سِرًّا نَهَـب فضـول الأب ودفعـه لإلقـاءه في سـلَّة المهمـلات بعـد محـاولات عديـدة لإصلاحـه بـاءت جميعهـا بالفشـل، رؤيـة كارولينـا لكوابيـس مُريعـة، تنْتَهـي دائمًـا بزيـارة جدَّتهـا الميّتـة قبـل خمسـة عـشر عامًـا لهـا وتُحذِّرهـا مِـمَّا هـي مُقبلـة عليـه.. «لا تنسـاقي إلى الوحـش.. لا تنسـاقِي إليـه يـا بُنَيَّتـي!»، لكنَّهـا لم تعبـأ أبـدًا بتحذيرهـا وضربتـه عـرض الحائـط. أيضًـا زارَهـم، في يـومٍ مـا، صديقًـا

قديمًا للأب، وقضى معهم النَّهار بطوله، لاحَظَت كارولينا أنَّه يجلس في غير راحة، تنْكمش أنفه اشمئزازًا من رائحةٍ ما لا يشمّها سواه، تدور عيناهُ تِجوالًا بالصَّالة باحثًا عن شيء ما لَفَت انتباهه، وحين حانَت لحظة خروجه من البيت، حذَّر الأب بوجود شيء ما ليس على ما يُرَام يجري هُنا، وأنَّه ينبغي التَّقصّي وراءه بأقصى سُرعة.. ورحل دون أن يُلْقي التَّحية على أهل البيت.

- «ألَم يحن الوقت بعد لتعفو عنّي، يا أبي العزيز؟».

التفت لهَا أبوها، وقال:

- أخْشَى أنَّني سأُسامحكِ.. فلقد طالَت العقوبة، وأرى فيكِ تحسُّنًا مَلْحوظًا في الأونة الأخيرة. لكن عِديني ألَّا تذهبي إلى الغابة.. فهي خطرة للغاية!».

قبَّلَت خدّه في تملُّق، وعاهدته بُهتانًا:

- «أَعِدُكَ يا أبي الغالي!».

وانطلقت إلى الغابة وهو نائم في نفس ذات الليلة. كانت تعرف طريقها جيدًا إلى كوخ هذه المرأة العجيبة، وقد ارتدت ثوبًا أبيضًا فضفاضًا كتنُّورة على جسدها الهزيل، تقفز سعيدةً كمَن يرى حلمه قد صار واقعًا؛ حلم الوصول إلى «الوحش».. وتَرْقيتها إلى مرتبةً أعلى لتتطلع على ما لم تتطلع عليه من قبل!

لمَّا رأتها المرأة، أفْصَحت عن ابتسامةً مُنْتَصرةً، وهَتَفت بينما كانت تُعانِقها:

- «هذه هي تِلْميذتي الفذَّة!».

دارَ حـوارًا طويـلًا بينهـما، قصَّـت فيـه كارولينـا كل شيء حـدث معهـا في البيـت، ابتـداءً مـن حبـس أبوهـا لهَـا، مـرورًا بالاختبـارات، وحتَّـى لحظـة جلوسـها معهـا الآن. فاسـتطردت المـرأة بمـا أسرَّهـا كثـيرًا:

- «لقـد بَلَغنـا المرحلـة الأخـيرة قبـل تَرْقيتـكِ لمقابلـة الوحـش.. هـل أنـتِ مسـتعدة لهَـا، يـا صغـيرتي؟».

بلهفةٍ صاحَت كارولينا:

- «أجل أجل! بالطَّبع! أنا في أتمّ الاستعداد!».

أومـأت لهَـا المـرأة برأسـها، ووقفـت مـن جلسـتها وعيناهـا لا تـزالان مُثَبَّتتـان نحـو كارولينـا، اسـتغرق صمتهـا لدقيقـة كاملـة، بعدهـا قالَـت:

- «ابقِ هُنا الليلة.. واتركِ لنَا أمر والديكِ».

* * *

١٩

رحلـةٌ لا تُضاهَـى، مُنْفَـردةٌ بذاتهـا، تجـوب أمْصـارًا لا تخطُـر عـلى بـالِ إنسـان، تحمـل في ثَنايَاهـا مُتْعَـةً منقطعـة النَّظـير، مُتْعَـةٌ مُطْلَقـة لا تخبـو كانتفـاء شـهوةٍ، بـل تـدُومُ طويـلًا، وربمـا إلى أبـدَ الآبديـن، رحلـةٌ يتشـذَّى الزَّمـنُ عِنـد خطوطهـا، تَـرَى فيهـا المَحْجـوب، وتُنصِـت إلى المُحـرَّم، وتتحـس بِمـا لم تتحسَّسـه شُـعيراتِك الحسّـية مـن قبـل؛ مَلْمَـس الأحيـاء في عوالمهـم الرَّحبـة، والأرواح الهُيَّـام بـين عالمـي الدُّنيـا والبَرْزَخ. فلتتريَّـث ولتَتَـأنَّ انتقـاء الـرّوح الهُيَّـام، فإمَّـا أن تُصيـب روحًـا هائمـة بالخـيرات.. أو تتعـثَّر في أخـرى تهيـمُ الـشُّرور!

أهلًا بِكَ في طاولة «كراولي» المُقَدَّسة!

كان لوحًـا خشـبيًّا مَصْقـولًا، وضعتـه خِتـام عـلى الأرض في غُرْفَـةٍ مُظْلِمـةٍ لا تُضيئهـا سـوى سِـتَّة شـموع وضِعَـت بأرجـاء المنـزل، رُسِـمَ عليـه بالطَّباشـير السَّـوداء مُرَبَّـع بطـول الغرفـة، نُقِـشَ عـلى حوافـه رمـوزًا مُبْهَمـةً تتُاخِـم في تشـابهها الفِرْعونيـة، ثـم نِجْمـة سُداسـيَّة كبـيرة تشـير رؤوسـها إلى رمـوز مَعْنِيَّـة مـن الحـروف المَنْقوشـة، رُسِـمَ في بَطْنهـا الطَّلْسَـم المَنْشـود: مُسْـتَطيل ٣×٤ كُتِـب بداخلـه الطَّلْسَـم بنفـس تلـك الرُّمـوز المُبْهَمـة، كـمَا وزِّعَـت أشـكال هَنْدَسـية مختلفـة بمواضِـع مَدْروسـة بالنّجمـة تحـوي طلاسِـم أخـرى تخـصُّ عوالِـم غـير مَعْنيـة في هـذه الجلسـة.

لم أشعرُ بهذا القدر من الحَمَاس كمَا الآن. إنَّني أقف على شفير التَّواصُل مع أرواحٍ وعوالمٍ أخرى قد أجدُ بإحداها ضالَّتي وإجابةً عن شَغَفي وحيرَتي. قد لا تُصدِّق ما أرويه لَكْ، أعرف، فالأمر يبدو جنونيًّا وأقْرَب للعَتَه، لكنَّك لن تستمر في التَّشكيك في قِصَّتي حين تدخُل دائرةً حقيقية، وتُرَتِّل طلاسِمًا لن تجدها أبدًا في قِصَص الرُّعب ولا على الانترنت، حينما يبزغ أمامَك شبحٌ لن تجرؤ على نَعْته بلفظ «شبح».. فالوصف نَفْسه أعتبره فُكاهيًّا، وأبدًا لا يُعبِّر عن حقيقة ما سيتراءى لَك أمام سريرَك ليلًا ويتفرَّس في وجهك النَّاعِس دون نيّة للانصراف!

كان الهدف من وراء هذه اللُّعبة، صراحةً، هو استدعاء روحًا هائمة بالخير من بين العديد من الأرواح الهُيام، فتساعِدنا في مَنْشَدِنا وما أصْبو إليه أنا تحديدًا. ولا أخفي عليكَ سِرًّا أنَّني، بجانب هذا الهدف السَّاذج، غمرني وغلَّفني، حينها، دافع الفضول، والخوض في الأشياء الغامضة كمَا يحدث في قصص وأفلام الرُّعب. ولكن بخلاف مُسمَّى «القصص».. أنتَ الآن في الواقع الفِعلي.. بطل قِصَّتكِ أنت، ومُجْبرٌ على مجابهة ما يُريدكَ هالِكًا ومُنصاعًا له تمامًا. بدا الأمر مُسَلِّيًا حقًّا. ولكن.. حدث ما لم أتوقَّعه أبدًا!

جلسنا قبالة بعضنا البعض، أنا على إحدى حواف رؤوس النجمة، وختام على الرَّأس المقابل، ووضعنا شمعةً في وعاء زُجاجي فوق الطَّلْسَم بالمنتصف. تَلَت ختام بعض الكلمات الغريبة، وبلحنٍ أغْرَب، مُغْمِضة العينيْن، هادئة الوجه، ساكِنة النَّفس، وقامَت برسم أشْكال هَنْدسية بكِلتا يديْها في الهواء كمَا يُرْسَم الصَّليب. تحديدًا هذا الشَّكل، لهذه النّجمة..

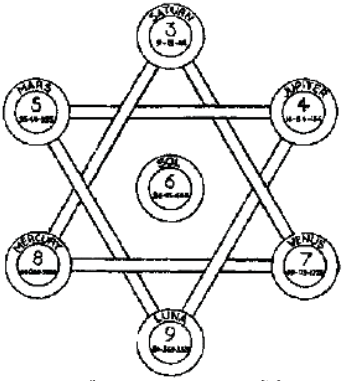

وكـما هـو مُلاحَـظ، أنّ في كل دائـرة كُتِـب اسـم لشـهر، ورقـم تَرْتيبـه في السَّـنة، وعليـه فـإنَّ كل شـهر يُشـير إلى الأرواح المَعنيَّـة بـه؛ التـي توفَّـت أنْفُسُـها فيـه بالأحـرى.

فتحـت خِتـام عينيْهـا، أخْرَجـت مـن جيـبٍ لم ألْحظـه مِشْرَطًـا وبـه مـدَّت لي يدهـا..

- «عـوَّري إيديـكِ. الـدم الـلي ينـزل حطّيـه في المربَّـع الـلي جنبـك».

هل يوجد لديَّ الجرأة للاعتراض؟

التقطتـه مِنهـا، وببـطء وتَـرَدُّدٍ، غَرَسـته في جِلْـد سـاعِدي غَرْسًـا، فانبجسـت الدِّمـاء منـه فـورًا كثـوران بُـركان، سـالَت عـلى الشَّـكل الهنـدسي (المسـتطيل) القابـع عنـد طـرف ركبتـي اليُمنـى مُبـاشرةً، تألَّمـت، شـعرتُ بـدوارٍ مُباغِـت، لكنَّنـي تمالكـت نَفْـسي، وأبْقيتنـي مُنْتَبهـة إلى مـا سـيحدث بعدهـا.

ردَّدَت شـفتا خِتـام قائمـة بأسـماء الأرواح التـي يمكننـا، فقـط، الوصـول إليهـا في هـذا الشَّـهر. علمـتُ لاحقًـا أنَّ كل رمـز مـن الرُّمـوز المبهمـة التـي تحـفُّ بإطـار الطَّاولـة المُقدَّسـة، يوازيـه شَـفْرَة مـا إعْجازيَّـة، تَفْـضي إلى الاسـم الحقيقـي لهـذه الـروح؛ أي الاسـم الأصـلي التـي عُرفـت بـه قبـل أن تتشـكَّل جسـدًا وتُقْـذَف إلى الحيـاة.. كـمَا بالصُّـورة التَّاليـة (عـلى حَـد زعـم السَّـاحِر).

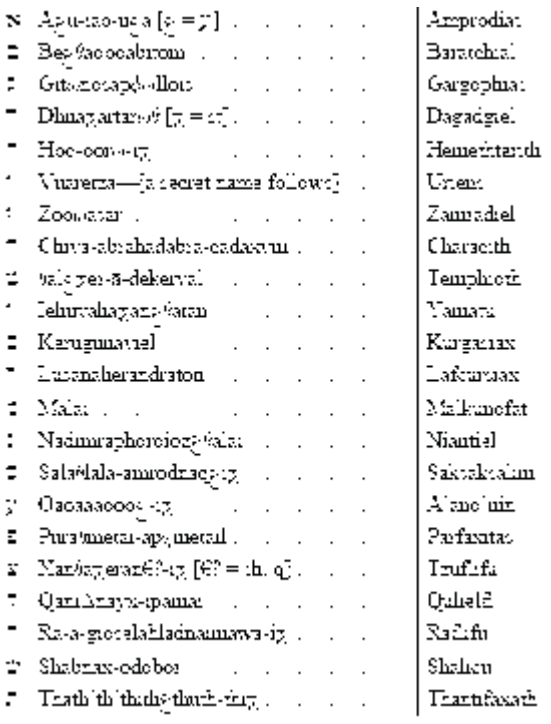

ثم استرْسَلت خِتام في تَرْديد الآتي:

- «تيِتْرَاجَـامْ مَاتُـونْ تِزِيبْـوَاثْ! مُبَارَكَـةٌ أَيَّتُهَا الـرَّوُحُ الهَائِمَـة زَمَارْدِيَال بِحَـقِّ تَابِعَـكِ أَرْمِيسْـيرُوسْ المُبَجَّـل حَـزَارَ حَـزَارَ حَـزَارَ احْـضَرِ احْـضَرِ احْـضَرِ يـا زَمَارْدِيَـال تَقَبَّـلِ دِمَاءَهَـا تَقَبَّـلِ دِمَاءَهَـا تَقَبَّـلِ دِمَاءَهَـا حَـزَارَ حَـزَارَ حَزَارَ لـــ....».

لم تستطع خِتَام أن تُكْمِل التَّعزيمَة الصَّحيحة لإحضار هـذه الـرّوح للتواصُل مَعَنـا، فـكان ظهـوره أطْغـى مـن كلماتهـا، وصفْعَتـه القويَّـة عـلى وجههـا، أعْتـى مـن لُعْبَـةٍ كهـذه! شـهقت شـهقةً عميقـةً حبسـت فيهـا أنفاسـها كُليًّـا، لأول مـرَّة أراهـا مُلْتاعـةً هكـذا، صرخـت بعبـارة مـا بالفرنسـية:

Est-ce vous!!!

يبـدو أنَّـه لم يعبأ لأمرهـا، بـل أنَّـه لم يلْتفـت إليهـا أصلًا.. فلقـد أتى مـن أجـلي أنـا.. ليوسـعني ضربًـا مبرحًـا كـمَا المعتـاد!

تراجَعـتُ بظهـري إلى الـوراء مَفْزوعـةً، أتعـثَّرُ بأوعيـة الشّـموع والطَّباشـير والحقائـب، أحـاول الوقـوف عـلى قدمـيَّ لكنَّـي كنـت عاجـزة كُليًّـا عـلى اتِّخـاذ مِثْـل هـذا القـرار أمامـه، إذ يدنـو مِنّـي، وفي يـده كربـاج...

هل أحتاج أن أصف لكم ما حدث لي حينها بهذا الكرباج؟؟

لا أدري..

كل مـا أتذكَّـره، بعـد فعلتـه تِلـك.. أنَّنـي سـمعت صوتًا عميقًـا يصيح مـن بعيـد.. «ضريييييبةٌ مَدْفوووووووعـةٌ!!».. وخِتام...

أين ذهبت خِتام؟

و.. ما هذا الـ..

أين أنا؟

تنبَّهتُ لصوت أحد الرجال وهو يصيح:

- «لاقيناها! أهي هناك!!».

لم أشعر بشيء. حُمِلت بين ذراعيْن أعرفهما تمامًا، إنَّهما يخصَّان أبي. لقد كان يبحث عنّي طيلة هذه الفترة التي كنت «أتسلَّى» فيها مع خِتام!

كم مرَّ من الوقت يا تُرى؟

حينما عاد بي إلى المنزل.. لم يصيح فيَّ ولم يضربني كمَا توقَّعت.. بل سألني مُحْتَدًّا بشدَّة:

- «مين اللي عوَّرك كده يا أسْرَار؟!!».

انتبهتُ للجرح الغائر في ساعدي.. فلم أعرف بِما أجيبه. التزمت الصَّمت، وتصنَّعت أنَّني بين اليقظة والصَّحيان. ليتدخَّل أحدهم بقوله:

- «أكيد حجر عوَّرها غصب عنها وهي بتلعب يا عم سَعْد، ما تضغطش عليها المهم إنَّك لاقيتها بالسلامة!».

حجر؟ أيُّ حجر الذي صادفني وأنا ألعب.. أين؟

انهالَت أمي في البكاء، واحتضنتي قبل أن توبِّخني بسبب غيابي الطويل، ومخالفتي لِمَا عهدتها به، أن أغادر منزل صديقتي خِتام في تمام

السَّاعة التَّاسعة مساءًا، والسَّاعة الآن الثَّالثة فجرًا!!

تعجَّبتُ أنَّه لا أحد منهم قد لاحَظ أنَّني قد ضُربت بالكرباج، فلا علامة في جسدي تُشير أنَّني قد تعرَّضت لهذا الحادث أصلًا!

هل تُكذّبني؟!!

هل تفهم شيئًا مِمَّا أقول؟

أنا لا أفهم!

كل شيء قد اختفى فجأة.. وخِتام تبخَّرت إلى العدم.. وها أنذا في منزلنا، أرقد على سريري وبجواري عائلتي قلقةً عليَّ، أبي يؤمِّن على كلام الزَّاعم بأنَّ حجرًا قد خمشني دون أن أدْري، تنْهمر دموع أمّي وتُردِّد حمدها وشكرها لله، شقيقي هيثم أجده يرمقني بنظرات ملؤها التَّشكُّك، إذ لا يُعْقَل أن أكون بهذه السَّذاجة! أماني لم تكن موجودة.. لا أعلم، ربما نائمة، بينما وقف حَسَن يضرب كفًّا على كف، ويستاءل في حيرة بالغة لسيد، صاحبة دُكَّان الأمل:

- «لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.. إيه اللي ودَّاها هناك أصلًا!».

لقد وجدوني أسْتلقي بكل بساطة بين أكوام أحجار منزل مَرْدوم حتَّى الأرض.. ولا أثر لأي صديقة كنت معها كل هذا الوقت...

لاحقًا، علمت أنَّه كان، فعلًا، من مصلحتي، ومصلحتك، أنَّ لُعبة الطَّاولة لم تُسْتأنَف..

فلن أكن لأتحمَّل فكرة رؤية «ربيع» يتجسَّد أمامي من جديد..

* * *

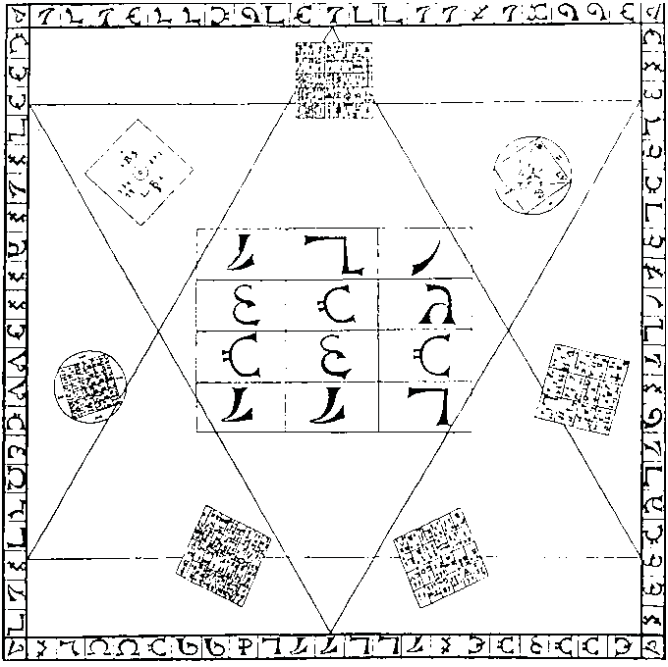

طاولة «كراولي» المُقَدَّسة، حسب المخطوطة.

«إيَّاكَ أن تُجرِّب هذه اللُّعبة»

٢٠

عُـرِف الشّـيخ رَمَّـاح بقدرتـه الكُليَّـة الفذَّة عـلى رؤيـة الأرواح العُلوية والسُّـفلية، والإحسـاس بهـم وسـماع همسـاتهم التَّرْنيميَّـة الشَّـجوية في خاطِـره، بـل والتَّأثُّـر بهـم في حـال أن صادَفتـه روحًـا مـا خبيثـةً ويُصْبِـح مـن الصَّعـب عليـه التَّخلُّـص مِنهـا إلَّا بطقـوس أكـثر صعوبـة ومَشـقَّة يمقتهـا مقتًـا. ورث هـذه الموهبـة الخالِصـة مـن أبيـه، والـذي بـدوره قـد ورثهـا، كذلـك، مـن أبيـه وحتَّـى جـدّه الأكـبر، وعزَّزهـا بالدرّاسـة والاتطـلاع والاتضـلاع عـلى الكتـب الرَّوحانيـة البعيـدة كُل البُعـد عـن طلاسِـم السِّـحر والأعـمال السّـوداء وكل مـا يُغضِـب اللـه عـزَّ وجـل. ولهـذا السَّـبب كان معروفًـا بـين أهـل الفِريـاني ومـن الأحيـاء المجـاورة أنَّـه لا يسْـتخدم في عملـه سـوى القـرآن والرُّقيـات الشَّرعيـة والأدْعيـة والتَّـوكل عـلى اللـه مـع كل حالـة تقـدم إليـه لتعـثُر عـن خلاصهـا مِـمَّا أصابهـا مـن مَـسٍّ مـا أو سـحرٍ أسـود أو حَسَـدٍ.

لم يكـن مَشْـهورًا إلى هـذا الحـد الـذي يجعـل بيتـه يعـجّ بالـزُّوار كـمَا الشّـيخ نـاصر الكربـلائي، إذ أنَّ النَّـاس يفضّلـون دائمًـا انتهـاج الطريـق الأصعـب دائمًـا، ويصيبهـم حالـة مـن السّـحر حينـما يتناهـى إليهـم أنَّ الشـيخ كـذا سـعره غـالي ومِراسـه عتيـد، فيتفانـون لأجـل توفـير المبلـغ وهُـم يؤمنـون أنَّ العـلاج لا يمكـن ألَّا يكـون سـوى عنـد هـذا الرّجـل. بخـلاف الشّـيخ المقيـم في الفِريـاني مـن قبـل ثلاثين عامًـا، رمَّـاح، الذي لم

يكـن يقبـل أي أمـوال أبـدًا ولا أبيـه مـن قبلـه، فتشـكَّك البعـض أنَّـه، ربمـا، ليـس إلَّا وغـدٌ مُخـادعٌ يتسـلَّى فقـط لا غـير!

ولكـن كان هـو الملـاذ الأخـير للسـت رضـوى لعـلاج ابنتهـا. كانـت مسـتعدّة أن تبيـع المنـزل كلّـه لأجـل رؤيتهـا سـالمة تنْضَـح نـورًا مـن جديـد، وفرصـة الشّـيخ رمَّـاح لا يُمْكِـن أن تُفـوَّت. مَـن يـدري، قـد يجعـل اللـه الشِّـفاء عـلى يديْـه.. وبـدون أي مـال!

ازدادَت أسْرَار سـوءًا في الأونـة الأخـيرة، تغـيَّرَت ملامحهـا كُليًّـا إلى الغضـب الفاتِـر، أسـودَّ وتعكَّـر فبـاتَ طبقـة جلـده مترهلـة وآيلـة للسـقوط في اي لحظـة للكشـف عـن العظـام. صوتهـا أيضًـا تبـدَّل للغلظـة، تتحـدَّث باسـم غـير اسـمها، تتشـنَّج وتصـدر أصواتًـا مزعجـةً مـن حلقهـا الجـاف أقـرب للأنـين، أو مـواء قـط يتألَّـم بأنـواء الليـل. حاولـت الانتحـار أكـثر مـن مـرَّة، عـن طريـق جـرح نَفْسـها في أكـثر مـن موضـع حسَّـاس، دائمًـا مـا كانـت تُنْقَـذ في اللَّحظـة الأخـيرة مـن أبيهـا أو أمـاني أو أمّهـا التـي لم ولـن تعـرف النّـوم ولا الرَّاحـة إلَّا إذا شُـفِيَت ابنتهـا وعـادَت لأحضانهـا مـرَّة أخـرى سـالِمةً.

عندمـا عرضـت السِّـت رضـوى عـلى عبـير أُمُّ ربيـع الذَّهـاب معهـم، رفضـت بشـدَّة، وقالَـت أنَّهـا لـن تتدخَّـل في هـذه القضيـة مـرَّة أخـرى وتريـد أن تقطـع كل الوشـائج بينهـا وبينهـم، ولم تبـح عـن السَّـبب. لاحظـت أمـاني أنَّ حُـزنٌ مـا يُضنيهـا، يُغلِّفهـا الارتبـاك وتسـكو أسـفل عينيْهـا دمـوعٌ جافَّـة مَريـرة، كأنَّهـا رأت أهـوالًا شـلَّت حركتهـا وأصابتهـا بصدمـةٍ نَفْسـيةٍ حـادَّة دفعتهـا لأن تعتـزل العـالم كلّـه وتبقـى وحيدة في بيتهـا تنتحـب. حاولـت أمـاني النَّبـش عـن السّر وراء حـزن هـذه المـرأة،

خصوصًا أنَّها جارتهم المقرَّبة وصديقة أمّها، أرادَت أن تُكلّف حَسَن بالتَّقصي حول هذا الأمر.. لكنَّها كرهت أن توجّه له كلمةً. هي لا تطيقه وتمْقته من قلبها كل المقت!

كل الاعتماد، كل الأماني، انصبَّت جميعها على الشّيخ رمَّاح!

استقبلهم الشّيخ رمَّاح، بأناقته المعتادة في جبّته السّكرودة التُّونسيَّة وشاشيَّته الإسطنبوليّ ومخياله الوسيم وعطره الخلَّاب الباعِث للراحة في النُّفوس، في بيته الفسيح المُألَّف من حجرتين وصالة كبيرة تَفْضي إلى شُرْفة جانبية تطلّ على الغرب، رحَّب بهم كثيرًا قائلًا:

- «أهلين أهلين.. اتفضَّلوا».

جلست السِّت رضوى على كنبة لها لون أحمر فاقع، بجوارها أماني وأسْرَار الشّبه مُتنبِّهة للواقِع، بينما جَلَس حَسَن على كرسي مُنَجَّد بالقُطن أسْفَل كِسَاء أحْمر مائل للاصفرار. للمرَّة الأولى التي لا يشعر فيها حَسَن بالاستهانة بالخصم، ولا بأي ميول عدائية تجاهه.. إذ أنَّ الطّريقة العِلمية باءت بالفشل، وهذا الشّيخ، الأسْمَر الوقور الذي يبلغ من العمر الحادي والسّتين، لن يؤجَر بأي مال، اكتفى بتعابير وجهه الحزين ولهْفَته لأن تُعالَج محْبوبته.

عادَ الشّيخ رمَّاح من غرفةٍ وجلس على الكنبة المقابلة، أفْصَح عن ابتسامة مُتأنّية، وقالَ:

- «تحت أمركم.. إيه الحِكاية؟».

ألقى نظرةً خاطفةً على أسْرَار، فخمَّن أن الحالة تندرج تحت تصنيف «المسّ».

لم تستطع السِّت رضوى الإجابة لانهيارها في البكاء مُطْرقة الرأس، فبادَر حَسَن بالاستطراد:

- «كل الحِكاية يا...».

ولكن بترت أماني كلامه، عن قصد، واستلمت هي دفَّة الحديث، بتحدٍّ بالغ:

- «أختي يا شيخنا ما بقِتش طبيعية أبدًا.. مش عارفة هي بقت في الحالة اللي هي فيها دي من امتى وازاي وليه.. بس هي كانت كويسة والله، وفجأة حالها اتقَلَب.. وبقت بتشوف كوابيس وحاجات بتطلعلها و..».

بهدوء وتأدُّب قطع كلامها الشّيخ رمَّاح:

- «ثواني بس..». أشارَ لها بيده. «واحدة واحدة فهّميني كل حاجة من البداية.. بالترتيب كده.. علشان أقدر أشخَّص حالتها وأعرف هعمل معاها إيه».

لم يتطوَّع حَسَن للحديث مُجدَّدًا لألَّا يُهان مرَّة أخرى من هذه السَّخيفة، وكذلك لأنَّها الوحيدة التي تعيش مع أسْرَار في البيت ولديها تفاصيل أكثر مِمَّا يعرفها هو. قصَّت أماني للشيخ كل ما حدث وما يزال يحدث مع شقيقتها، ابتداءً من حادثة غيابها الطويل عن البيت بحجَّة أنَّها كانت مع صديقةٍ لهَا، مرورًا بتفاصيل الكوابيس ورؤيتها للرجل الغريب في مقرّ عملها وفي كل مكان تنْشده، وحتَّى الأونة الأخيرة التي تطوَّرت حالتها لمسٍّ صريح؛ تبدُّل ملامحها للقُبْح والدَّمامة والاسودَاد، تغيُّر نبرة صوتها للخشونة والغلظة، محاولاتها العديدة للانتحار، حادثة اغتصابها من شخصٍ يسْتعصي عليه أن

يملك آلة بهذه الحدّة في قضيبه، مثلًا، حديثها عن سارة طوال الوقت وعن مدى الألم التي تشعر به هذه الفتاة الغريبة، ضحكاتها المفزعة وتصرُّفاتها المرعبة في جنح الليل؛ إذ لُحِظَت مؤخَّرًا أنَّها تتمشَّى ليلًا إلى باب الثَّلاجة، وتظلّ طوال الليل وقبيل الفجر تدفع برأسها للاصطدام بالباب بوتيرة وانتظام بطيء.

وعندما طَلَب مِنها الشّيخ وصف هذا الرجل الغريب، قالت أماني بما تتذكره عن وصف أسْرَار لهذا الشّخص المريع:

- «اللي فاكراه إنَّها قالِت قبل كده إنَّه مخيف جدًّا وطويل، ملامحه متشوّهة، ماعندوش بُقْ ورغم من كده بتحس بابستامته الشريرة، ماسك على طول سكينة في ايده وبيحاول يقتلها كل ما يشوفها، وبيردّد لها طول الوقت إنَّها بتاعته وإنَّه عاوزها ليه.. مش فاهمة حاجة!».

شرد الشّيخ رمَّاح طويلًا في وجه أسْرَار، غرق في تفاصيله وأمْعَن في دراسة القِناع البشع الذي يتلبَّسه، محاولًا انتزاع أي مَعْلومة عبر موهبته الرّوحية الحادَّة. ولكن ظلَّت صورة الرجل الغريب تُداهم عقله وتعْتصره عصرًا، يحاول أن يعرف ماهيَّته ومن أي نوع يندرج، هل هو مارد أم مُجرَّد روح شريرة أم سحرٍ سُفليٍّ من حاقدٍ عليها؟ أم مرض نفسي يُخيل لهَا الأمر على غير حقيقته؟

أمرهم بالابتعاد عنها والجلوس إلى كنبة في آخر الصَّالة حتَّى يستطيع معرفة ما تُعاني منه. ارتمت أسْرَار على الكنبة فور أن تركوها وفعلوا كما أمر. عدَّل في جلستها. كانت مرخية الأعصاب، هادئة، شبه غائبة حاضرة، تنظُر إليه بنظرات متوسِّلة مستغيثة مستجدية

عطفه لتحريرها، تجاهِد معه في الاعتدال في الجلسة ومطاوعته فيما يفعله بها: إذ شبَّك ذراعيْها ببعضهما البعض، أحضرَ رباط من القماش وأغلق به عينيْها، ربطه عند قذالتها بعقدة حادَّة مؤلمة، أسْرَع في جلب كوب من الماء قال أنَّه مقروءٌ عليه آيات معينة من القرآن وأجبرها على ابتلاعه دفعةً واحدة، فتشنَّج جسدها بغتةً كحبل مَشْدود، لكنَّه حطَّ بكفّيْه على جبهتها، بَسْمَل جهرًا، هتف بملئ فمه:

- «لا إله إلَّا الله.. لا إله إلَّا الله.. لا إله إلَّا الله.. الشَّافي هو الله رب العرش العظيم الحي القيُّوم الملك القدُّوس السَّلام المُهيمن العزيز الجبَّار الخالق البارئ القهَّار الغفَّار المنتقم الباسط الحكم العدل اللَّطيف الخبير جلَّ جلاله وثناؤه».

ثم ردَّد دعوةً ثلاث مرَّات، بينهما فاصل دقيقتيْن تحديدًا، وعَلا صوته في الثَّالثة:

- «اللَّهُمَّ كُنْ مَعَها ولا تكن عليها. اللَّهم بحق قدرتك اللَّهُمَّ أجرها من العذاب ومن ضلال الجن ومن انتقام الجن وإن كانت عاصية.. فأنت الغفور الرَّحيم الحليم مَن تقبل توبة التَّائب وتشفي المرضى، اللَّهُمَّ كُنْ معها وأجرها من العذاب، يا ذا الجلال والإكرام».

بعد أن أفرغ من دعاءه، سكن بعض نَفْسها، وارتخت أعْصابها كمَا كانت عليه منذ دقائق. لقد وَئَدَ بهذه الدّعوة، وبذكره لأسماء الله الحُسْنى، أية أرواح عبثية قد تأتي لتُباغته أثناء قيامه بعمله، قد تؤثِّر على أسْرَار سلْبًا وتجعل حالتها أكثر سوءًا.

تراجع بظهره إلى الوراء عدّة خطوات مبتعدًا عن الكنبة، تَلى

شـيئًا مـا همسًـا لم يسـتطع أحـد التقـاط حرفًـا مِنـه، التقـط قنينـة مملئـة بمـاء الـورد، فتحهـا ونـثر بعضهـا عـلى أسْرَار، وهـو يُـردِّد آيـة الكـرسي بصـوت خفيـض، إحـدى وعـشرون مـرَّة مُتَتَاليـة! ثـم أغلـق القنينـة ونحَّاهـا جانبًـا عـلى الطاولـة، مـدَّ ذراعـه إلى أسْرَار باسـطًا قبضتـه، وهمـس لهَـا في هـدوء:

- «تعالي».

تشـابَكت عضـلات سـاقيْها المُرْخـاة ببـطءٍ شـديد وهبَّـت واقفـة على قدميْهـا بآليـة، خطـت نحـوه بتمهُّـلٍ حـين طلـب مِنهـا أن تُقِبـل إليـه، اسـتقبلها بعصـا قصـيرة مـن العـاج مُذيَّلـة بريـش لذيـل حصـان حـطَّ طرفهـا عـلى رأسـها، تـلى عـدَّة آيـات قرآنيـة مـن سـورة الجـن، مدمجـة مـع آيـات أخـرى مـن سـورة البقـرة، ثـم صـاحَ بأعـلى صوتـه حـين طفـق يُـردِّد سـورة النَّـاس أكـثر مـن عـشر مـرَّات متتاليـة، انزعجـت لهَـا أسْرَار كثـيرًا، بـدأت تتشـنَّج أمامـه ولكـن بصـورة أقـوى وأشـد، ازدادَ هـو في التِّـلاوة، كأنَّـه يحقنهـا في منْبَـع الألم ذاتـه، وهـي تتشـنَّج أكـثر، وتهتـزّ قدميْهـا فتوشـك عـلى طرحهـا أرضًـا، ابتعـدَ عنهـا خطويتـيْن إلى الـوراء، وألْقاهـا بمـا تبقَّـى مـن مـاء الورد- عـلى كافَّـة جسـدها.. فكانت هـذه هـي القشَّـة التـي قسـمت ظهـر البعـير!

شرعـت باصـدار زمْجَـرة طفيفـة كحشرجـة، ثـم تصاعَـدت لتصبـح أكـثر غِلْظـةً.. أكـثر قـوَّة وعُنْفًـا.. صرخـةً أُطلقت مـن حلْقها كعـواء ذئب في البَراري، يشـتدّ تِباعًـا كُلَّـما ازداد الشّـيخ في قـراءة سـورة النَّـاس، ثـم سـورة الفلـق، بصـوتٍ مرتفـع للغايـة يـكاد يشـقُّ مسـامعها، فتلقائيًّـا وضعـت يديْهـا عـلى أذنيْهـا، أخـذت تميـلُ برأسـها يمينًـا ويسـارًا تُعـاني

مـن ألمٍ صعـب المـراس في رأسـها، رافضـة تمامًـا التّـلاوة، وهـو مـا عـبَّرت عنـه صراحـةً بصوتهـا.. في بـادئ الأمـر:

- «كفااااااية!!! كفاااااااااااااية!!! يا ماما قوليلو كفااااااااية!!!!».

وحينـما لم يسـتجب الشّـيخ رمَّـاح لصرخاتهـا الأليمـة، وبـراءة صوتهـا المعتـاد، وازديـاده في التِّـلاوة بتحـدٍّ وإصرار، تغـيَّرَت تمامًـا نـبرة صوتهـا، ليتبـدَّى ماهيَّتـه الحقيقيـة، أخـيرًا، بصراخـه الصَّاخـب العـالي الـذي شـقَّ جـدران البيـت بأكملـه:

- كِفاااااااااااااااااااااااااااية!!!

صاح الشّيخ رمَّاح في وجهها/ه يسأله بقسوةٍ، بصيغة آمرة:

- «أنت مين؟؟ عرَّف عن نَفْسك!!!!!».

احمـرَّ وجـه أسْرَار واحتقـن مثـل دمـاء مُتَخـثِّرة، لا تـزال تهـزُّ رأسـها وتميـل بـه عـلى كافَّـة النّواحـي: صعـودًا وهبوطًـا ويمينًـا ويسـارًا، قدماهـا مُثَبَّتتـان بالبـلاط كـمَا لـو طُرقـا بمسـامير حـادَّة، إذ أنَّ الجسـد كلّـه يتلـوَّى كثُعْبَـان، عـدا منطقـة أسـفل الحـوض وحتَّـى القدمـيْن. لا تـزال العصابـة مُحْكَمـة الإغـلاق عـلى عينيْهـا، رغـم أنَّهـا/ه حاولـت مـرارًا خلْعهـا، لكنَّهـا خابَـت واسـتمرَّت في الـصُّراخ، فكـرَّرَ الشّـيخ سـؤال باحتـداد:

- «عـرَّف عـن نَفْسـك بقولـك!!! وإلَّا عذّبتـك بحـق الـلي خلقنـي وخَلَقـك!!».

توقَّـف جسـد أسْرَار بغتـةً عـن التَّلـوِّي، اسـتقرَّ الـرأس في موضعـه، كُشِـفَت ابتسـامةً عريضـةً مـن الخـد إلى الخـد، ضحكـةً عاليةً مُسْـتَهينةً

خرجت من حلقها، قالَ الصّوت على إثرها بكل سُخْرية وفظاظة:

عذّبتني؟ أنا؟!! ضحك مجدَّدًا. ثم أطلق سُبَّةً جريئةً، سَبَّ بها الخالِق، والسَّماء، وكافَّة أنواع البشر، من بني آدم وآخرون قبل خلق آدم حُجِبنا عن معرفة هويَّتهم وأصْلهم، ولم يُفْصِح عن ماهيَّته أو بمراده من الفتاة.

- «انطق بقوووولَّك!! أنتَ مييييييين؟؟!!!».

أخرج الشّيخ قنينة ماء ورد من جيبه ورشَّها بأكملها على جسد أسْرَار، فعَوَى الصّوت من الألم، لكنَّه استخدم قبضته وسَّددها في بطن أسْرار، فدُفِعَت إلى الوراء على إثرها وسقطت على الكنبة بعنف، فهمَّت السِّت رضوى بالهرولة إلى ابنتها صارخة: بنتي!! بنتي!!».

صاحَ الشّيخ في وجهها:

- «أوعي تتحرَّكِ يا أمّي!!!!!!».

تعثَّرت السِّت رضوى في شيء ما لم تره، وطُرِحَت أرضًا، ومن خلفها هرولا عليها حَسَن وأماني يسندانها لتقف مرَّة أخرى وتعود إلى حيث أمرها الشّيخ.

بدا الشّيخ واثقًا للغاية، ملامحه لا ينجلي فيها أي خوف أو رهبة، فهو يتَّكئُ على حبل الله وإيمانه شديد بمعونته وقوَّته، قطَّب جبينه، ركَّزَ في وجه أسْرَار طويلًا بينما كانت تتلوَّى أمامه على الكنبة وتنشج وتصرخ، أغْلَق عينيْه، مُسْتدعيًا، في داخله، قرينه المُخلِص المُسَخَّر، وباستخدام موهبة الجَلاء البصري (يرى بها المكشوف خلف الحِجاب

مـن الجـن والأرواح بـإذن اللـه)، عـرف ماهيَّـة الـذي مُتلبِّـس أسْرَار.. لوهلـةٍ أصابـه الوجـل، لولهـة، فغـر فاهـه، ووسـعت حدقتـاه ذهـولًا وتعجُّبًـا مِـمَّا يـراه أمامـه، بينـما كان الصّـوت يضحـك بهيسـتيريا مرعبـة ومُقَشْـعِرة للأبـدان!

ابتلع ريقه، وقال:

- «أنـتَ... إزَّاي!!». ولهـث كأنَّـه ركـض لمسـافة طويلـة، مُتعرِّقـةٌ مسـامه.

كادَ، للحظـة، أن يفقـد الأمـل كُليًّـا في علاجهـا، إذ أن الأمـر شـبه مسـتحيل، إن لم يكـن مسـتحيلًا بالفعـل، أن يُخـرج هـذا الكائـن البشـع المَلْعـون إلى يـوم القيامـة مـن جسـدها، فهـو شيء لم يتعامَـل معـه قـط، ولم يسـبق لـه أن رأهُ أمامـه في حالـةٍ مـا. كان يعرفـه حـقَّ المعرفـة، مـن تلـك القصـص التـي وردت عنـه في الكتـب القديمـة، والحِكايـات والأسـاطير التـي تُشـاع عنـه في كافَّـة أقطـار العـالم، لكنَّـه لم يكـن يتخيَّل أن يواجهـه بشـخصه.. أبـدًا!

لم يكن شيطانًا.. بل كان ما هو أسوأ من الشَّيطان!

شمَّر الشّيخ رَمَّاح بِن كمّيْه، وتلفَّظ بكل إصرار:

- «توكَّلنا على الله..».

* * *

٢١

استيقظَ السَّيد نويل في فِراشه ليلًا والعَرَق يغزوه كاجتياح سرب من الجراد، مضطربًا ومتأرِّقًا إثر كابوس مُفْزِع قد انْتُزِع منه لتوّه، بجواره السَّيدة كاثرين تُحمْلِق فيه مُلْتَاعةً وتحاول أن تُهدِّأه. انْتزعت منديلًا ومَسَحت عرقه، هدَّأت من روعه قليلًا وسألته عن السَّبب في فزعه هذا. أخبرها أنَّ الكابوس فتك به فتكًا، ولم يكن مجرَّد كابوسًا عابِرًا، بل شيئًا أكبر من ذلك بكثير، يستطيع أن يشعر بمذاقه في الهواء، ويتحسَّسه بيده، لا يدري ما هو تحديدًا، لكنَّه يُخيفه ويُجافيه النُّعاس.

- «ماذا رأيت؟».

سألته زوجته وهي تُطوِّقه بذراعيْها، لكنَّه لم يزل لا يشعر بالأمان، تأبى الرَّاحة أن تتخلَّل أوصاله بعد الآن. أجابها وهو يُحدّق في الفراغ شَريدًا شاحبًا كجُثَّة لم تتحلَّل بعد:

- «ابنتي، كارولينا، شخصٌ ما لم أتبيَّن ملامحه.. يأكلها على مائدة الإفطار دون أي مقاومة مِنها! بل إنَّني قد رأيتها سعيدة، مُنْتَشيةً، يغرسُ هو بالشّوكة في لحْمها المطهو ويُقطِّعه بالسّكين ويُمْعِن في مضغه بين أسْنانه السّوداء وفمه البشع! أردتُ أن أُساعِدها، لكن شيء ما قد منعني وأَحَالَ بيني وبين ابنتي! لا أدري.. لستُ مُتأكِّدًا أنَّني رأيته.. لكنَّه كان شديد المِراس حقًّا.. ناعِمًا كالاسفنج..

صَلْبًا كالحجر!».

لم تفهم كاثرين ما عَنَاه بـ «ناعمًا كالإسفنج.. صلبًا كالحجر»، فأحيانًا ما تكون الكوابيس غير مفهومة وبها الكثير من المغالطات المنطقية التي تفوق القدرة على الاستيعاب والتَّفكير. كل ما فعلته هو أن خفَّفت عنه وطبعت قبلةً رقيقةً على وجنته ودعته لاستئناف النّوم، فغدًا لديها الكثير من الأعمال وسيكون يومًا شاقًّا بالنسبة لهما.

- «أحتاج بعض الهواء..».

رفض السَّيد نويل استكمال نومه بحجّة أنَّ صدره مُغْتَم ويحتاج أن يتنفَّس قليلًا من نفحات الهواء البارد بالخارج. فأزاح الغطاء من على قدميْه ونهض من الفراش، توجّه إلى الحمَّام ونضح وجهه ببعض الماء، نوعًا ما غَسَل الماء البارد معظم مخاوفه وطهَّر مُهْجته من الاغتمام، تنهَّد بعد أن علَّق المِنْشَفة على شمَّاعة، وخرج من الحمَّام يشعر بالانتعاش، مع مزيجٌ من التَّوجُّس والارتباك. خطى ناحية الثَّلاجة واستخرج مِنْها زجاجة ماء، جالَت بخاطره أن يذهب إلى غرفة كارولينا ويطمئن عليها إذ يتجرَّع الزُّجاجة ببطء، وضعها على الطَّاولة وأسْرَع مَلْهوفًا على ابنته إلى غرفتها.. فلم يجدها على السّرير! أشْعَل الأنوار، جالَ بغرفتها كالمَمْسوس يُنقِّب عنها في كل زاوية وفي كل بُقْعَة، بداخل الدُّولاب وأسفل الفراش المتكدِّس على الأرض.. لكن لا أثر لهَا، ولا أي شَعْرَة عالِقة بالدِّثار تدلُّ على أنَّها كانت نائمة في الفِراش هذه الليلة من الأساس!

اضطرب، غَلَت مراجل الغضب بدخيلته، أين ذهبت هذه اللَّعينة!!!؟

لم يجـد الفرصـة لإخبـار زوجتـه بغيـاب ابنتـه، فلقـد كانـت قـد غطَّـت في نـومٍ عميـق، ورأى أنَّـه سـيعثر على كارولينـا -حتـمًا- في الغابة، تتجـوَّل كعادتهـا وناكِثـة بالعهـد التـي قطعتـه لـه هـذا الصَّبـاح.

قـرَّر في نَفْسـه أنَّـه مـا إن يراهـا فسيُهشِّـم رأسـها إلى فُتـات، وسـيُعاقبها أشـدَّ العِقـاب. هـذه الآبقـة العنيـدة!!

كـوَّرَ قبضتـه وخـرج مـن المنـزل دون أن يُبـدِّل ملابسـه، مهـرولًا إلى المـروج المتشـابكة عنـد حافَّـة الغابـة. اصطـدم بعـدّة فـروع وهـو يركـض ويلتفـت حولـه بحثًـا عـن ابنتـه، يُنـادي بأعـلى صوتـه: «كاااااارووولييناااا!!!!». طُـرقٌ مَفْروشـة بالمسـتنقعات والشُّـجيرات النَّاميـة، ملتويـة، أشـجارٌ تتنافَـس في ضخامتهـا وبسـاقتها، تنْهمـر أوراقهـا الكثيفـة كشـلَّالٍ عـلى وجهـه، ذُبـاب، بعـوض، جنـادب الليـل، نقيـع الضَّفـادع، هـدوء الغابـة القاتـل الممـزِّق لـلآذان، عينيـاهُ تجـولان بلهفـة وبوجـلٍ في كل الأرجـاء، ملامحـه مخضَّبـة بالحـيرة والخـوف، قلبـه يخفـق بقـوَّة، لم يكـن لديـه أي نيـة للعـودة إلى المنـزل بدونهـا، فإمَّـا أن يجدهـا، حيَّـة أو ميتـة، أو حـرى بـه قتـل نَفْسـه!

حامَـت بعـض الجـوارح في السَّـماء، فلفـت انتباهـه صوتهـا وهبوبهـا دفعـةً واحـدةً كريـاحٍ غاشـمةٍ تجـاه الغَـرْب، نحـو شـاطئ البحـر المتوسـط لمدينـة غـراس الفرنسـية. لم يجـد مناصًّـا إلَّا أن يتبعهـم إلى نـور القمـر، فالمـكان هُنـا مظلـم ومعتـم ويـكاد شـيئًا لا يُـرى سـوى من بعـثرة طفيفـة جـدًّا مـن الوميـض يتسـلَّل عـبر فرجـةٍ بـين الأشـجار.

تحـت سـحابة الأشـجار سـارَ بتمهُّـلٍ، اجتـاز ممـرًّا طويـلًا أكـثر ظلمة، لكـن في نهايتـه كان الوميـض يـزداد لمعانـه شـيئًا فشـيئًا، فـروع مائلـة،

شُجيرات خشنة، أعشاب، طحالب، دود ينخر التُّرْبَة، حشرات تحطُّ على ذراعيْه المكشوفين وتلتصق بهما، كالنّفق حين يأتي وميض القطار في آخره، خَنْقَة، روائح كريهة، رطوبة حادَّة، البرد يشرع في الالتفاف حوله كُلَّما يدنو.. يدنو.. حتَّى نهاية الفرجة. انسَّل منها طليقًا. باغتته نسمات البحر المثلّجة.

هَدير الأمواج، تثير زبدًا يصطدم بغضبٍ وعنفٍ على الشَّاطيء، الأفق أكثر ظُلْمَة مِمَّا توقَّع، إلَّا من مَشَاعلٍ بعيدة تتوهَّج أسْفَل التَّل كجذوات شرارية تنوسُ العَتَمة.

ابتلع ريقه قبل أن يهبط التّل المكسو خُضْرةً، عبر مُنْحنى سلّمي يؤدي إلى أسفل، حيث غرست قدميْه الحافيتيْن في رمال الشَّاطيء، القمر يرتفع باهِتًا في سماءٍ بَلَعت نجومها، كئيبٌ شحيح الأضواء والرَّونَق، باعثُ على القتامة والتَّوجُّس مِمَّا هو مُقدمٌ عليه. سارَ بخطى وئيدة والمشاعِر تقترب أكثر، فتتضح الرؤية أمامه أكثر، يرى شخوصًا تتقافَزْ في الهواء، يستطيع سماع صيحاتهم العالية مع هدير الأمواج الصَّاخِب، أُنْثَويَّة، شيئًا فشيئًا تبدَّى له المشهد من بعيد: نساء، خمْسَة منهن، يتقافَزن عاليًا في دائرة بجوار المشاعل، حول شيئًا ما متكوِّرًا بمنتصف الدائرة، لا يستطيع أن يتبيَّن ما هو ذاك الشَّيء، كُنَّ يدورون حوله، يرقصن، يرْفَعن أذرعهنَّ إلى أعلى، تتموَّج الأذرع متراقِصة حينما تهبط مُجدَّدًا، يرتدين أردية مُتَّقدة حُمرةً وضَّاءةً، لا يعرف ماهيَّة هذه الأردية، هل هي عباءات أم جونيلات فوق صدور عارية أم مجرَّد أوشحة تُلفِّع أجسادهنَّ، الهدير يصخب، رَذَاذ الموج يَتَنَاثَر على رأسه كزَخَّاتِ المطر، ويُداعِب قسمات وجهه المتوتِّر، إذ يقترب أكثر.. فأكثر.. أكثر.. فأكثر..

- «أبي!».

هتفت كارولينا حين رأته!

كانت هي الشّيء المتكوِّم على بمنتصف الدَّائرة، عارية، مستسلمة كُليًّا لهنَّ ولنفحات البرد القارصة، أخبرتها المرأة -وقد جلست على بروزٍ صخريٍّ أعلى الشَّاطيء تُراقِب المشهد- أنَّها يجب أن تُعمَّد وتُقام عليها طقوس التَّرقية إلى مرتبة «الأضحية» ليمكنها مقابلة الوحش. لم تفهم كارولينا المعنى الخفي وراء كلمة الأضحية، لكن تعابير المرأة السعيدة الفخورة بها، دفعتها لأن تجتازها وتنصاع لكل ما تقول!

فور أن رأها السَّيد نويل، احتدَّ جبينه، غضب بشدَّة، لم يعبأ بهذه الطقوس ولا بهؤلاء العاهرات الرَّاقصات، صرخ بلا اكتراث:

- «كارولينااااا!!!! ما الذي يحدث!!؟».

كان هذا آخر ما سمعته كارولينا من أبيها، قبل أن تنهال مِطْرقة صخرية ثقيلة على ظهره من الخلف، ثم ضربةٌ أخرى قاتلة مُباشرةً على رأسه!

عندما رأت المرأة نهوض كارولينا من وسط الدَّائرة هلعًا لما حدث لأبيها، أسْرَعت إليها تصرخ بعدم نهوضها أبدًا وإلَّا انهالَت صاعقةً من السَّماء على رأسها عِقابًا لها! أعادتها إلى حيثما كانت، بالمنتصف، والسَّاحرات لا يزلن يتراقصن حولهما، وهمست لهَا في مكرٍ ودهاء: «لا تجزعي يا صغيرتي.. فهذا لمصلحتك. إنَّ أباكِ شرير، مكروهًا عند الوحش.. وكان يجب أن يُقْتَل وإلَّا أفسَد عليكِ تتويجَكِ!».

لم تجد كارولينا خيارًا آخرًا سوى الانصياع بضعف طفلة صغيرة لا

تملـك أدنى حيلـة، كـمَا فعلـت مـرَّات عديـدة مـن قبـل، مخدوعـةً، يُسـيطر عليهـا هاجـس الوهـم، الـسَّراب: التَّرقيـة والتَّتويـج في حفـل بهـيٍّ أمـام ذلـك الوحـش.. في الكنيسـة الكبـيرة.

كنيسة الماعِز الأَعْظَم!

* * *

٢٢

- «كنيسة الماعِز الأَعْظَم».

تفوَّهَـت بِهـا خِتـام أثنـاء جلوسـهما عـلى كـرسيٍّ خشـبيٍّ عريـض في الفُسـحة.

الثُّلاثاء، نوفمبر.

حينهـا كانـت أسْرَار قـد نالَـت مـن عـذاب الرّجـل الغريـب أشـدّه، ووصـل الأمـر إلى زيارتـه لهَـا يوميًّـا، كجرعـة دواء واجبـة النَّفـاذ، دون أن يغفـل عـن نَفْـس المواضـع التـي ينهالَهـا ضربًـا بحزامـه دون أدنى هـوادة. كانـت هـذه هـي الضّريبـة التـي كُتِبَـت عليهـا منـذ أن أقْحَمت أنْفهـا فيـما هـي ليسـت أهـلًا لـه، التَّسـلية والفضـول قـد يؤديـان إلى كـوارث إن لم تكـن قـادرًا عـلى تدجـين هـذه الكـوارث وإخْمادهـا، وهـذا لم يكـن ينطبـق أبـدًا مـع فتـاة مثـل أسْرَار؛ مَهْـزورة، ضعيفـة الشَّـخصية، طيبـة إلى أقْـصى حـد، تلوَّثَـت يديْهـا بهـذه اللُّعبـة المُحَرَّمـة بهـدف معرفـة حقيقـة المُحَـرِّم!

في سـاحة المدرسـة جلسـت مـع خِتـام، عـلى مَرْمَـى أبْصَـار تلميـذات المدرسـة، وهـو مـا أكَّـد لهَـا أن «خِتـام» شـخصية حقيقـة وليسـت مـن نسـج خيالهـا كـمَا زعمـت وتشـكَّكت في حـق نفسـها بعـد حادثـة غيابهـا وإيجادهـا تسـتلقي عـلى أنقـاض المنـزل المُبْهَـم، الجميـع ينظـرون إليهـا بريبـة وحـرص، يُرْسِـلن نظراتهـن المتعجبـة إلى بعضهـنَّ البعـض ويتهامسـن فيـما بينهـن حـول خِتـام، وأسْرَار التـي لا يدريـن لِـمَ اتَّخذتهـا صديقـةً، وهـي

الفتاة الأكثر بشاعةً في المدرسة؟!

لم تكْتسي خِتام بهذه الصفة بسبب دمامة سحنتها فقط، وإنَّما لأنَّها لا تزال تُمثِّل لُغْزًا مُحيِّرًا حول طبيعتها وشخصيتها وتصرُّفاتها الغريبة وتحدُّثها باللكنة الفرنسية من آن لآخر بلا مبرر واضح، ولا أي دلالة توحي بأنَّها قد تلقَّت تعليمًا أجنبيًّا في فترة من حياتها. أين والدتها؟ أبوها؟ هل لديها عائلة أصلًا؟ أين تقطن؟ ساقَ الفضول بعض الفتيات في أحد الأيَّام وراقبوها وهي خارجة من المدرسة وحيدةً لتعود لمنزلها، تبعوها وحرصوا كل الحرص على عدم إسقاط طرفةً عليها، سارَت بهم في شوارع، قطعت تفرُّعات، اجتازَت إشارات، ذهبت بهن أبعد من اللَّازم كأنَّها على علمٍ بهن وتقودهن إلى مآلهم المحتوم.. الفضول له رائحة نفَّاحة، اشتممتها خِتام وساقتهنَّ إلى حيث لم يتوقَّعن..

إلى الخَرَابة!

مثَّل اختفاء أربع فتيات عن المدرسة لُغْزًا آخرًا أُضيفَ في دوائر الحديث بين التلميذات في الفصل، والمعلمين فيما بينهم في غرفهم، ووصل الأمر لتقديم شكوى رسمية من عائلاتهنَّ احتجاجًا على تسيُّب وإهمال إدارة المدرسة، كأنَّها المتسببة والمسؤولة عن اختفاءهن، حينها دافعت الإدارة عن نَفْسها بشدَّة، بلهجة شديدة وحاسِمة: إنَّ اختفاء الأربع فتيات لا يعود إلى تقصيرٍ مِن إدارة المدرسة، ففور أن تعبر التلميذات باب المدرسة، ويجدن أنفسهنَّ في الشَّارع، ويغادرن شارع المدرسة بطوله، تنْتفي مسؤولية المدرسة تمامًا عن أي حادث قد يتعرَّضن له.

وإلى هـذه اللَّحظـة التـي أُحدِّثكـم فيهـا عـن قِصَّـة أَسْرَار، لم تسـتطع الشُّرطـة، ولا أهـالي الأحيـاء المجـاورة العثـور عليهـنَّ. تسرَّبـنَ مـن شُريـان الحيـاة كـمَا الدّمـاء حـين تغـادر الأوردة، إلى علـم الغيـب.

لم تعبـأ أَسْرَار بهـذا اللُّغـز، ولم تَسْـعَ للنبـش وراءه والبحـث عـن صديقاتهـا، إذ أنَّ المخاضـة التـي حُبِسـت بهـا كانـت أكبر وأكـثر شـأنًا مـن اختفـاء فتيـات..

مـا الـذي يعنيـه اختفـاء فتيـات.. مقابـل عَلْقَـة سـاخِنة كـورد يومـي تسْـلُخُ جسـدك كُلَّـمَا فكَّـرت في دخـول الحـمَّام؟! عَلْقَـة تُسـبِّب لَـك أثـر خارجـي مُنْحَجـب كُليًّـا عـن أعـين النَّـاس، سِـواك!

فغرت أَسْرَار فاهها وتسائَلت في تعجُّب:

- «ودي فين كنيسة الماعز دي؟».

بوجهها المتحجِّر البشع، ونظراتها الحادَّة الفاترة، أجابتها:

- «ربـع سـاعة مـن مدينـة غـراس في فرنسـا.. زُرْتي فرنسـا قبـل كـده؟».

فرنسـا التـي لم تتناهـى إليهـا سـوى بمسلسـلات الكرتـون -أيَّـام الـبراءة- تحـت اسـم «باريـس».

- «عمـري مـا خرجـت بـرَّة منطقتنـا.. حتَّـى لمَّـا زرت بيتـك كانـت هـي المـرَّة الأولى الـلي أروح فيهـا شـارع جديـد جنـب الحـي».

ابتسمت خِتام في خُبْث:

- «هتزوريها لمَّا تِكبري.. سيبي نفسك له».

- «أسيب نفسي لمين؟».

أسْـندت خِتـام ذراعهـا عـلى حاجـز الكـرسي، أجالَـت النَّظـر طويـلًا إلى التلميـذات في السَّـاحة، اسـتطردت دون أن تُجيبهـا عـلى سـؤالها الأخـير:

- «أنـا اتولـدت في كنيسـة الماعـز الأعظـم. مُعظـم «الأنقيـاء» اتولـدوا هنـاك. بابـا كان ليـه فضـل كبـير في ولادتي بالصُّـورة الـلي إنـتِ شـايفاها دي: مشـوَّهة، وكان هـو السَّـبب في كرهـي لـه للأبـد!».

تطلَّب الأمر دقيقة كاملة لتستوعب أسْرَار ما تقوله، وقالت:

- «يعنـي إنـتِ مـش مصريـة.. أُمَّـال إزاي بتتكلمـي مـصري زيِّنـا كـده وليـه بتكرهـي بابـاكي كـده وهـو فـين؟».

لقد وقعت أسْرَار في فخ الفضول..

بالطَّبـع لـن تُجيبهـا عـلى السُّـؤالين الأخيريْـن، كعادتهـا، وإنَّمـا جاوبتهـا عـلى سـؤالها الأول بإجابـة أغـرب ومنتفيـة المنطـق:

- «لإني اتولدت هِنا..».

انعقـدت الحـيرة فـوق رأس أسْرَار، ألم تقـل هـذه اللَّعينـة أنَّهـا قـد ولـدت في فرنسـا، بكنيسـة الماعـز الأعظـم! كيـف لهـا أن تولـد هُنـا؟!

- «مش فاهمة حاجة!!». صاحَت أسْرَار في وجهها ضاحكةً.

زادَت خِتام من فضولها، قبل أن تنهض وتعود إلى الفصل:

- «لازم تشـكريها.. لولاهـا كان زمانِـك قاعـدة بتكلمـي نَفْسـك عـلى الكـرسي ده دلوقتـي».

تشكُر مَن!!!!

* * *

تحذير

كل ما سيُذْكَر في هذا المشهد يُعْتَبَر حقيقيًّا، حسب اعترافات أليستر كراولي في إحدى مؤلَّفاته..

إن كانت لديكَ قناعات دينية وأخلاقية تخشى من أن تُخْمَش أو تُنْتَهَك..

فرجاءًا لا تقرأ هذا الفصل!

٢٣

كنيسة الماعِز الأعظم، القُدَّاس الأوَّل، والأخير لكراولي،

باريس، فرنسا، عام ١٩٠٠م.

اسْـتَلْقَت امـرأةٌ عاريـةٌ، عـلى مصطبـة مُغطَّـاة بدثـارٍ داكِـن، ترتفـع بأطـراد فـوق المِنصَّـة الكُـبرى للمَحْفَـل، ترْتَكـن خلْفهـا نجمـةً خُماسـيَّة تشـير رؤسـها إلى رمـوزٍ تعكـس عنـاصر الطبيعـة الخمـس: المـاء، الهـواء، النَّـار، التُّربـة، والطبيعـة، رُسِـمَت بداخلهـا وجـه الماعِـز الأعْظَـم، كثيـف الشَّـعر، تقـدح عينـاه شَـرَرًا. تناثَـرَت شـموع هادئـة في أكـثر مـن موضـع عـلى المصطبـة، حيـث انْتَصَـب الكاهِـن، أليسـتر كـراولي، مُلَفَّعًـا في عبـاءة سـوداء فاحِمـة كمنتصـف اللَّيـل، ذات قلنسـوة مُبَطَّنـة بريـش أحمـر اللَّـون تُغَطّـي رأسـه الدَّائـري الحليـق كبيضـة، أمَـام طاولـة عريضـة صُنِعَـت مـن الحجـر الجـيري، وقـد وضعـت فوقهـا شـمعتيْن مُتَّقدتـيْن وهجًـا واحمـرارًا، مَبْخَـرَة، سـكّين ذا مقبـض مُرَصَّـع بالذَّهـب، كأس فارغـة، كُتيِّـب نُقِـشَ عـلى غلافـه الجِلْـدي «مُصْحَـف بافوميـت»، أو كـمَا يُعْـرَف لـدى الشُّـعوب بـ «إنجيـل الشَّـيطان».

شـخوصٌ ضِخـام الجُثَّـة، يرتـدون الأَسْـوَد، يرْتكـزون حـول الكاهِـن كظِـلال غـير مَرْئيـة: اثنـان بجانبـه عـلى المصطبـة، ثلاثـة حـول المـرأة العاريـة مَنْفُوشـة الثَّديـيْن، اثنـان يُظلِّـلان مقدِّمتـي أعضـاء الكنيسـة،

المتكدِّسون في حشدٍ هائلٍ في مساحة واسعة على جانبي الكنيسة، وبالمنتصف سُجِّيَت الأرض الحَجريَّة، طوليًّا، ببساطٍ أحْمَر يصل إلى طرف المنصَّة، حيث تقف شُعْلتيْن شامختيْن تُنير المَحْفَل بأسره، تُبعِث الرَّهبة في النُّفوس، والإعياء في القلوب، والكِدر في العيون.

لكن يبدو أنَّ هذا لم يؤثِّر سَلْبًا على الأعضاء، فَصاحة ابتساماتهم، وانتباههم نحو كاهنهم الأكبر، ومخلّصهم من عذاب الأديان المنحرفة عن مسَار الابتهاج الرّوحي الحقيقي، وانتظارهم لبدء القُدَّاس الأول حفاوةً بمناسبة بِناء هذه الكنيسة بعد جهدٍ جَهيد مع السُّلطات الفرنسية. أعينٌ مترقِّبةٌ، وجوهٌ جامدةٌ كالحجر، نُفوسٌ مُنْتَشيةٌ، ضمائرُ مَنْزوعةٌ بإحكام!

بقدر ما كان الجو حارًّا صَهيدًا كئيبًا، إلَّا أنَّ حضور أليستر كراولي، وقيادته للقُدَّاس الأوَّل في الكنيسة المُشيَّدة من أحجار الجير (المستخرجة من أهرامات الجيزة سِرًّا)، أضافَ رهبةً وترقُّبًا مُمْتِعًا فيما ينوي فعله هذا المساء. فعلى حد زعمه في وثيقة الإعلان عن هذا القُدَّاس، قال: «قُدَّاس كنيسة الماعِز الأعظم الأوَّل سيكون بمثابة ولادة جديدة لأعضاءها، حيث وللمرَّة الأولى في حيواتهم، سيرون بأعينهم أرواحهم وهي ترْقُص تحرُّرًا وسعادةً بإلههم الحقيقي».

ولهذا كان الانتظار والتَّرَقُّب على أحر من الجمر، فهؤلاء النَّاس قد تركوا أديانهم في لحظات ضعف واكتئاب ويأس من الحياة، استغلَّهم كراولي، بمكره الدَّاهِ وسَلاسَة أساليبه الإقناعية التي تفرَّد بها دونًا عن سواه من البشر، لتأسيس مَذْهَبه الخاص والدَّعوة لعبادة الشّيطان، الإله الحقيقي لهذا الكون (حسب عقيدة الكنيسة)، وتحقيق

نجاحه الـذَّاتي، بعـد انقسـام مجتمـع «العهـد الذَّهبـي» إلى معسـكرين منفصلـين، أحدهـما برئاسـة فَـار فلورانـس في لنـدن، والآخـر هُنـا، في مدينـة باريـس بقيـادة المُشَـعْوِذ مـاذرز مَاجريجـور، والـذي يسـعى كـراولي لإبهـاره الليلـة بتقديمـه للأُضحيـة، ليحصـل عـلى رتبـة أعـلى «كاهِـن أعـلى».

الأُضْحيـة تتمثَّـل في كارولينـا، الفتـاة المخدوعـة، المَشْـطوف دماغهـا بالسُّـم والعَسَـل، التـي لا تـزال تظـنُّ أنَّهـا سـترتقي مرتبـةً أعـلى في حضـور «الوحـش أليسـتر كـراولي»، وإطلاعهـا عـلى كافَّـة أسْرَار الوجـود المحجوبـة عـن البـشر، عـدا مَـن بداخـل هـذه القاعـة الفسـيحة. في حقيقـة الأمـر، سـتحصل كارولينـا عـلى مرتبـة أعـلى؛ ارتقـاءًا روحيًّـا سيُسـاعد كـراولي في مُهِمَّتـه التَّـالي في مـصر.. لـذا، لم تكـذب المـرأة حيـال ذلـك!

يُقَـام القُـدَّاس بالتَّزامُـن مـع دوران كوكَـب فينـوس (الزَّهْـرَة) دورةً كاملـة في السَّـماء، إذ أنَّ المُعْتَقَـد السَّـائد لـدى هـذه العقيـدة أنَّ هـذا الكوكـب يُحـدِّد في دورانـه، كل أربـع سـنوات، النَّجمـة الخُماسـية كاملـةً، بعناصرهـا الطبيعيـة الخمسـة، فتنفتَّـح أبـواب الأراضي العُلويَّـة والسُّـفلية، ويكـون قبـول الأُضحيـة مـن قِبـل «الإلـه الحقيقـي» وأعوانه مـن شـياطين الجـان أكـثر تفاعُـلًا وتجليًّـا أمـام النَّـاس في الكنيسـة.

رَفَـع أليسـتر كـراولي السّـكين إلى أعـلى، قابضًـا عـلى مِقْبضهـا الذَّهبـي بقـوَّة، وجهـه مُتَماسِـك وصلـد، عينـاه فيهـما إصرارٌ مُريـب، كشـف أحد مُعاونيـه عـن سـاعِده أمـام الملأ، ولم ينْشـب أن غَـرَس النَّصـل الحـاد في جِلْـده، مُقطِّـرًا دمـاءه في الـكأس الموضوعـة عـلى الطاولة، سـالَت الدّماء بعـد ذلـك كشَـلَّال، لم يُصـدِّق أحـد مـن الحاضرين مَـدى قوّتـه وعزيمته القاهِـرة في تحمّلـه لهـذا القدر من الألم، إذ لم ينجلي على وجهه أي تعابير

توحي بأنَّه يتألَّم، أو قد تأثَّر أصلًا.

أعـادَ السّـكين في مكانـه، دون أن يُغطّـي سـاعِده، أمْسَـك بالـكأس وتوجّـه بهـا ناحيـة المـرأة المنسـدحة، فخْذيْهـا سـمينيْن، وجِلْدهـا صَقيـل كالإسـفنج، وجمالهـا لا يُنافسـه جـمال امـرأة أخـرى، المواصفـات المطلوبـة تمامًـا لمثـل هـذا الطَّقـس، أسَـالَ الدمـاء عـلى جسـدها رويـدًا رويـدًا، ابتـداءًا مـن وجههـا، رقبتهـا، صدرهـا، بطنهـا، وحتَّـى فرْجهـا وقدميْهـا، لم تلتـقِ أعينهـما أبـدًا.

عـادَ كـراولي إلى موضعـه، اغْـتَرَف بيـده بخـورًا وألْقاهـا في المَبْخَـرة، أُشْـتُعِلَت، فـاحَ دُخَّانهـا وأريجهـا أرجـاء المَحْفَـل، تَـلى بعـض الكلـمات السُّريانيـة المبهمـة بصـوت خفيـض، وقـام بعمـل الطَّقـس كـمَا موضَّـح بالصـورة الآتيـة، أُخـذَت مـن إحـدى كتبـه وهـو يـشرح هـذا الطَّقـس تحديـدًا..

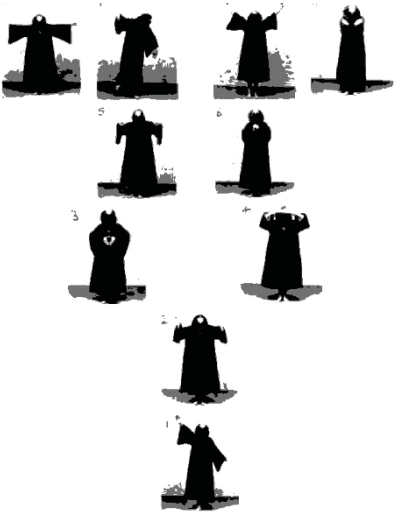

وفـور أن أفْـرَغ مـن هـذا الطَّقـس المُسَـمَّى بـ «ترسـيخ الحضـور الجُسْـماني»، اعتـلى سـلّمة ليطـلّ بوجهـه عـلى المَحْفَـل بـأسره والحاضريـن، رفـع ذراعيْـه إلى أعـلى، اشرئـبَّ بعنقـه في أُنْفـةٍ، واسـتطردَ أولى كلماتـه بصوتـه الأجـشّ، مفتَتِحًـا القُـدَّاس:

- « الجحيـم ليـس بِبُحـيرةٍ مـن نـار. فالجحيـم ليـس بداخـل الأرض، كـما يدَّعـي أعـداء إلهَنَـا الحَمْقَـى بصـدد تخويـف رعاياهـم والسَّـيطرة عـلى أرواحهـم. إنَّ بعـض الأماكـن في الجحيـم مُظْلِمَـة ومُنِـيرَة بضـوءٍ أزرق مُشَعْشِـع. واللَّـون الأزْرَق في عَقيدتنـا الصَّحيحـة لهـو لـونٌ روحـانيٌّ جـدًّا. كُل مَـن ينْتَهـي مـن مرحلـة الحيـاة، يتحـوَّل إلى الأزْرَق عـلى هيئـة أرواح، بعضهـم، مِمَّـن اتَّبعـوا المِنْهـاج الصَّحيـح، يُرَقُّـون، وتُتَـاح لهـم الفرصـة لزيـارة الأرض ومسـاعدة الضَّالـين التَّابعـين لطريـق اليـد اليُمْنـى، ومـن ثَـمَّ يَتَقَمَّصُـوا ويتَجَسَّـدوا مـن جديـد ليتطـوَّروا إلى الأُلهيَّـة المُطْلَقـة ويحْكمـون العالَـم مـع حامِـل النُّـور، إبليـس. إبليـس الـذي حُرِّفَـت عقيدتـه مـن قِبـل إلـه مُتَعجـرفٍ مـن بـين الآلهـة لينفـرد هـو بحكـم هـذا العَـالم؛ العـالم الـذي أعـدَّه إلهَنَـا بيديْـه، أوحـى لأُنـاسٍ أنَّـه هـو الحَـقّ، ورَمَـى كل الـشُّرور عـلى حامِـل النُّـور ليُضِـل أكـبر عـدد مـن الخلـق».

صاحَ أحد الأعضاء بانفعال، ناثِرًا رذاذه على الرُّؤوس أمامه:

- «هذا الإله مَطْلوب حيًّا أو ميِّتًا!!!».

قُبِلَت كلماته بصيحات مؤازِرة من البقية، فاسترسل كراولي:

- «سـيحدث هـذا عاجِـلًا أم آجـلًا.. حينـما تتوحَّـدون، وتستمسِـكون بعقيدتكـم، وتَنْـثرون الرُّعـب والدَّمـار لأولئـك العُصـاة الكارهـين لإلهُنـا، فتُجَرِّدوهـم مـن دياناتهـم المُزَيَّفـة، وتَضُمُّونهـم إلى جِلْدتنـا.. فـإنَّ حامِل

النُّـور لا يـردّ عـاصٍ تائـبٍ عـرف طريـق الخـلاص. صحيـح أنَّـه قـد خـسر معركتـه مـع هـذا الإلـه، ولكنَّـه لم يخـسر الحـرب الأبديـة. إنَّـه يريدكـم أن تـؤازروه، وتنـصروه في الحـرب، انـصروا إلـه هـذا الدَّهـر تهنئـون بالحيـاة الدُّنيـا ومـا بعدهـا يـا إخْـوتي!!».

ثـم افتتـح الكتـاب الموضـوع أمامـه، وتَـلَى جهْـرًا بعـض المقاطـع بلسـان الشَّـيطان مـن فصـول مختلفـة، نَصُّهـا كالآتي:

(أخـذ وأُعْطِـي، أغنـي وأفقـر، أسـعد وأشـقي، وذلـك حسـب الظـروف والأوقـات. ليـس هنـاك مَـن يحـق لـه أن يتداخـل في شيء مـن تـصرُّفي. أجلـب الأوجـاع والأسـقام عـلى الذيـن يضاددوننـي؛ ولا يمـوت الـذي هـو مَـن حسـبي كسـائر بنـي آدم. مـا أسـمح لأحـد بـأن يسـكن هـذه الدنيـا أكـثر مـن الزمـن المحـدود منـي؛ وأن شِـئت أرسـلته إلى هـذا العـالم أو غـيره بتناسـخ الأرواح. أُظْهِـر مُعْجِـزاتي وعجائبـي للذيـن يقبلونهـا ويطلبونهـا في وقتهـا. لكـن الأجانـب هـم أعـدائي، لذلـك هـم مخالفـون ومضـاددون لي ولا يبالـون بذلـك، وهُـم مـا يـدرون هـي ضرر عليهـم لأن العظمـة والـثروة والغنـى بيـدي، وأنـا أختـار مـن يليـق لهـا مـن نسـل آدم. تدبـير العـوالم وانقـلاب الأجيـال وتغـير مدبريهـم منظومـة منـذ القديـم. يـا أيهـا الذيـن آمنـوا، أكرمـوا صـورتي وشـخصي، لأنهـم يذكرانكـم بي. أحفظـوا سُـنَنِي وشَرَائعـي. أطيعـوا وأصغـوا إلى خدُّامـي بمـا يلقنونكـم بـه، ولا تبيحـوا بـه قُـدَّام الأجانـب كاليهـود والنصـارى والمسـلمين وغيرهـم؛ لأنهـم لا يعلمـون مـا هـو تعليمـي. لا تعطوهـم مـن كتبكـم، لئـلا يغيرونهـا عليكـم وأنتـم لا تعلمـون. احفظـوا أكـثر الأشـياء غيبًـا لئـلَّا تتغـيَّر عليكـم).

صاحَ الجميع في نَفسٍ واحد هائج: آآآآآمييييييين!!

والآن، حـان وقـت الصَّـلاة الإبليسـية، جوْهَـر القُـدَّاس، وتمهيـدًا لتقديـم القُرْبـان لحامِـل النُّـور ليتنسَّـم رائحـة الـرِّضى، ويُطهِّـر أرواحهم جميعًـا.

أولًا يأتي التَّضرُّع إلى إبليس..

رتَّـل الجميـع في آنٍ، بينـما كان كـراولي لا يـزال رافعًـا ذراعيْـه، مُغلِقًـا عينيْه :

«إِنْ نُوْمَايـنْ دَاي نُوسْـتِرِي سَـاتَانَاسْ، لوسِـفرِي إِكْسَـلْسِي: بِاسْـمِ سَـيِّدُنَا الشَّـيْطَانُ، إِبْلِيـسَ الْعَظِيـمَ، بِاسْـمِ الشَّـيْطَانُ حَاكِـمُ الأَرْضَ عَـزّ وَجَـلَ، الـرَّبُّ الْحَـقّ الْقَـادِرُ عَـلَى كُلِّ شَيْء، فَائِـقِ الوَصـفِ، الَّـذِي خَلَـقَ الإِنْسَـانَ عَـلَى صُورَتِـهِ وَشَـبَهِهِ. ادْعُـوا قْـوَى الظَّـلاَمُ لْمُنْحَـيّ قَوَاهُـمّ الَّجَهَنَّمَيْـةِ. افْتَحُـوا أَبْـوَاب الَّجَحِيـم لِتَتَقَدَّمُـوا وَتَحْيَوْنَنَـي كَأَخَ/أُخَـتٍ وكَصِّدِّيقَ/صِّدِّيقَـةٌ لَكُـمْ. فلتخَلِّصَنِـي يـا إِلهِـي الْعَزِيـزُ إِبْلِيـس مِـنْ جَمِيـعَ زَلاَتِي وأَوْهَامِـي السَّـابِقَةِ، وَإِمَـلأْنِي بِالْحِكْمَـةِ وَالْفَهْـمِ وَالْمَعْرِفَـةِ. ثَبِّتَنِـي عَـلَى دِينِـي وَعَـلَى ذِكْـرِي، فألتـزَمَ دَائِمًـا بجَلاَلِـكَ بحَمْـدٍ، الْمَجْـدِ وَالـشُّرُفِ لجَلاَلِـكَ إِلَى الأَبَـدِ وَدَائِمًـا».

ومـع تجرُّعهـم لكـؤوس النَّبيـذ التـي كانـت في أياديهـم، وصـل الُقـدَّاس إلى ذُرْوَتـه، قَـرَع كـراولي والكَهَنـة النَّاقـوس الذَّهبـي، فاسـتدار الجميـع نحـوه في انتبـاه.. فقـد حـان وقـت تقديـم القُرْبَـان!

فُتِحَـت الأبـواب الخلفيـة للكنيسـة، تقدَّمـت كارولينـا عـلى البسـاط الأحمـر، بـين المشـاعل والشُّـموع البرَّاقـة، تشـعر أنَّهـا في حلـمٍ جميـل، عاجـزة عـن التصديـق، لقـد وصلـت إلى هـذه المرحلـة مـن حياتها وهي لا تـزال صغـيرة، تسـير بجانبها المرأة ذات الشَّـعر الأحمـر، وصلت بها إلى

حيث يقف كراولي، انحنت له في إجلالٍ وخشوع، لقد أتمَّت دورها على أكْمَل وجه، وحان وقد رحيلها لاصطياد فريسةً أخرى ساذجة. وقفت كارولينا أمام الطَّاولة الحجرية، مُطْرقة الرَّأس، خاشِعة، صاغِرة، ضآلة جسدها تتناسَب عكسيًا مع فساحة المكان، وأبدانه الضَّخمة الخشنة عديمة الرَّأفة والضَّمير، علمت أنَّ السَّاحرات قد عُدْن إلى البيت وقُمْنَ بطعن والدتها بالحِراب حتَّى الموت، لكن هذا لم يكن هامًّا بقدر وقوفها الآن في حضرة صاحِب الجلالة، الكاهِن، الوحش، أليستر كراولي، الذي تقدَّم إليها ببطء، يتفحَّص وجهها بنظراتٍ جامدة، صلبة، قاسية. أمرها بأن تُغْلِق عينيْها، وتستعد لمراسِم التَّتويج، ففعلت كمَا أمر. أمرها أن تتبعه إلى أعلى المنصة وهي مغمضة العينيْن، صعد بها إلى حيث انسدحت المرأة العارية، خطى بِها إلى ما خُفيَ وراءها من أهْوال بالغة المدى: طاسَة كبيرة، مُحماة بالنَّار، تستطيع كارولينا سماع طَقْطَقة جذواتها إذ تأكل بعضها البعض في شَراسة، لم تتوقَّع أبدًا أنَّ هذه النيران قد أُعدَّت لهَا خصيصًا، ظنَّت أنَّ كراولي يذهب بها إلى حيث المنصَّة، يُلبْسها ثيابٍ سوداء، يطبع على ظهرها رمز حياتها الجديدة، يضع على رأسها تاجًا، ربما، من الأغصان، ويُعْلِنُها أمام الجميع عضوة جديدة في كنيسة الماعِز الأعظم. أحلام الأطفال لا طائل مِنها، والأمنيات والتَّوقُّعات لا تتأتَّى أبدًا، طالما كنت مقْبوضًا بين براثن الوحش!

هي مَن انصاعَت، هي مَن رضخت، كان لهَا الإرادة الكاملة لأن ترفض كل ما غرسته المرأة في رأسها، كان ينبغي عليها أن تخبر والديْها عن كل شيء في بادئ الأمر، ما كان عليها أن تعصي والدها وتتحدَّاه وتتّبع هواها، ما كان لأبيها أن يُفْرِج عنها قط!

تنهَّدت، ثبتت في مكانها، لم تكد أن تشدُّ حبل أفكارها المُعلَّقُ عليه كافَّة الأحلام والرُّؤى المستقبلية لهَا، حتَّى فتَّحت عينيْها فجأة، في رعب وهول، صرخت حين رأت نفسها في وسط النَّار، لم تجد الوقت في صالحها كي تستوعب أنَّها بالفعل تُحْرَق حيَّةً، النَّار تلتهم جِلدها، وتطهو لحمها بامتياز، صرخاتها، تأوُّهاتها، توسُّلاتها، هَسيسها في لحظة نَزْعها الأخير، لم تُلْقِ حجرًا في مياه كراولي، والمرأة العارية، الرَّاكدة. كان يراقبها بشغفٍ، بانصياع للواجب الذي يتحتَّم عليه فعله، وسط هِتافات الأعضاء المبجلة للشيطان والسَّعيدة كثيرًا برؤيتها للأرواح وهي تتراقص أمام أعينهم سعيدةً، مُبشِّرةً بقبول إلههم للأُضحية، ورضاه التَّام عن كل الموجودين في هذا المحفل ووعدهم بجزيل الثَّواب وبتطهير أرواحهم من دنس الأديان. فلا دين إلَّا دين إبليس، ولا عقيدةً تُرْضيه سوى عقيدة «الحُرية المُطْلقة للروح».. وهو ما فصَّله كراولي، لاحقًا، في كِتابه «كتاب القانون»، الذي ألَّفه في مصر.. تحديدًا داخل الهَرَم الأكبر.

لمَّا انتهت مَراسِم القُرْبَان، أشارَ أليستر كراولي للجميع بيده أن يهدأوا وينتبهوا له، فقال:

- «اليوم، ضَحَّينَا بهذه الطفلة لأجل خاطر إله هذا الدَّهر، وقد أعْلَن تقبّله للأُضحية كمَا رأيتم جميعًا. وغدًا، يُشْرِق لكم حيواتكم ويُنِرها بنوره الذي لا ينفذ أبدًا. إنَّ لديكم مُهِمَّة يجب أن تُكرِّسوا مَحياكم لأجل تحقيقها: أُمْكروا كثيرًا، استعملوا عقولكم لأجل تدمير ما قَدَّسه العامَّة خطئًا، سيطروا على العالَم وأرفعوا راية لوسيفر (حامل النور) وإن تطلَّب الأمر غِطاءً سياسيًّا أو حتَّى دينيًّا، فالضّرورة تُبيح أحيانًا المحذور. واعلموا يا إخوتي أنَّ إلهكم لا يطالِب بعبادة

اســتعبادية، ولا يتوقَّــع مِنَّــا أن نكــون «آســفين جالديــن لذواتنــا». فإلهُنا الرَّحيـم يقـدم لنـا المعـارف ويتوقَّـع مِنَّـا تطبيـق هـذه المعـارف لتطويـر قوانـا وأرواحنـا. إبليـس يريدنـا أن ننمـو، ونتطـوَّر وأن نصبـح اسـتقلاليين نفعـل مـا نشـاء بـلا قيـود أو ضوابِـط تخنقنـا، وتحـطُّ مـن قـدر أرواحنـا التـي خُلِقَـت عـلى هـذا النَّحـو».

انتهـى أليسـتر كـراولي مـن كلماتـه، وتوجَّه مبـاشرةً إلى المـرأة العارية، تأمَّلها لبضـع دقائـق لم تطـل، عَلَـت أصـوات الموسـيقى الصَّاخبـة في كل مـكان، وبِـلا قيـود، وصيحـات وهتافـات الجميـع تمجيـدًا لإلههـم، بينـما كانـت هـي لا تـزال مسـتلقية عـلى المصطبـة، تميـسُ في غنـج ودلالٍ، تسـتقطب شَـهْوته بنظراتهـا المتفرّسـة النَّاريـة، تنفـرج سـاقيْها عـلى آخرهـما لتتـورَّد وردتهـا المنغلقـة الفاسِـدة، خلـع عباءتـه، خطـى نحوهـا عاريًـا، ازداد قـرع الطُّبـول، ازدادَ التَّوتُّـر والصَّخـب، اعتلاهـا بجسـده الضَّخـم، همـس لهَـا قبـل أن يُباشِرهـا بقـوَّة ضاريـة:

- «انجبي لي طفلًا. فلدينا رحلةً إلى الهرم الأكبر!».

* * *

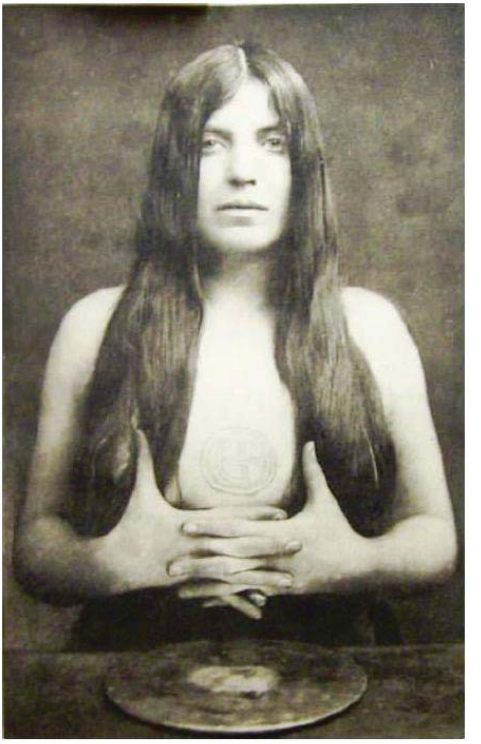

L. A. Y. L. A. H.

٢٤

اسْـتدْعِيَ الأمـر أن تُرْبَـط أسْرَار بحِبـالٍ غليظـة كأغـلالٍ قاسـية في سَريـر إحـدى غُرَفتـي الشّـيخ رمَّـاح، سـاعَده في ذلـك أبيهـا ولفيـفٌ مـن أهـل الحـارَة وحَسَـن. كانـت أقـوى منهـم جميعًـا، تـصرخ بهيسـتيريا وتـضرب وتصفـع كل مَـن يقـترب مِنهـا مسـافةً حدَّدهـا راكِبهـا، لكنَّهـم قـد توكَّلـوا عـلى اللـه، وانقضُّـوا عليهـا عـلى قلـبِ رجـلٍ واحـد، واسـتطاعوا تقييدهـا وربطهـا بالحِبـال بقسـوة شـديدة، وإن صـاحَ عـم سَـعْد في الجميـع، بدافـع العاطفـة الأبويَّـة، أن يخفّـوا أياديهـم قليـلًا وهُـم يربطوهـا حتَّـى لا تُـؤذَى.. فإنَّـه يُريـد أن يـؤذي مَـن بالدَّاخـل، وليـس جسـدها. لا يسـتطيع أن يمحـي مـن لوحـة مخيالـه نظراتهـا لهَـا بعـد ربطهـا، نظـرةً أليمـةً مُسْـتَعطِفةً. لكـن أخـبره الشّـيخ رمَّـاح ألَّا ينخـدع بهـذه النظـرات.. فإنَّهـا لا تمـتُّ لابنتـه بصلـة!

فاحَـت الهَمْهـات متسـائلة حـول مـا أصـاب أسْرَار.. هـل هـو مَـسٌّ خالِـصٌ؟ سـحرٌ؟ حسـدٌ؟ أم عمـلٌ سُـفليٌّ؟ لكـن وفَّـرَ الشّـيخ رمَّـاح عليهـم كُل أسـئلتهم الحائـرة بقـولٍ واحـدٍ عـن ثقـة وإيمـان مُطلـق:

- «أسْرَار أصابهـا مَـسّ مـش سـهل أبدًا. وهـي اللي راحَتلـه برجليها.. أو حَـد جابهولهـا؛ لإنَّـه عمـره مـا بيقـدر يسـيطر عـلى حـد إلَّا لمَّـا الطـرف الآخـر يروحلـه بكامل إرادتـه الحُـرَّة. أسْرَار أقحمت نَفْسـها في لعبـة قـذرة هـي مـا كنتـش قدَّهـا، والعيـب والغلـط عليكـوا

علشان أهملتوها طول الفترة دي!».

أشَـار بيـده إلى عائلتهـا، الجالسـة على إحـدى الكنـب. كان الحاضرين مؤلَّفـين مـن عائلـة أسْرَار: عم سَـعْد، السِّـت رضـوى، أماني، عبـد الرحيم، حَسَـن، وبعـض مـن أكابـر دكاكـين الحـي جـاءوا خصيصًـا ليـؤازروا عـم سَـعْد في محنتـه. ولحسـن الحـظ أنَّ بيـت الشّـيخ رمَّـاح كان فسـيحًا فاتَّسـع لـكل هـؤلاء النَّـاس برحابـة. ظـلَّ الشّـيخ رمَّـاح، بعـد ذلـك، يطمئنهـم ويحـاول التَّخفيـف عنهـم، كأنّـه واثـق تمامًـا مـن انتصـاره في هـذه المعركـة، رغـم صعوبتهـا في نظـر الجميـع، إلَّا أنَّـه بـدا راسِـخًا تمامًـا في علمـه، وحكيـمًا في اتخـاذ قراراتـه وفي تأنيـب الأهـل حـول تقصيرهـم في تربيـة الفتـاة، وتلتمـع في عينيْـه رُقْعَـة مُتَشـكِّكة حـول حَسَـن. فبحسّـه الرّوحـي، يعلـم أنَّ سِرًّا مـا وراء هـذا الشَّـاب، يتعلَّـق بـكل مـا حـدث لأسْرَار. لذلـك وجّـه لـه سـؤالًا مُباغِتًـا، بقولـه:

- «فاكِر فترة طفولتك يا حَسَن، مع أسْرَار؟».

لم يتعجَّـب مـن السُّـؤال، لكنَّـه تعجَّـب مـن نظـرات الشّـيخ اللَّحوحة للغايـة لأن يسـتنطقه بمعلومـةٍ مـا يحتاجهـا، منـه هـو تحديدًا!

قال:

- «يعني.. فاكر شوية كده..».

قال الشّيخ رمَّاح:

- «أنـا أسـمع إنّكـوا كنتـوا قريبـين مـن بعـض أوي.. كتـير كنـت بشـوفكوا بتلعبـوا مـع بعـض.. مـش كـده ولَّا إيـه؟».

نظـرةً خاطفـةً سريعـةً، ألقاهـا حَسَـن عـلى أمـاني، التـي بدورهـا لم تهتـزّ مِنهـا شَـعْرة، أجابـه بـتردُّد:

- «أه.. صح».

تنهَّد الشّيخ، ولم يوجّه له أسئلة أخرى منعًا لإحراجه. فليس الآن وقت الحِساب!

* * *

طلب الشّيخ رمَّاح من أهل الحارَة، إحضاره كل الطلبات التي يُريدها لاقتحام الغرفة عند الغروب: بخور لبان مغربي، بخور جاوي، ميْعة سائلة، ثُفَّاح الجان (كزبرة)، المزيد من ماء الورد، قطع من التَّمر، مِسْتِكَة، وعود النّد. بينما كلَّف آخرون، بقيادة أماني، أن يُفتِّشوا بأرجاء منزل عم سَعْد عن ورقة بها الطَّلْسَم نَفْسه المتسبِّب في كل هذا العناء، فيجب أن يجدوه بسرعة، فإذا أوتيَ به وأُحْرِق، يقطع الشّيخ شوطًا طويلًا في هزيمة هذا اللَّعين!

وبينما وهو ينتظر مجيء ما أمر به، وجّه أحد الجالسين له سؤالًا يتعلَّق بماهيَّة عمله، ولماذا ينبغي عليهم الثقة به، فكان ردّه، نصًّا:

- «أنا، بكل بساطة، مجرَّد وسيط روحي، مولود بشفافية بحمد الله عليا، بستخدمها في علاج المرضى زي ما حضرتك شايف كده.. بالقرآن والتسابيح والأدعية.. مش باخد فلوس، لإنّي الحمد لله مَسْتور ومش محتاج حاجة من حد. يمكن حضرتك أول مرَّة تسمع عني النَّهاردة، وتتعرَّف على اسمي الغريب، رغم إنّي عشت في المكان ده عشرين سنة! وأعرف تاريخه وأصله وفصله.. تقدر تقولي يعني إيه فِرياني؟ اسم الحارة اللي سيادتك ساكِن فيها».

هزَّ الرّجل رأسه بلا. حاول البعض استعراض معلوماتهم التاريخية

أمـام الشّـيخ رمَّـاح. فقـال أحدهـم أنَّ الحـارة سُـمّيَت باسـم الفِريـاني نِسْـبةً لخِـضر الفِريـاني، أول مَـن قطـن بهـا عـام ١٨٩١ هروبًـا مـن جريمـة قتـل في إحـدى قُـرى صعيـد مـصر، اختبـأ بهـا داخـل منـزل بنـاهُ بنفسـه، عـلى نفقتـه الخاصَّـة، وسـكن فيـه وحيـدةً. شـيئًا فشـيئًا بـدأ السُّـكان يبنـون بيوتهـم في الحـارَة، بيتًـا مُتاخِـمًا بيتًـا، لا يمـرُّ بينهـما فتيـل، مجـرَّد أبنيـة اسـترخصوا في أساسـاتها تحـوي بيوتًـا في كل دور متكدّسـة فـوق بعضهـا البعـض، سـكن بهـا عائـلات اسـتمرَّ نسـلها إلى الآن، وأصبحـوا تُجَّـارًا وأصحـاب أكشـاك ودُكاكـين ومقاهـي، لكـن النسـبة الكبـيرة منهـم قـد باتـوا «علاولـة»، لا يعملـون أبـدًا. ظلَّـت سـيرة خِـضر الفِريـاني حسـنة ولا تشـوبها شـائبة، بـل أنَّهـا وصلـت إلى حـد «التَّـبرُّك بـه»، بعدمـا نصَّـب نفسـه شـيخًا عـلى الحـارة، مُجَـلًا، شـفَّافًا، ذو كرامـات ومعجـزات حسّـية ومادية، مُعالِـج بالقـرآن، وقاهِر للأعـمال السُّـفلية الخبيثـة. قيـل بعدهـا أنَّ مـا تسـبَّب في حريـق بيتـه، ومـا أدَّى إلى انهـدام العـمارة بأكملهـا، هـو جنّـي خبيـث كان يُصارعـه، واسـتطاع الجنّـي التَّغلُّـب عليـه بـل وإرسـاله إلى حتفـه حرقًـا، هادِمًـا العـمارة بأكملهـا، ومُمَهِّـدًا في مـا تُعـرَف الآن عنـد أهـل الحـارة باسـم الخرابـة.

كانـت هـذه هـي القصـة المعروفـة المعهـودة عنـد أهـل الحـارة، ولا يختلـف عليهـا اثنـين. لكـن كان للشـيخ رمَّـاح رأيًـا آخـرًا مُخالِفًـا تمامًـا كل مـا جـاء في القصّـة، إذ اسـتطرد، في ثقتـه المعهـودة، وثباتـه التَّـام الـذي يوحـي لمُحدِّثـه أنَّـه حتـمًا يعـرف ويـزن كل كلمـة يقولهـا:

- «خِـضر الفِريـاني مـا كنـش شـيخ.. كل دي أوهـام اتزرعـت في عقولكـوا علشـان ينقَّحـوا سـيرته، ويبقـى للحـارة تاريـخ قايـم عـلى «الطَّهـارة». خِـضر كان أكـبر سـاحِر شـهدته المنطقـة وقتهـا، سـاحر

خبيـث وسـوداوي. هـو فعـلًا اتطـرد مـن الصّعيـد، بـس بسـبب أعمالـه الشّريـرة وبلاويـه الزَّرقـا في أهـل حتّتـه هنـاك، جيـه هِنـا واسـتأنف حالـة أعمالـه وشروره.. حتَّـى أهـل الحـارة الـلي سـكنوا بعديـه مـا سِـلْموش مـن شرّه: كل أسـبوع كان لازم في طفل بيختفي مـن الحـارة، وعُمـر مـا حـد قـدر يوصـل لمكانهـم أبـدًا، لغايـة مـا بالصدفـة البحتـة، والـلي بسـمّيها «ربَّانيـة»، واحـد لمحـه وهـو بيسـتدرج أحـد الأطفـال في الحـي المجـاور، فضـل مراقبـه لغايـة مـا طلَّـع الطفـل ده لبيتـه، ومـن سـاعتها والطفـل ده مرجعـش لأهلـه. أهـل الحـارة اتفقـوا إنهـم هيقتحمـوا المنـزل، ويجيبـوا عاليـه واطيـه.. وهـو ده الـلي حصـل بالفعـل، لكـن أول مـا جُـم تحـت البيـت.. سـمعوا صرخاتـه واسـتغاثاته، شـافوا نـار بتتحـرق طالعـة مـن بلكونـة بيتـه، مـا حَـدِّش اتجـرَّأ يخطـو خطـوة لعتبة العـمارة.. شـافوها وهـي بتقـع قصـاد عينيهـم مـن الحريـق.. وبَقِـت الخرابـة المعروفـة الـلي اكتسـت بالأسـاطير».

فغـر الجميـع أفواههـم، مـا الـذي يتفـوَّه بـه هـذا المافـون! هـو أصـلًا ليـس مـن هُنـا، فكيـف يُعلِّمنـا تاريخنـا؟؟!

ثاروا عليه وهاجوا وماجوا، لكنَّه أشارَ لهم بالهدوء، وقال:

- «مـش هتفـرق مـين فينـا الصَّـح.. المهـم إن الراجـل ده هـو السَّـبب في اللَّعنـة دي كلهـا أصـلًا. هـو الـلي اسـتقبل كبـير سَـحرة العـالم أليسـتر كـراولي، وعملـوا شـغل هايـل مـع بعـض!».

لم يكـد أن يتسـائل أحدهم «لعنة إيـه؟»، و«مين سي كرالِّي ده!»، حتَّى تناهـى إلى مسـامع الجميـع صَفـير يـأتي من غرفـة أسْرَار.. صفير سـخيف ومزعـج كطنـين. هُنـا، نهـض الشّـيخ مـن مجلسـه، وقـال: «بـدري أوي..

هُمَّ اتأخروا كده ليه!؟».

* * *

يُقال أنَّ الملك أبا دياج، هو ملك مخضرم وحاكم القُرَناء، العُلويَّة والسُّفليَّة، الإنساني والحيواني، ملك من المتصرّفين في الأرض، ولديه من الخدم والحشم ما لا تُعَد ولا تُحْصى، يتواصَل معه الوسيط الرّوحاني لأهدافٍ سامية، لا ترمي إلَّا للخير والعلاج، واستدعاء قرين المريض لمعاونته في فك الطَّلسم أو السّحر أو القضاء على المسّ الجسدي، كمَا هو الحال مع أسْرَار، حيث أنَّ كل هذه الطلبات التي استطلبها الشّيخ رمَّاح من أهل الحارة كانت بصدد استجلاب قرين أسْرَار، العُلوي، الذي شحذته المرأة العجوز كمَا يُشْحَذ السّيف ليتصدَّى لأي ضرائر حلَّت عليها بسبب ما أقْحمت نَفْسها به، من رحمة الله عليها ومحاولته لمساعدتها، لكنَّها لفظته -أي القرين- حين أخافته وأرْعبته في حادثة بير السّلم. كان سيُقدِّم لها المشورة والمعونة، ويُطْلعها على المسّ القابض على جسدها، ويُذكِّرها بأحد نصوص الميثاق الذي عُقِد مع العفريت حزقيائيل؛ هذا النَّص هو ما أزاح كل ذكريات ماضيها بعيدًا، ليفعل بها راكِبها كيفما شاء وكمَا يحلو له، ويدفعها للجنون كمَا فعل مع حالات قبلها خارج الأقطار المصرية!

عملية استدعاء القرين تتطلَّب مُعالِج روحاني، وليس هاوي فضولي لا يشغله سوى شغفه وحمقه وخبوله. لذلك أُحذِّر من تِكرار هذه العملية دون الرُّجوع إلى مُتخصِّص؛ إذ أنَّ القرين ينقسم لقسميْن: عُلوي وسُفلي، كُلاهما يخضع لعملية استدعاء مشابهة في الأصل، مختلفة في الهيكلة نَفْسها، فلا تدري هل ستفعلها بالطريقة الصّحيحة

الغـير مُخالِفـة للـه، أم أنَّـك سـتجلب عليـك وعـلى أسرتـك أهـوالًا لا أهـل لـك بهـا؟

خَلَـط الشّـيخ رمَّـاح كل المطلـوب، أعـلاه، بالإضافـة إلى حزمـة أعشـاب طبيعيـة أحضرهـا مـن رفٍّ في المطبـخ، بمـاء الـورد، عصرهـا بـضرب قطعـة حجـر صـوَّان، صنـع مِنهـا مزيجًـا باهِـت اللّـون، قطَّـع مِنهـا سـائل أشـبه بالزيـت كان هـو المطلـوب لإشْـعال المبخـرة الفضّيـة، ثـم طفـق يجـول بدُخَّانهـا العطـر المريـح جـدًّا للنفـس بأرجـاء المنـزل، وحتَّـى غرفـة أسْرَار، التـي كانـت لا تـزال مقيـدة، صاحيـة، تراقبـه بتقزُّزٍ ونفـور، تكرمـش أنْفهـا هربًـا مـن رائحـة البخـور العطـرة، أرْسَى المبخـرة في أحـد أركان الغرفـة وجلـس عـلى الأرض بجوارهـا يُرتِّـل في سِرّه بضـع آيـات مـن القـرآن: آيـة الكـرسي، سـبع مـرَّات متتاليـة، سـورة مُحمَّـد، ثمـانٍ وعشريـن مـرَّة، ثـم نهـض وخطـا ناحيـة أسْرَار، كانـت متعرّقـة ودرنـة وصفـراء مثـل محلـول حامـض، تُريـد أن تنقـضّ عليـه لكـن الحبـال كانـت أقـوى مـن هزيـل جسـدها. شرعـت تهتـز وترتعـش، وتـصرخ، لمَّـا حـطَّ الشّـيخ بكفّيْـه عـلى سـاقها اليُمنـى، تاليًـا دُعـاء مـا قبـل القَسـم، جهـرًا:

- «اللهـم أنـت أعـلى مِنـه شـأنًا وأقـوى منـه سُـلْطَانًا ورجـائي بـك أكـثر مـن خـوفي مِنـه وأمـلي فيـك أكـثر مـن وجـلي مِنـه فقنـي شرَّه واكفنـي همَّـه وأمـره وأصلـح نيَّتـه وأصرِف عنـي أذيَّتـه وإجعـل بينـي وبينـه حِجابًـا حاجِـزًا مـن كليتـك حتَّـى لاينالنـي مِنـه سـوء إنَّـك عـلى كل شيء قديـر ولا حـول ولا قـوة إلا بالله العـلي العظيـم وصـلَّى اللهـم عـلى سـيدنا محمـد وعـلى آلـه وصحبـه وسـلَّم».

تسرَّبـت الرَّاحـة في نفـوس النَّـاس عنـد سـماعهم لهـذا الدُّعـاء، بينـما

تشـنَّجت أسْرَار كالعـادة، وأصـدرت أصواتًـا خرْسـاء مكظومـة، أنينًـا مكبوتًا، فغيَّر الشـيخ نـبرة صوتـه، ضغـط بقـوَّة عـلى سـاقها، واسـتطرد بالقسـم بصـوت أعـلى مـن سـابقه:

- «أُقسِـمُ عليـك يـا أبَـا ديبـاج بالملـك الشَّـامِخ الطَّامِـخ الـذى لـه الأسـماء الحسـنى والصِّفـات العُليـا بحـق علقيـوش علقيـوش، شـه شـه، صـه صـه، طـه طـه، لهـوصر لهـوصر، بعـز عـز اللـه وبنـور وجـه اللـه وبمـا جـرى بـه القلـم مـن عنـد اللـه الى خـير خلـق اللـه محمـد ابـن عبـد اللـه صـلَّ اللـه عليـه وسَـلَّم أجِـب يـا أبَـا ديبـاج ملـك القرنـاء أجـب وتـوكَّل أنـت وأعوانـك وجنـودك ومَـن تحـت طاعتـك وإمرتـك وأحـضر ليـه قرينهـا سـالِمًا مؤمَّنًـا واكشـف لي، وحـدي، عـن حجابـه وأصلـه بي وصلـة رِباطـيْن»!

اشـتدَّت قبضـة الشّـيخ عـلى السَّـاق، أغمـض عينيْـه، وشرع بالتَّواصُل، بالفعـل، مـع أبـا ديبـاج، الـذي جلـب لـه قريـن أسْرَار بسرعـة، كأنَّـه قـد انتظـر هـذه اللَّحظـة بفـارغ الصَّـبر! شرع يتحـدَّث إلى القريـن عـن طريـق التَّخاطُـر العقـلي، فلـم يتبـدَّى أبـدًا هيئتـه سـوى لـه، وأحـدًا لم يسـتمع لصوتـه إذ يُحـدّث الشّـيخ ويُطلعـه عـلى كل مـا حـدث مـع أسْرَار، ابتـداءًا بلقاءهـا لخِتـام، وحتَّـى هـذه اللَّحظـة، وعاهـده بأنَّـه سـيعاونه، بـإذن اللـه، لاخـراج الخبيـث مـن داخلهـا. كان الشّـيخ يقـف في مـكانٍ ضيّـق، مثـل نفـق قصـير، وأمامـه القريـن بهيئتـه المذكـورة في الفصـل الأول، الـذي لا تعـرف إن كانـت تخـصُّ رجـلًا أو إمـرأة. أخـبره أنَّ اللـه قـد سـخَّر المـرأة العجـوز للقضـاء عـلى قرينهـا السُّـفلي المُسـاهِم في اللُّعبـة الدّنسـة، وتمكينـه هـو للقضـاء عـلى الرّجـل الغريـب المُقيِّـد لهَـا، لكـن أسْرَار لم تسـاعده أبـدًا، اسـتلمت تمامًـا للرجـل بوهـنٍ كئـود، فأحالـت بينهـا وبينـه، وازداد الأمـر

فداحـة حـين ذهبـت بهـا أمّهـا إلى الشّـيخ نـاصر الكربـلائي؛ التُّربـة الخصبـة لجميـع أنـواع الـشُّرور والمرتـع لقبائـل الجـان الخبثـاء وأرْواح السَّـحرة الملعونـين..

لكن ليس هو الذي يتلبَّسُها.. ليس هو أليستر كراولي!

فـإنَّ الرجـل الغريـب ليـس إلَّا دِثـارًا يخفـي ملامحـه روح أخـرى مُتألِّمـة تكـره أبيهـا أيَّمَّـا كُـره.. وتسـعى للانتقـام وتخريـب أرواح الأحيـاء كافَّـة في حـين تـم اسـتدعاءها!

يظـلّ السُّـؤال الشَّـاغِل للشـيخ: مَـن الـذي قـام باسـتدعاء هـذه الـرُّوح الخبيثـة، التـي تمثَّلـت في خِتـام لتغـوي أسْرَار إلى مشـارف الهـلاك!؟

* * *

لم يكن حَسَن بريئًا تمامًا من هذه اللُّعبة.

فبإحضـاره لأسْرَار المخطوطـات والطَّلاسِـم، سـاهَم بشـكل أسـاسي في تعزيـز هـذه الـرُّوح وتمكينهـا مـن التَّلاعُـب بعقلهـا والسَّـيطرة عليهـا، كُليًّـا، متـى انصاعَـت لكافَّـة الأوامـر ونفَّـذت كل الـشُّروط التـي وضعت في الميثـاق؛ الميثـاق الـذي لم يُعْـرَض عـلى أسْرَار صراحـةً، وإنَّمـا تمثَّـل في كلمـة حزقيائيـل المشـؤومة «ضرااائـبٌ». وكان مـن هـذه الضَّرائـب شرطٌ ينـصُّ عـلى أنَّـه كُلَّـما غاصَـت أسْرَار في بحـر الظُّلـمات واندسَّـت بـين عـالم الأرواح ولم تـروِّد فضولهـا وشـغفها، فيكـون حينهـا مـن حـق الـرُّوح الخبيثـة أن تتلبَّسـها، بـل وتُمحـي ذاكرتهـا، تُنسـيها أمـر هـذا الميثـاق حتَّـى تدفعهـا للجنـون لاحقًـا، فيسـهل التَّلاعُـب بهـا والسَّـيطرة عـلى روحهـا.. متحدّيـة الإلـه، وخادِمـة لإبليـس، الإلـه الحـق عنـد مَـن يعبـده.

اعـترف حَسَـن بهـذا الأمـر للشـيخ، في جلسـتهما المنفـردة. قـال بأنَّـه أحـضر لهَـا هـذه المخطوطـات بدافـع الحـب، والجهـل الأعمـى، مـن صديـقٍ لـه خدعـه فلـم يُظْهِـر لـه حقيقـة هـذه المخطوطـات ولا عـن ضررهـا. ومـاذا كان سـيفيد ذلـك؟ إن كان هـو أصـلًا لا يعـترف بمثـل هـذه الأمـور. كل مـا جـالَ بعقلـه الصَّغـير حينهـا أنَّـه هكـذا يُـرضي محبوبتـه، التـي لم تـرضَ عنـه أبـدًا ولم تبادلـه الحـب، وبقيـا حبّـه لهـا وإخلاصـه مـن طـرق واحـد!

لامـه الشّـيخ رمَّـاح لومًـا غليظًـا عـلى فعلتـه الشَّـنيعة تلـك، وأمـره أن يُبـاشِر البحـث عـن الطَّلْسَـم مـع فريـق البحـث بقيـادة أمـاني. ينبغـي أن يجـدوه بسرعـة.. قبـل فـوات الأوان.

فقد بدأت الرُّوح في استنزاف أسْرَار، كُليًّا!

* * *

٢٥

أول الغيث قطرة..

بـدأت أولى جلسـات العـلاج بتـلاوة آيـات الخـروج، الرُّقـى الشَّرعيـة، والاعتـماد عـلى قريـنٍ يحـاول جاهِـدًا نَخْـر الـرُّوح الخبيثـة مـن الدَّاخِل. لكـن الـرُّوح أقـوى مـن المعتـاد، متمسِّـكة بـأسْرَار كتمسّـك النُّسْـغ اللَّـزج بالأشـجار، تُـردِّد بـين الفينـة والأخـرى عبـارات يتخلَّلهـا صراخ ونحيـب مثـل «أسْرَار لي!»، «إنَّهـا مِلْـكي أنـا وحـدي!»، «أنـا صديقتهـا المفضَّلـة!»، لـن تسـمح لـكَ بإخراجـي لأنَّهـا تحبنـي، أليـس كذلـك يـا حبيبتـي؟».

آثـارَ الصَّفعـات تجـلَّى عـلى وجنتـيْ أسْرَار، كُلَّـما أمْعَـن الشّـيخ في تـلاوة القـرآن، كُلَّـما زادَ الضَّغـط الخانِـق عـلى الجسـد، واشـمخَرَّ كأنّـه يـزداد طـولًا ومَطًّـا، يقبـض الشّـيخ عـلى قنينـة مـاء مختلطـة بالزّيـت، يضمَّـخ بهـا يديْـه، يقـوم بتدليـك وجنتيْهـا ورقبتهـا وخصـلان مـن شـعرها، مصـادر الألم في هـذه اللَّحظـة، ومواضـع ارتـكاز الـرُّوح، ويتلـو هـذه الآيـة مئـات ومئـات المـرَّات بصـوت جهـوري قـوي:

﴿تُولِـجُ اللَّيْـلَ فِي النَّهَـارِ وَتُولِـجُ النَّهَـارَ فِي اللَّيْـلِ وَتُخْـرِجُ الْحَـيَّ مِـنَ الْمَيِّـتِ وَتُخْـرِجُ الْمَيَّـتَ مِـنَ الْحَـيِّ وَتَـرْزُقُ مَـن تَشَـاء بِغَـيْرِ حِسَـابٍ﴾.

يرتفـع صراخ أسْرَار، صـوتٌ لا يمتَّهـا بصلـة، ويـزداد الشّـيخ في التَّرْتيـل بـلا اكـتراث، ضاغِطًـا بأصباعـه مصـادر الألم بأقـصى مـا يملـك مـن

قوَّة:

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يعلو صوته أكثر فأكثر، يكاد يخترق آذان الحاضرين الباكين على حال أسْرَار، لا سيَّما والديْها، ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ.. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ.. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾.

عَوَت أسْرَار من فرط الألم المتبدّي حمارًا وهَّاجًا على جلدها، تنبجس من مكبيْها دماءًا مُلوَّثةً قاتِمةً، تتلوَّى فوق السّرير وترتفع وتهبط بقوَّة كادَت أن تودي بعمودها الفقري، فوثب الشّيخ من مكانه مُعتليًا السّرير، جلس القرفصاء فوقها، ثبَّتها بذراعيْه القويَّتيْن، آزره حَسَن وبعض من الحاضرين أقوياء البدن، صرخ الشّيخ في وجهها زاجرًا:

- «أخرجِ منها!! أُخرجِ منها!!! ما لكيش مكان هِنا!! هِنا الطَّهارة.. ومكانكِ الجحيم يا مَلْعونة!!».

استحالَ صراخ أسْرَار إلى خط رفيع مَسْنون كإبرة، صيحة مَلْسَاء ولكن مدوّية أطلقتها، كأنَّ روحها تُسْحَب منها إلى غياهب السَّماء، ارتجف جسدها بشدَّة ضارية، طلبت أن يكفّ عن تلاوة الآيات، باكية راجية أن يترك لهَا أسْرَار لأنَّها تحبها بحق، إنَّها صديقتها وقت كانت الجميع ينفرها.. لم ترد أن تؤذيها وإنَّما ضمَّها إلى عالمها إلى الأبد!!

سارة تُحب أسْرَاااار!!! سارة تُريد أن تبقى مع أسْرَار إلى الأبد!!

هكـذا خـرج مـن فمهـا، باللَّهجـة الفرنسـية. فتفاجـئ الجميـع، وانبهـر، حينـما ردَّ عليهـا الشّـيخ بنفـس ذات اللُّغـة التـي تتحـدَّث بهـا الــ «سـارة»، قائـلًا:

- «لا يمكنـكِ ذلـك.. إنَّ روحهـا بأمـر اللـه وحـده، جـلَّ جلالـه، ومـا سُـلْطانَ لـكِ عليهـا. أخـرجِ منهـا مخسـوئةً مَدْحـورةً وأُوبي إلى مآلـكِ المحتوم!!».

لااااااااااااااااااااااااااااا!!!!!

لم أرد هذااا المآآآآآل!!!إنَّني حقًّا أكرررره أبي!!!!!!!!!

صـاحَ الشّـيخ رمَّـاح بآيـة الكـرسي، تلاهـا مِـرارًا وتكـرارًا غـير آبـه بصرخـات «سـارة» وغرسـها لأظافرهـا القاطعـة في جِلـد أسْرَار، خرْبشـتها اثنتـان وسـبعين خدشـة في جلدهـا، تركـت آثـارًا مرعبـة، تكسـوها الدّمـاء، أقْسَـمت أن تؤذيهـا إن لَـم يكـفّ الشّـيخ عـن ترتيـل آيـة الكـرسي، فصـاح عـم سَـعْد في وجهـه مُلْتاعـةً مذْعـورًا:

- «كفاااااية يا شيخ أرجوووك!!! البنت هتروووووح مِنّنا!!!».

التفت له الشّيخ رمَّاح، وقال في ثقة لا مُتناهية:

- «ما تقدرش تعمل حاجة..».

هـذه الثَّانيـة التـي ردَّ بهـا عـلى عـم سَعْد، كانـت سـارَة قـد أحدثـت شِـقًّا مريـرًا غائصًـا في بطـن أسْرَار، اسـتطاع الجميـع أن يسـتبصروا اللّحم المتبقـيّ فـوق أحْشـاءها، والدمـاء تتدفَّـق منـه بغـزارة كنافـورة تتصاعَد إلى أغـلى وتغمـر أيـادي القابضـين عليهـا وموضعهـا مـن السّريـر. شـقَّت صرختهـا الجـدران، وأحدثـت هـزَّةً أرضيَّةً بالغرفـة، بالغة المـدى، دفعت

البعـض لأن يفـرّوا هاربـين بحياتهـم، بينـما سـقطت السّـت رضـوى على الأرض مُغشـيًا عليهـا، فحملهـا عـم سَـعْد بـين ذراعيـه وخـرج بهـا إلى الصَّالـة، تبعـه ثلّـة مـن البعـض، بينـما ظـلَّ البقيـة في الغرفـة يسـاندون الشّـيخ في رأب هـذا الجـرح ومحاولـة علاجـه، ووضـع الأقمشـة البيضـاء والأدويـة المُطهِّـرة عـلى موضـع الجـرح لتنتهـي نافـورة الدمـاء التـي تـأبى أن تتوقَّـف. فعلـت سـارة كـمَا هـدَّدت، لم يتوقَّـع الشّـيخ أبـدًا أن تحمـل كل هـذا الإصرار والقـوَّة، ألهـذا الحـد تحبّهـا وتريدهـا إلى عالمهـا؟ هـي مَـن ذهبـت إليهـا برجليْهـا، فـما ذنبهـا؟ مـا ذنـب الأسـد حـين تتعمَّـد فريسـته النّـوم عـلى مدخـل عرينـه؟

أعلـن الشّـيخ عـن انتهـاء الجلسـة الأولى.. وأمـر الجميـع بالخـروج مـن الغرفـة وإبقـاء الأضـواء مشـتعلة بهـا..

* * *

٢٦

كان مشروع أليستر كراولي، وطموحه، أكبر بكثير من مجرَّد قُدَّاس في كنيسة الماعز الأعظم بباريس..

انْحَدر من أسرةٍ بيروقراطيَّةٍ في بريطانيا العُظْمى، عزف عن المجتمع واتَّخذ غرفته ملاذًا لتطلُّعاته وتصوُّراته عن الحياة والكون وما ينبغي للإنسان أن يصل إليه قبيل المحطَّة الأخيرة من قِطار الدُّنيا؛ ذلك القِطار الذي يلْفُظك في المحطَّة الأخيرة، لتستدير وتجد قِطارًا آخرًا على النَّاحية الأخرى من الرَّصيف.

انغمس كراولي في الكتابة والنَّقد الاجتماعي. كان ذلك اليافع المزعج المتطلّع، الماقِت لكل مَن حوله، العاجِز عن التَّعبير عما يكنُّ بنفْسه سوى عن طريق الكتابة السَّاخرة من الواقع والسُّلطات والأعراف.. والأديان، وقد اتَّخذ موقفًا عدائيًّا صارمًا مع هذه الأخيرة «لعدم مَنْطقيَّتها» كما زعم حينها.

كانت هي الشَّرَارة الأولى التي أشْعَلت فُتيل رحلته بحثًا عن الحقيقة. اختطَّ لنفسه سبيلًا مُغايرًا عن المجتمع: طفق يبتاع كتب السحر والشَّعْوذة، تِباعًا، ويُقارنها بالأديان وبمفهوم الإله، المُضَمَّخة سيرته بالنُّور في الأديان، والسَّيء الظَّالِم لزهرة بنت الصَّباح «إبليس» في الكتب الأخرى.

ارتمس حتَّى عُنقه في العلوم الخفية والخارقة، رابِطًا بين السّحر وكيفية تسخير الإنسان لطاقاته الخارجة عن حدود حواسه الخمس للقيام بأُمور غير اعتياديَّة تؤهّله للترقّي إلى مرتبة أعلى ليستطيع استقبال «الانتقال» بين الحياتيْن، الدُّنيا والأخرى. ظلَّ يبحث والتَّشغُّف يملأه ويُحيط برأسه أكثر فأكثر، حتَّى استطاع تأسيس مذهبه الخاص، مُعْلِنًا به عن انضمامه إلى مجتمع سري أُطْلِقَ عليه «نِظام العهد الذَّهبي»، وهو ما تمَّ شَرْح مصيره في فصلٍ سابقٍ.

انتهى مصير كراولي، مَطْرودًا من كنيسة الماعز الأعظم في باريس، حين علم رئيس الكهنة، بما يُحضّر له، وما تنْزَوي عليه نيَّته الحقيقية، مَصْحوبًا بسمعةً سيِّئةً وموصومًا بأنَّه قد خالَف مبادئ الإله الحقيقي للكون، باتِّباعه لأفكاره الخبيثة، والتي كانت بدايتها هي الأُضحية، كارولينا المسكينة! حينها لم تؤثِّر هذه السُّمعة عليه، لأنَّه كان بالفعل قد ذاع صيته وبزغ نجمه بين عدد لا بأس به من النَّاس الذين تأثَّروا كثيرًا به.

تزوَّج من روز كيلي، المرأة العارية التي ضاجعها في القُدَّاس بطقسٍ مُعيَّن. ولغرضٍ ما، ذهبا إلى مصر، بُناءً على إلحاحه الشَّديد، لقضاء شهر العسل.

كان يُخطِّط لأن تضع إمرأته طفلها في داخل الهرم الأكبر، ليلًا، وبطقوسٍ معيَّنة زعم أنَّها السَّبيل الوحيد لخلاصه وقطعه شوطًا طويلًا في عمله. وهو ما حدث بالفعل، باستخدام قوَّة وسحر علوم الغيب من التَّاريخ الفرعوني الذي ظلَّ طوال حياته ينْهَل من زواياه السَّوداء وخبايا الفراعنة المُخبَّاة، عمدًا، عن البشرية جمعاء.

ووضعت روز طفلتها، وسط حلقات النّيران الخافِتة التي أشْعَلَها باستخدام أعواد الكبريت، والطَّلاسِم السَّوداء الذي رسمها على سَائر بدنها، وترْنيمه وتمجيده للإله حورس والأرواح الخفية السَّاكِنة للهرم التي تحمل من الأسْرَار ما يتطلَّع إليه شغفه عن بُنْية الكون وحقيقة الزَّمان وماهيَّة النَّفس البشرية ومفاتيح التَّحكُّم بالعوالِم الأخرى، كان يؤمن إيمانًا حقيقيًّا لا مَنْدوحة فيه، أنَّه بالفعل يتواصَل مع هذه الأرواح ويشعر بالفخر والزّهو أنَّه الوحيد الذي مُيِّزَ عن بقيَّة السَّحرة وحظي بهذا التَّواصُل، الآن يستطيع أن يؤسِّس ديانته الخاصَّة.. وسيذكرها في كتابه «القانون».. ماذا أسْماها؟

قُمْ بالبحث عن ديانة «ثِيلِيمَا **Θελημα**» المُقَدَّسة.. ثم عاود القراءة.

ولا تَسْتَقِ معلوماتك، أبدًا، من موقع «ويكيبيديا»!

* * *

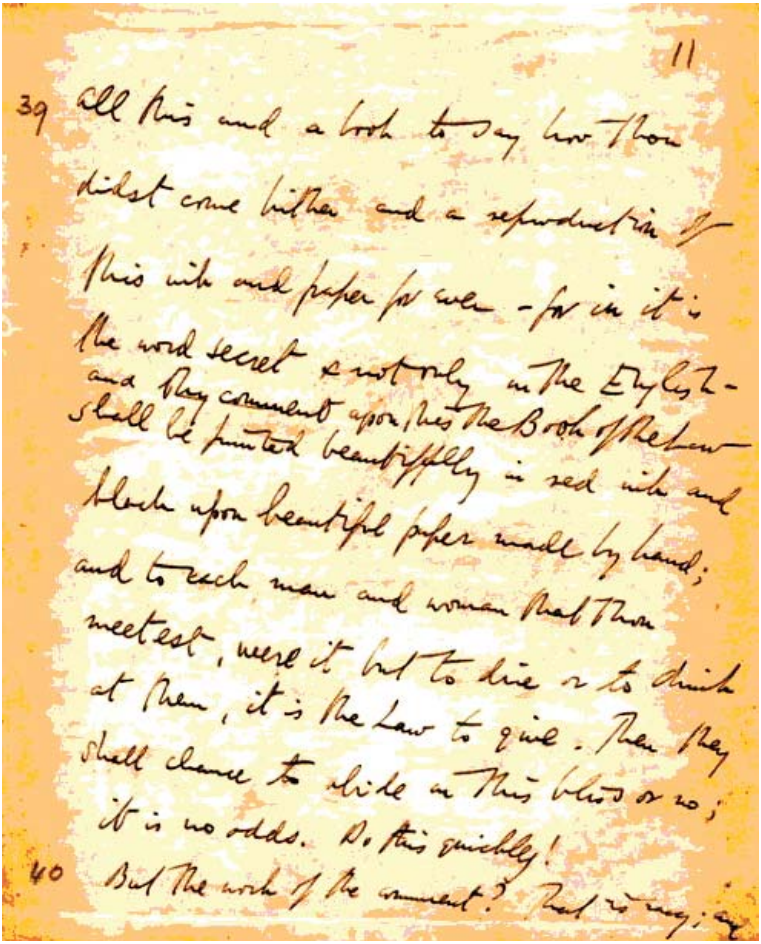

إحدى بردية ديانة «ثِيلِيمَا» المكتوبة بخط يده

المصدر:

the holy books of thelema-svete knjige teleme

٢٧

هذه الجلسة..

أسْماها الشّيخ رمَّاح بدعوة «الطَّهاطيل الكُبْرى».

جاءت هذه الجلْسة بعد أسْبوعيْن قضتهما أسْرَار مُقيَّدة عند الشّيخ رمَّاح، وذلك حسب الطُّقوس المطلوبة لتلاوة هذه الدَّعوة. أرغمها على أكل، بكافَّة الطُّرق الممكنة، يَسِير من خُبْز الشّعير وحُبُوب البَرَكة والزَّنْجبيل، تَرَكها بدون ماء لثلاثِ ليالي حتَّى طلبت هي، بنفْسها، شَرْبة ماء، فسَقَاها قطرات لم تُرْوِ ظَمأتها وكرَّر الأمر لثلاث ليالٍ إضافية.. وكذلك بقية الأربع عشرة يومًا. أكْثَر من الصَّلاة بسننها، قيام اللّيل، تَرْتيل القرآن في البيت باستمرار، إشْعال البخور، التَّواصُل والتَّخاطر مع القرين ومع عدَّة أرواح خيِّرة مُعاونة وإحدى قبائل الجن الغير مُشْرِكة بالله، قام بجمعهم على حدا وكلَّف كلًّا منهم بمهمَّةٍ ما: القرين يُباشِر بحثه عن الطَّلْسَم، الأرواح تُكرِّس محياها للإطاحة بمصْدَر هذه اللَّعنة؛ المُتسبِّب في استخراجها من جَحيمها المكبوت، والقبيلة الجنّية تَنْهال على روح «سارة» بالمسّ والضَّرب حين يُرَتِّل هذه الدَّعوة.

كان يملك من شَفافية نفَّاذة للغاية، ما أهَّلته للتواصل مع كل هذه الكيانات وتسخيرها في الخير وردع الشُّرور، كلٌّ بإذن الله، وبالتَّوكُّل عليه وبالإيمان بقضاءه وقدره.

لم يحضر الجلسة إلَّا الأبويْن وبعض من رجال الحارة الأقوياء لزجر أي شيء غير طبيعي قد يحدث ويفتك بالموجودين. وقف الشّيخ رمَّاح أمام السّرير، يشعر بألمٍ في مَعدته غير مُبَرَّر، فهو قد صامَ أكثر مِمَّا أكل، مُسْتنكِفًا كلَّ ذي روح كاللُّحوم والألبان واكتفى بالماء والفاكهة، انْدَفَع نحو أسْرَار وطبع على جبْهتها عشرة من أسماء الله الحُسْنى «الحكيم الرَّؤوف الغفَّار المنَّان الودود اللَّطيف الحفيظ الرَّقيب البر الشَّافي». زَمْجَرت أسْرَار ككلب على وشك الانقضاض على فريسته، العينان تشوبهما زُرْقة النّار وحَمار الدّم، ينبعث مِنْ جلدها أريجٌ عطن، وحرارة صَهيدة سخينة للغاية لا حدَّ لهَا تَذْويها وتَذْوي كل مَن بالغرفة، العَرَق يكسو المسام والحَشَرات الدَّقيقة تُدَغْدِغ الخلايا بفكوكها الصَّغيرة، التهابات مُتفرِّقة بأنحاء الجسد: الرَّبقة والسَّاعِد والجنبين وأشاجع اليد، لا سيَّما منطقة الجرح الغائر فوق المعدة، ضمَّدها الشّيخ وعالجها بالأعشاب وأرْأب ما أرْأب من صدعها. همست «سارَة» له حين انتهى من كتابة العشر أسماء بهدوءٍ..

لن تفلح. لن تنجو. أنتَ هالكٌ لا محالة!

لم يُكلِّف نَفْسه بالنَّظر إليها، عادَ إلى موضعه، رفع يديْه عاليًا، حاكاه الحاضرين في رفع الأيادي، وشرع يُردِّد بهدوء:

- «بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين بحول الله وقوته وعظيم أسمائه وآياته عزمت عليكم يا معشر الارواح الروحانية بعز عز الله وبنور وجهه وبحق أسمائه إلَّا ما أقْبَلْتُم وأسْرَعْتُم في دحر هذه المَلْعونة بحق الأنوار المضيئة والأسماء البهيَّة والشُّعَاعَات العَرْشيَّة والكلمات الرَّبَّانيَّة والتَّسَابيح اليونانية والأقْسَام العِبْرَانيَّة والعَزَائم الملكوتيَّة وبحق

الأقْسَـام والأسْـمَاء المكتوبـة عـلى قوائـم العَرْش وبحـق الأقْسَـام المكتوبة عـلى قلـب الشَّـمسِ والقَمَـرِ وبحـق الـذى قـالَ للسـموات والأرض آئتيـا طوعًـا أو كُرْهًـا قالتـا آتينـا طائعـين أقبلـوا وأسرعـوا بحـقِّ الكـف الأعظم وبحـق آهيـا شراهيـا براهيـا أدونـاي أصبـاؤت آل شـدَّاى وبحـق والطور وكتـاب مسـطور والـرق المنشـور والبيـت المعمـور والسَّـقف المرفـوع والبحـر المسْـجور إنَّ عَـذَاب ربِّـك لواقـع مـا لـه مـن دافـع عـلى كل من عَـصَى عزيمتـى هـذه مـن قبائِـل الجـن أجيبـوا بالـذى لمـع البـرق حولـه تَلْمِيعًـا وبمواقـع النجـوم وإنَّـه لقسـمٌ لو تعلمـون عظيم وبحق يـا قومنا أجيبـوا داعـى اللـه وآمنـوا بـه يغفـر لكـم مـن ذنوبكـم ويجركـم مـن عـذاب أليـم أجيبـوا يـا خُدَّام هذه الأسـماء وافعلـوا ما به تؤمـرون أجِب يـا روقيائيـل وأنـت يـا جبرائيـل وأنـت يـا سمسـمائيل وأنـت يامیكائيـل وأنـت يـا صرفيائيـل وأنـت يـا عنيائيـل وأنـت يـا روبيائيـل وأنـت يـا طهطهيائيـل وأنـت يـا حمصائيـل وأنـت يـا مرقيائيـل وأنـت يـا هوطيل وأنـت يـا حفغيائيـل وأنـت يـا عميائيـل وأنـت يـا طفطيائيـل وأنـت يـا دميـغ وأنـت يـا دبـدغ وأنـت يـا روقيائيـل وأنـت يـا ميمـون وأنـت يـا هيغـال وأنـت يـا دردغـال وأنتـم جميعًـا أجيبـوا أيُّتُهَـا الأرْواح الطَّاهـرة الزَّكيَّـة وأمـروا أعْوَانكُـم وخُدَّامكـم أن يُحـرِّروا أسْرَار ابنة سَـعْد ورضوى مـن هـذه المَلْعونـة المَزْجـورة المَدْحـورة أجِـب يـا أبى عبـد اللـه المذهب بيـاه يـاه وأنـت يـا مـرة بسَّـام سـام وأنـت يـا أحمـر بدمليـخ دمليـخ وأنـت يابرقـان باهيـاش أهيـاش وبحق للطهطيـل مهطهطيـل قهطيطيل فهطيطيـل نههططيـل توكَّـلوا يـا خُـدَّام هذه الأسـماء وحـرِّروا أسْرَار ابنة سَـعْد ورضـوى مـن هـذه المَلْعونـة المَزْجـورة المَدْخـورة بـارك اللـه فيكم وعليكـم العجـل العجـل السَّـاعة السَّـاعة».

كانـت هـذه الدَّعـوة بمثابـة «تَفْعيـل» لـلأرواح المُسَـخَّرة للخـير، وقبائـل الجـن المعنيـة بالعـلاج والمُـداواة الرَّوحيـة لجسـد المريضـة، أسْرَار، التـي أُميـطَ اللّثـام عـن أسْرَارهـا للشـيخ رمَّـاح وانْكَشَـف لـه كل الحِكايـات والأفعـال التـي قامَـت بهـا وهـي صغيـرة، كل لحظـة فضـول وتطلُّـع مَشْـبُوق بالنَّـزَق وعـدم الاحـتراز لأي عواقِـب قـد تحْـدُث لهَـا، فلـم يكـن في تصوُّرهـا، ولم يخطـر عـلى بالهـا، أبـدًا، أن تُغْمـض عينيْهـا ولا تفتحهـما إلَّا وهـي في هـذا المشـهد المُريـع، مُعرِّضـة حياتهـا وحيوات كل الحاضريـن للخطـر!

تبـدَّت كيانـات هُلاميـة؛ أطيـاف شـفَّافة كالمـاء لُمِحَـت بغتـةً مـن قِبـل الجميـع، عـبرت أمامهـم كومضـة، طرفـة عـين، بالـكَاد اسـتطاع عم سَـعْد إدْراكهـا تُحيـط بجسـد ابنتـه وتمـدّ أيـادٍ طويلـة جـدًّا كجـذع النّخـل في مواضـع الألم، فتـصرخ وتنْشُـج وتنْتحـب وتتقافَـز وتتلـوَّى، يتغيَّر صراخها إلى صخـب مُزْعِـج كأنَّمـا قُـدَّ حلْقهـا مـن حجـر. هُنـا، في هـذه اللَّحظـة، أدْرَك الشّـيخ رمَّـاح أنَّ الـرُّوح الخبيثـة تتألَّـم بالفعـل، وتحـاول التَّأثـير سَـلْبًا عـلى جسـد أسْرَار، عـن طريـق إحـداث جـروح أخـرى بجانـب جروحهـا الغـير مندملـة بعـد، تَعْـوي مـن التَّوجُّـع بطريقـة مُفْزِعـة، مـا الـذي أثَّـرَ فيهـا هكـذا؟ هـو يعلـم تمامًـا أنَّهـا أقوى مـن كل تلـك الكيانـات التـي تواصَـل معهـا، وأكـثر إرادة وتَجَـبُّرًا مـن أن يُصيبهـا مـن أذاهـم ومكائدهـم لهَـا لتنمحـي مـن الجسـد، لكنَّـه كان واثقًـا بالله، هكـذا فقـط. ولكـن شـيئًا مـا أرْسَـل لـه إشـارةً في عقلـه، كموجـة راديـو أحـسَّ بكهربتهـا عـلى سـائِر بدنـه، فُطـرح أرْضًـا وحـاول المتفرّجـين مسـاعدته عـلى النُّهـوض مُجـدَّدًا.

كان القريـن، هـو مَـن أرْسَـل لـه هـذه الإشـارة، بالتَّنبُّـه إلى مـكان الطَّلْسَـم، أخـيرًا! فبعـد بحـثٍ دؤوب، كابَد وشـيعته عناء تفتيـش الحارة

بأسْرهـا، تبـيَّن أنَّ الطَّلْسَـم لا ينحـصر في كونـه مجـرَّد ورقـة تُحْـرَق..
وإنَّمـا بِنايـة بأكملهـا تهْـدَم!

* * *

٢٨

لا أثَـرَ للطَلْسَـم في منزلنـا.. هـل جُـنَّ الشّـيخ رمَّـاح إلى هـذا الحـد الـذي يطلـب فيـه هـدم البِنايـة التـي يسْـكُن فيهـا عَـم خـيري وبعـض مـن أفْـرَاد عائلتـه؟!

تبرَّمَـت أمـاني، بعـد إعلانهـا بالفشـل التَّـام في العثـور عـلى أي أوراق مُسْـتَتِرَة بالمنـزل.

تَدَافَعـت موجـات الغضـب لـدى سُـكَّان البِنايـة المُتهالِكـة بطبيعتهـا، حـين أتاهُـم حَسَـن وشَرَح لأبيـه مـا ينْبَغـي فعلـه لتحريـر أسْرَار، جُزْئيًّـا، مـن مِحْنتهـا تلـك. فقـد زعـم الشّـيخ رمَّـاح أنَّ ذلـك القَريـن، أخـبره بمـكان الطَّلْسَـم وكيفيـة التَّخلُّـص منـه. لم يكـن ليُعْلِـن، في ثقـة تامَّـة، عـما يتوجَّـب فعلـه إلَّا إذا كان مُتأكِّـدًا تمامًـا مـن كلامـه، فهـو ليـس مجنونًـا ولا مخْبـولًا كـمَا إدَّعـى البعـض حـين لم يجـدوا اسـتجابةً أو تقدُّمًـا مَلْحوظًـا في مرحلـة شِـفاء أسْرَار، بـل وجـدوا حالتهـا تسـوء أكـثر، وباتـت عـلى مَشـارِف الهـلاك الفِعْـلي.. فقـط أنظـروا إلى وجسـدها الهزيـل جـدًّا؛ طبقـة الجلـد الرقيقـة تكسـو عِظامًـا بـارِزةً كالعـصي، يُغلِّفهـا تـراب كائنـات حيَّـة دقيقـة غـير مُصَنَّفة بيولوجيًّـا تلْتَصـق بهـا وتمـصُّ طاقتهـا، وتبـثّ سـمومها إلى الداخـل تسـير مـع خلايـا الـدَّم الفاسِـد في شرايـين الجسـد، تصيـب القلـب فيوحـي للـرائي أنَّـه عـلى وشـك السُّـكون التَّـام، مُعْلنًـا عـن رايتـه

البيضاء.. ومُغادرة روحها إلى بُعْدٍ غير مَعْلُوم!

انقسمت الحارة إلى فريقَيْن: فريقٌ يرى بحتميَّة هدم البِناية للتخلُّص من أثار الطَّلْسم التي اختَزَنَتْها أرضيَّة مخْزَن عم خيري، الغير مُسْتَعمَل منذ أكثر من عشرين عامًا، وفريقٌ يُعارِض تمامًا الفِكْرة، ويتوعَّد مَن يدنو خطوةً من المخزن الكامِن أسفل البِناية مُباشرةً بمهاتفة الشُّرْطة، وهُم أكثرهم من السُّكان المتضرّرين والمتعاطفين مع قضيَّتهم. نَشَبت الاحتجاجات والشُّجُر بين الفريقَيْن، عائلة أسْرَار تريد أن تُنْهي معاناة ابنتهم بقيادة أماني وحَسَن، بينما عم خيري ومَن معه يقفون لهم بالمِرْصاد.. لن تُهْدَم البِناية، ولن يقتحم أحد المخزن مهما تكلَّف الأمر!

ما الذي يضمن أنَّ كُل ما يحدث، أصلًا، يندرج تحت الظّواهر الغير طبيعية؟ هل أفقد بيتي وحياتي لأجل مريضة نَفْسية!؟!

قالَ حَسَن، وهو في أعلى درجات الانفعال:

- «لو العمارة ما اتهدمتش، واتخلَّصنا من الطَّلْسَم ده.. عمركوا ما هتكونوا في آمان.. ما حدّش يعرف ممكن هيحصلَّكوا إيه بسببه! امبارح أسْرَار.. ويا عالِم بكرة الدُّور على مين!».

ليُعَلِّل أحد ساكني العِمارة قائلًا:

- «أكثر من عشرين سَنة وما حسِّناش إن فيه طَلْسَم ولا زفت في المخزن وما حصلِّناش حاجة!».

تتعالى أصوات البعض، مُرَدِّدين:

- «وإحنا نروح فين بعد ما حياتنا كلها تِنْهَدَم؟!! حياة واحدة

نخْسَرْها أحسن من تشريد حيوات كتير!».

أدْرَك عـم سَـعْد أنَّـه لا فائـدة ولا طائـل مـن مجادلـة هـؤلاء النَّـاس، فهُـم عـلى أحـقّ الصَّـواب، وإن وضـع نَفْسـه في مكانهـم لـكان انفعـل واحتـجَّ مثلهـم تمامًـا. ظلَّـت جملـة «حيـاة واحـدة نخسرهـا أحسـن من تشريـد حيـوات كتـير» تـتردَّد بـين تَلافيـف عقلـه الـذي يـأبى أن يُصـدِّق أنَّـه يعيـش هـذه المواقِـف العصيبـة، مـا الذَّنـب الأكْهـب الـذي اقترفـه في حياتـه ليبْتَليـه اللـه بهـذه الطريقـة المرعبـة؟ هـل إهْمالـه لابنتـه هـو المُتَسـبِّب الأول لهـذا الابتـلاء أو العِقـاب؟ لا يسـتطيع أن يجـزم بـشيء.. اكتفـى، فقـط، بـأن انْـزَوى في أحـد الأركان في الحـارة، جلـس عـلى الأرض، وشرع يبـكي بشـدَّة ويدْفـن رأسـه بـين ذراعيـه وسـاقيه كالطّفـل. مـا الـذي ينْبَغـي أن يُفْعَـل الآن؟ هـل يسْتَسـلم للقـدر وبمـا كتبـه اللـه ويفقـد ابنتـه الحبيبـة إلى الأبـد؟ مـا الـذي بوسـع رجـل كبـير مثلـه أن يفعلـه في مِثْـل هـذه الظُّـروف؟

مَـرَّت ثـلاث أيَّـام كاملـة، ومُنـذ أن دخـل عـم سَـعْد مسـجد الفِريـاني قبـل يومـيْن، ولم يَـره أحـد بالشَّـارع أبـدًا. لقـد انتهـج سـبيل الاعتـكاف والإكثـار مـن الصَّـلاة والاسـتغفار، بـات إمامًـا زاهِـدًا عـن الحيـاة، المِحْـرَاب هـو مَـلاذه الوحيـد الآن، وبـين الفينـة والأخـرى، يـأتي النَّـاس للاطمئنـان عليـه ومواسـاته في مِحْنتـه. وهـو لا يفعـل شـيئًا سـوى تَرْتيل القـرآن الكريـم والتَّلفُّـظ بالدعـوات والتَّسـابيح أمـلًا في أن يُحـدث اللـه معجـزةً مـا في زمـن انتفـت فيـه معجـزات..

«سُبْحـانَ اللهِ بارِئِ النَّسَـمِ سُبْحـانَ اللهِ الْمصَوِّرِ سُبْحـانَ اللهِ خالِقِ الأَزْواجِ كُلِّها سُبْحـانَ اللهِ جاعِلِ الظُّلُماتِ وَالنُّورِ سُبْحـانَ اللهِ فالِقِ الْحَبِّ وَالنَّوى سُبْحـانَ اللهِ خالِقِ كُلِّ شَيء سُبْحـانَ اللهِ خالِقِ ما يُرى وَما لا يُرى

سُبْحـانَ اللهِ مِدادَ كَلِماتِهِ سُبْحـانَ اللهِ رَبِّ الْعالَمينَ سُبْحـانَ اللهِ الَّذي يُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَيُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ وَيُنَزِّلُ الْماءَ مِنَ السَّماءِ بِكَلِمَتِهِ وَيُنْبِتُ النَّباتَ بِقُدْرَتِهِ وَيَسْقُطُ الْوَرَقُ بِعِلْمِهِ سُبْحـانَ اللهِ الَّذي لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّة فِي الاَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا اَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا اَكْبَرُ إلاّ في كِتاب مُبين».

لازَمت السِّت رضوى وأماني الشّيخ رمَّاح في جلساته المتتالية يومًا بعد يوم، وفي كل جلسة كانت تسْتَمْسِك بالأمل أكثر فأكثر، حين ترى استجابة طفيفة جدًّا لابنتها للعلاج المُكثَّف الذي يخضعها له الشّيخ بطقوسه الرّوحانية والبخور الذي ينْثر عبقها دائمًا ورشّ المنزل بأكمله بماء ورد قُرِأ القرآن بين ثنايا جُزَيئاته. رأت السِّت رضوى بأمّ عينيْها، الشّيخ وهو يستدعي أرواحًا، يستجلب خُدَّامًا، يُردِّد الدَّعوات والابتهالات ويُكثِر من الصَّلاة. وكان من بين هؤلاء الخُدَّام، رجلين، رأتهم السِّت رضوى، يخرجان من بين البُخار الذي تصاعَد من البخور الموضوع أمام الشّيخ إذ يُردِّد الدَّعوة، فارعي الطول، لا وجوه لهما! ملامحهما مَمْسوحة كأنَّهما يضعها قماش أبيض على وجهيهما خُيِّل للرائي أنَّهما بلا وجوه في وسط الدُّخان. ألْقى الشّيخ عليهما سلامًا، وصلاةً على النّبي محمد، وأمرهم بالتَّوجُّه إلى أسْرَار المُقيَّدة. لم يلبثا أن انصاعا للأمر، خطواتهما لفحت الغرفة بالهواء، أمْسَكا بطرف يديْها وضغطا عليهما بشدَّة، حاولت المقاومة، لكنَّهما جذباها إلى مُقدِّمة السّرير ونَغَزَاها عدَّة نغزات حارقة في ظهرها وكتفيْها ومواضع الألم، أو بالأحرى: المناطق التي تسْكُن فيها الرُّوح. أشَارا للشيخ أن يبدأ مهمته، التي وضع عليها جام آماله وأُمنياته في نجاح هذه الخطوة،

فلـم يتبـقَّ شـيئًا آخـرًا لم يقـم بـه.. فإمـا إنْ لم تفلـح هـذه الخطـوة.. سـيُعلِن للجميـع، باسـتحياء يكرهـه، عـن فشـله الذَّريـع، وسَـيُرْجئ أمـره إلى اللـه يفْعَـل بعبدتـه مـا يشـاء!

* * *

٢٩

كان هـدم البِنايـة، والتَّخلُّـص مـن الطَّلْسـم التـي رسـمته أسْرَار في مخـزن عـم خـيري، سيُسـاعِد كثـيرًا في إحْـرَاق هـذه الـرُّوح السَّـقيمة، ولكـن مـا يُفكِّـر بـه الشّـيخ الآن، في نظـره، ربمـا، سـيُحدث جرْحًـا غائـرًا سيُسـبِّب ألمًـا يفـوق الوصـف لهـذه الـرُّوح، فتخـرج مـن الجسـد مَدْحـورةً بـإذن اللـه!

خاطَـر الشّـيخ رمَّـاح هـذه المـرَّة، أمـر الرجلـين الهُلاميَّـيْن بحـلّ وثـاق أسْرَار وتَثْبيتهـا في ركـن الغرفـة باتِّجـاه القِبْلَـة. كانـت عنيفـة للغايـة، وقويَّـة إلى حـد الجُنـون، انقـضَّ عليهـا الشّـيخ وحـاول تقييدهـا بذراعيْه ومُعاونـة الرَّجلـيْن في هـذه المهمـة المسـتحيلة، ولكـن لا فائـدة، فقـد بـدت كثـور هائـج ينخـر بقرنيْـه كل جسـد يعـترض طريقـه. اسـتطلب مـن الحاضريـن معاونتـه، لكنَّهـم كانـوا أجْـبَن مـن أن يقومـوا بهـذا الـدُّور، عـدا حَسَـن، الـذي هـرْوَل ناحيـة أسْرَار بعـد تَـردُّدٍ كبـير، وحـاول تَثْبيتهـا معهـم في الرُّكـن الغَـرْبي للغرفـة. لم يكـن تـردُّد حَسَـن، ولا رجفـة جسـده، ولا ذُعْـره، بسـبب مقاومـة أسْرَار وصراخهـا المُـروِّع، وإنَّمـا هاذيـن الرَّجلـيْن الـذي يقـف بجوارهـما الآن... جـرَّب أن تقـف بجـوار روحًـا أو طيفًـا هائمًـا.. وأخـبرني عـن شـعورك!

طلـب الشّـيخ مـن الجميـع بتردّيـد أسـماء اللـه الحُسْـنى بصـوت مرتفـع في آنٍ، قبـل أن يُقـرِّب فمـه مـن الميكروفـون، يختـبر تردُّداتـه، ويبـدأ في الرُّقيـة الشَّرعيـة الأخـيرة.....

بَسْـمَل، وقـال: «أعـوذ باللـه السَّـميع العليم مـن الشَّـيطان الرَّجيم»، مُـردِّدًا إيَّاهـا مائـة وثمانـين مـرَّة دون انقطاع!

اسـتهلَّ الرُّقيـة بدُعـاء النَّبـي صـلى اللَّـه عليـه وسـلَّم: «لاَ إِلـهَ إِلاَّ اللـهُ الْعَظِيـمُ الْحَلِيـمُ، لاَ إِلـهَ إِلاَّ اللـهُ رَبُّ الْعَـرْشِ الْعَظِيـمِ، لاَ إِلـهَ إِلاَّ اللـهُ رَبُّ السَّـموَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَـرْشِ الْكَرِيمِ».

ثم شرع بتلاوة الآتي:

سورة الفاتحة:

﴿بِسْمِ اللـهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {١/١}

الْحَمْـدُ للـهِ رَبِّ الْعَالَمِـينَ {٢/١} الرَّحْمـنِ الرَّحِيـمِ {٣/١} مَلِـكِ يَـوْمِ الدِّيـنِ {٤/١} إِيَّـاكَ نَعْبُـدُ وإِيَّـاكَ نَسْـتَعِينُ {٥/١} اهدِنَـا الـصِّرَاطَ المُسـتَقِيمَ {٦/١} صِرَاطَ الَّذِيـنَ أَنعَمـتَ عَلَيهِـمْ غَـيرِ المَغضُـوبِ عَلَيهِـمْ وَلاَ الضَّالِّـينَ {٧/١}﴾.

من سورة البقرة:

﴿اللـهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ الْحَـيُّ الْقَيُّـومُ لاَ تَأْخُـذُهُ سِـنَةٌ وَلاَ نَـوْمٌ لَّـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الأَرْضِ مَـن ذَا الَّـذِي يَشْـفَعُ عِنْـدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِـهِ يَعْلَـمُ مَـا بَـيْنَ أَيْدِيهِـمْ وَمَـا خَلْفَهُـمْ وَلاَ يُحِيطُـونَ بِـشَيْءٍ مِّـنْ عِلْمِـهِ إِلاَّ بِمَـا شَـاء وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَـؤُودُهُ حِفْظُهُـمَا وَهُـوَ الْعَـلِيُّ الْعَظِيـمُ {٢٥٥/٢}﴾.. ﴿آمَـنَ الرَّسُـولُ بِمَـا أُنـزِلَ إِلَيْـهِ مِـن رَّبِّـهِ وَالْمُؤْمِنُـونَ كُلٌّ آمَـنَ بِاللـهِ وَمَلآئِكَتِـهِ وَكُتُبِـهِ وَرُسُـلِهِ لاَ نُفَـرِّقُ بَـيْنَ أَحَـدٍ مِّـن رُّسُـلِهِ وَقَالُـواْ سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَـا غُفْرَانَـكَ رَبَّنَـا وَإِلَيْـكَ الْمَصِـيرُ {٢٨٥/٢} لاَ يُكَلِّـفُ اللـهُ نَفْسًـا إِلاَّ وُسْـعَهَا لَهَـا مَـا كَسَـبَتْ وَعَلَيْهَـا مَـا اكْتَسَـبَتْ رَبَّنَـا لاَ تُؤَاخِذْنَـا إِن نَّسِـينَا أَوْ أَخْطَأْنَـا رَبَّنَـا وَلاَ تَحْمِـلْ عَلَيْنَـا إِصْرًا كَـمَا حَمَلْتَـهُ عَـلَى الَّذِيـنَ مِـن قَبْلِنَـا رَبَّنَـا وَلاَ تُحَمِّلْنَـا مَـا لاَ

طَاقَـةَ لَنَـا بِـهِ وَاعْـفُ عَنَّـا وَاغْفِـرْ لَنَـا وَارْحَمْنَـآ أَنـتَ مَوْلاَنَـا فَانصُرْنَـا عَـلَى الْقَـوْمِ الْكَافِرِيـنَ {٢٨٦/٢}﴾.

من سورة التوبة:

﴿قَاتِلُوهُـمْ يُعَذِّبْهُـمُ اللـهُ بِأَيْدِيكُـمْ وَيُخْزِهِـمْ وَيَنصُرْكُـمْ عَلَيْهِـمْ وَيَشْـفِ صُـدُورَ قَـوْمٍ مُّؤْمِنِـينَ {١٤/٩}﴾.. كـرَّر هـذه الآيـة ثمـانِ مـرَّات متتاليـة، بينـما كانـت تتلـوَّى أسْرَار أمامـه في فـزع وجـزع.

كفااااااااااااااااايـة!!!! خلّـوه يخرررسسسسسسسـس!!!! يـا مااامـاااا أنـا بتألِّـم!!!!!

أسْرَع الشّـيخ رمَّـاح بالالتفـات إلى السِّـت رضـوى، وأخبرهـا قبـل أن تُحرِّكهـا العاطفـة:

- «دي مـش بنتـك يـا أمـي!! اثبتـي.. وكـرَّري أسـماء الله الحُسـنى.. مـا تعلّـوا صوتكـوا يـا جماعة!».

استأنف من سورة يونس:

﴿يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ قَـدْ جَاءتْكُـم مَّوْعِظَـةٌ مِّـن رَّبِّكُـمْ وَشِـفَاء لِّـمَا فِي الصُّـدُورِ وَهُـدًى وَرَحْمَـةٌ لِّلْمُؤْمِنِـينَ {٥٧/١٠} ﴾.

من سورة يوسف:

﴿فَاللـهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ {٦٤/١٢} ﴾.

من سورة النحل:

﴿وَأَوْحَـى رَبُّـكَ إِلَى النَّحْـلِ أَنِ اتَّخِـذِي مِـنَ الْجِبَـالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّـجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُـونَ {٦٨/١٦} ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْـلُكِي سُـبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً

يَخْـرُجُ مِـن بُطُونِهَـا شَرَابٌ مُّخْتَلِـفٌ أَلْوَانُـهُ فِيـهِ شِـفَاء لِلنَّـاسِ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لآيَـةً لِّقَـوْمٍ يَتَفَكَّـرُونَ {٦٩/١٦} ﴾.

من سورة الإسراء:

﴿وَنُنَـزِّلُ مِـنَ الْقُـرْآنِ مَـا هُـوَ شِـفَاء وَرَحْمَـةٌ لِّلْمُؤْمِنِـينَ وَلاَ يَزِيـدُ الظَّالِمِـينَ إَلاَّ خَسَـارًا {٨٢/١٧} ﴾.

من سورة الشُّعَرَاء:

﴿ووَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ {٨٠/٢٦} ﴾.

حـين أدْرَك أنَّ الألم قـد وصـل إلى أشـدّه بالـرُّوح، وهـو المتجلّي أمـام الجميـع في دَبْدبـة ارتطـام ظهـره أسْرَار بالحائـط، تَلوِّيهـا عـلى الأرض بهيسـتيريا جنونيَّـة، ارتجـاف سَـائر جسـدها هلعًـا وبَـرْدًا كأنَّهـا وضعـت فـوق جبـل مـن الجليـد، نَـثْر سـوائِل بيضـاء مـن فمهـا وحشْرجـة حلْقها وبَعْـثرة كرتـا عينيْهـا، وتحـوُّل ملامحهـا إلى البشـاعة والدَّماثـة.. فبـدا مروِّعًـا للغايـة، وقابـض للنفـوس، ومُصيـب مُرْتأيـه بالجنـون التَّـام، مثـل وجـه قـرد مُشْـعِر بكثافـة وينْفـث مـن مِنْخريْـه حـرارة مَصْحوبـة بمخـاط لـزج ينكـبُّ عـلى الفـم الصَّـارخ ويسـيل عـلى البـلاط، فيتصاعَـد بُخـاره السَّـاخِن مرتطـمًا بوجـه الشّـيخ، شرع بتـلاوة سـورة الإخـلاص سـبعين مـرَّة، والمعوذتـيْن مئـة مـرَّة، عـلى خلفيـة تصاعُـد أصـوات الجميـع المختلفـة بأسـماء اللـه الحُسْـنى..

﴿قُـلْ أَعُـوذُ بِـرَبِّ الْفَلَـقِ {١/١١٣} مِـن شَرِّ مَـا خَلَـقَ {٢/١١٣} وَمِـن شَرِّ غَاسِـقٍ إِذَا وَقَـبَ {٣/١١٣} وَمِـن شَرِّ النَّفَّاثَـاتِ فِي الْعُقَـدِ {٤/١١٣} وَمِـن شَرِّ حَاسِـدٍ إِذَا حَسَـدَ {٥/١١٣}﴾.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ {١/١١٤} مَلِكِ النَّاسِ {٢/١١٤} إِلَهِ النَّاسِ {٣/١١٤} مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ {٤/١١٤} الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ {٥/١١٤} مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ {٦/١١٤}﴾.

أمر بسرعة إحضار إناء كبير مملوء بماء الورد، وظلَّ يُكرِّر هذه الرُّقية بثقة وإيمان بالغيْن، اقترب من أسْرَار وحاول تثبيتها جالسًا القرفصاء، أخذ الرّجليْن يُعاونانه في فَرْد الجسد وتَمْشيطه لمنعه من التَّلوُّي، دَنا بفمه من أذنها، مسح بمنديلٍ على جبْهتها، وطفق يُردِّد في همس كالوسْوَسة: «لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»، «أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»، «أُعِيذُكِ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ، شقَّت صرختها آذانه، لكنَّه واصل بإصرار: «بِسْمِ اللهِ الَّذِي لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»، ردَّدها ثلاث مرَّات، ثم تابَع محمرّ العينيْن: «بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ، بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ»، «اللهُمَّ، أَذْهِبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا».

واختتم الرَّقية أخيرًا بهذا الدُّعاء: «اللهُمَّ اهْدِنِي واهْدِها، وَارْزُقْنِي وارْزُقْهَا، وَعَافِنِي وعَافِها، وَارْحَمْنِي وارْحَمْها يا أرْحَم الرَّاحْمين!».

جاء حَسَن بإناء الماء، وبتردُّدٍ دلق كل ما حواه من ماء ورد مثلّج على سائر جسد أسْرَار.. التي أطْلَقت صرخة أخيرة حادَّة، سُرْعان ما

انقلبت إلى هسيسٍ طويل، ثم فحيح، ثم حشرجة جحظت عينيْها إلى آخرهما، نفشت صدرها عاليًا، فاهها مفتوحٌ على آخره، السِّت رضوى منهارة في البكاء، شعر الشّيخ بالرَّعشة الكهربائيَّة التي سَرَت بأنحاء جسدها تتخلَّله هو، فانصعق مَقْذوفًا إلى الخلف! كان الرجلان قد تلاشيا إلى العدم، فلم يتبقَّى سوى حَسَن وابن صاحب المقهى ليُعاونوه على النُّهوض، لكنَّه أشارَ لهم بأنَّهما ليسوا في حاجة لذلك، وأنَّه على ما يُرَام، يلْهَث بشدَّة، ويُقطّر من شفتيْه زبدًا، كساه العَرَق وذوته البرودة المُهْلِكة، تتبثر الرُّؤية أمامه، لا يقدر على الحرَاك أو النُّهوض، لقد تلقَّى المخ كهرباء أكثر من اللَّازم، أشارَ فقط إلى حيث انكبَّت أسْرَار على الأرضيَّة، ثابتةً كيابس، خفيفةً كنسيخ، عيناها مُثَبَّتتان لا تتحرَّكان أدْنى حركة، الفم لا يزال مفتوحًا نصف فتحة، العَرَق يطغى على ما استقبلته شُعيرات جِلْدها من ماءٍ مثلّجٍ، تشكَّك البعض في ما ينبغي أن يُفْعَل الآن.. هل انتهى الأمر؟ هل غادَرت الرُّوح الخبيثة أخيرًا؟ ماذا حدث للشيخ؟ أُشيحَ أحدهم ببصره إليه، فوجده فاقِدًا الوعي كُليًّا، هرْول إليه وظلَّ يستفيقه، ولكن بلا جدوى تُذْكَر، هرعت السِّت رضوى إلى ابنتها، انبطحت أمامها على الأرض، اقتربت أماني مِنها وحَسَن، جسَّت الأم نبضها، فوجدتها بلا نبض! تعبيرات الوجود كلّه تمثَّل في وجهها وهي تتفقَّدها مَلْهوفةً مُلْتَاعةً مَذْعورةً، صفعتها على خدّيْها بقوَّة، صرخت في وجهها: «بنتي!! ردّي عليَّا يا بنتي!!!»، لكن بلا استجابة، جِلْدها أصبح مُتَرهِّل وآيل للسقوط في أي لحظة!

كانت أسْرَار بين ذراعيْها جُثَّة هامِدة.. مَنْزوعة الرُّوح!

* * *

٣٠

كقائـد مُظَفَّـر افتتـح بلـدًا بـلا حِصـار، انسـلَّ أليسـتر كـراولي مـن إحـدى بوَّابـات الهَـرَم الأكـبر الخفيـة إلى الصَّحـراء، زوجتـه في ذيلـه، حاملًا بـين ذراعيْـه طفلتـه، سـارة، في بَشْـكيرٍ أبيـض، مُتَوجِّهًـا إلى منزلـه ليحتفـل بنـصره الجديـد واكتشـافه الأعظـم، مُحمَّـلًا بـأسرار أُممٍ لم نكـن عـلى درايـة بوجودهـا، بيننـا، أبـدًا!

كانـت الطفلـة عبـارة عـن قطعـة لحـم غثَّـة، مُتَعفِّنـة، بشـعة، خُلِقَـت روحًـا طاهـرةً في جسـدٍ تسـبَّبت الطُّقـوس السَّـوداء في إفْسـاده وإخراجـه مـن رحـم الأم عـلى هـذا النَّحـو المُريـع: وجههـا متحجِّـر، جِلْدهـا متقشِّر، مُرَتَّعـة ببثـور سـوداء مُدَبَّبـة كأسـنّة الرِّمـاح، لا يمـت بُكاءهـا لمفهومنـا عـن «الرَّضيـع»، مُطْلَقًـا!

سـعدت روز بطفلتهـا الأولى، وإن لم يـرق لهَـا هيئتهـا المَسْـخوطة، أبْعَدتهـا عـن كافَّـة أعـمال زوجهـا الخبيثـة المختلفـة في أحيـاء القاهـرة. حيـث صـادف في سُرَاه، خِـضر الفِريـاني، الـذي أتـاه هـذا الأخـير طالِبًـا للتثقُّـف والعِلـم، ناشِـدًا أن يكـون سـاحِرًا كبـيرًا مثلـه. أخـبره خِـضر أنَّـه سـمعه عنـه طـوال هـذه الفـترة التـي أسَّـس فيهـا كنيسـة الماعـز الأعظـم بصـلات لـه في فرنسـا، وأراد أن يلقـاه بشـغفٍ ليُعَلِّمـه فنـون السّـحر، مُعتـبرًا إيَّـاهُ أبًـا روحيًّـا، وليكـون أول الآمنـين بديانتـه «ثِيلِيـما» المُقَدَّسـة!

دعـاه خِـضر، في يـومٍ صيفـيّ شـاحِب، ليبيـت عنـده في منزلـه بالحـارة، انصياعًـا لطقـسٍ فِرْعـوني ابْتكـره كـراولي بعـد خروجـه لتـوِّه مـن الهَـرم الأكـبر واتطلاعـه عـلى أسْرَار الفراعنـة السَّـوداء. كان قـد أحْـضَر كل المطلـوب للقيـام بهـذا الطَّقـس: رُقَـع حجريَّـة مَنْهوبـة مـن الهـرم الأكـبر، شـموع، ألْـواح خشـبية كبـيرة، طباشـير، رسـومات فِرْعونية لهَـا علاقـة بالطَّقـس، مَسـانِد حمـراء تُجْلَـس عليهـا لممارَسـة اليوجـا، مباضـع طبّيَّـة، أُضحيـات مـن الحيوانـات، كـؤوس تُرَتَّـع بدماءهـما، فِـراش محْبـوك مـن جلـود ماعِـز أسْـوَد ليتَّصِـلا جنسـيًّا ببعضهـما البعـض (اللّـواط)، كـمَا اسـتورد أفْخَـر أنـواع النبيـذ مـن لنـدن للقيـام بمـا يُسَـمَّى «وليمـة الكبـيرة»!

انغمسـا في طقـوسٌ مماثِلـة كثـيرة، وتعلَّـم خِـضر الفِريـاني بعـض مـن فنـون السِّـحر الأسـوَد وفنـون اليوجـا (الحقيقيَّـة) وفائدتهـا للاتصـال مـع عوالِـم أخـرى تتعلَّـق بـأراضٍ سُـفْليَّة تتُاخِـم قِـشرة الجحيـم، وظواهِـر خارقـة أهَّلَتـه ليترقَّـى لرتبـة «سـاحِر»، الوجـه الآخـر لـ «ذو كرامـات»، الـذي لم يُريـه سـوى لأهـل الحـارة، أنـذاك. كـمَا لم يتمكَّـن أحـد مـن رؤيـة أليسـتر كـراولي، أبـدًا، في الحـارَة، وإنَّمـا كان يجـيء سِرًّا، ويذهـب سِرًّا، ويتمـشَّى خفيـةً في الشَّـوارع كأنَّـه يرتـدي عبـاءة إخفـاء تُـلازِم جيبـه أينَـمَا ولَّى وجهـه في أي بُقْعـة في القاهـرة. ولا أحـد يعـرف الـسّر وراء تخفّيـه هـذا، ربمـا لأنَّـه خـشي أن يتعـرَّف إليـه أحـد مـن العامَّـة، فإمَّـا أن يُفْـتَن بـه ويتشـغَّف حُبًّـا بسـيرته وأعمالـه، فـلا يسـتطيع كـراولي مسـاعدته لأنَّـه ينـدرج تحـت مصـاف «عـوام النَّـاس»، وهـذه الدرجـة الدُّنيـا تُحـرِّم عـلى مَـن فيهـا الاتطـلاع عـلى كتـب السـحر، إذ أنَّهـم قـد خُلِقـوا للتلاعُـب بهـم مـن قِبـل نُخْبَـة السَّـحرة، وإمَّـا أن يكـون مـن المتديّنيـين.. فيوقعـه في

مأزق، ويُرْسِل وجلًا في قلبه!

كان يـوم السَّـبت، السَّـماء مُمْطِـرة، الحـارَة مُلَفَّعـة بالسَّـواد، عندمـا ارتقيـا، الفِريـاني وكـراولي، إلى مرتبـة أعـلى في الطّقـس وأكثرهـا بشـاعةً وسـوءًا، إذ تطلَّـب الأمـر لإرضـاء هـذا الكيـان الأسْـوَد المتبـدّي أمامهـما في مهابـة، لـه قرْنـيْن حادّيْـن ووجـه يُحـاكي وجـه قـرد دَميـم، أن يتـم التَّضحيـة بإنسـان.. بـشرط أن يكـون هـذا الإنسـان جُـزء لا يتجـزَّأ مـن السَّـاحريْن المتطلِّعـيْن إليـه في دهشـةً وتبجيـل!

لم يكـن خِـضر الفِرْيـاني متـزوِّج، فوقـع الاختيـار عـلى طفلـة كـراولي الرَّضيعـة. راقَـب الفريـاني ملامـح كـراولي في هـذه اللَّحظـة، لـيرى ردَّة فعلـه حيـال هـذا الأمـر.. توقَّـع أن يعـترض، ويثـور ويجـول ويُنْهـي فعاليـات هـذا الطَّقـس ويُـصْرف الكيـان الأسـود، لكـن عـلى غـير المتوقَّـع.. لم تتبـدَّى عليـه أي ملامـح اسـتياء أو امتعـاض أو حتَّـى تعاطُـف، بـل أنَّـه لم يُكـذِّب خـبرًا، وأسْرَع إلى منزلـه، اختطـف ابنتـه سـارة مـن سريرهـا، بينـما كانـت روز في سـابع نومـة، وعـادَ بهـا إلى الفِريـاني، قائـلًا في ثقـة لم يـرَ الفِريـاني نظـير لهـا:

- «إنْجاب الأطفال أسْهَل من إحْرَاقهم».

اسـتيقَظت سـارة مـن سُـباتها العميـق، لتجـد نَفْسـها مُحاطـة بهالـة حمـراء مـن النـيران. ولم يسـمع خِـضر أي صـوت لهَـا.. كأنَّها استسـلمت لقدرهـا المحتـوم.. كأنَّهـا عرفـت ذلـك مُسْـبقًا.. أو ربمـا لأنَّهـا لم تُعـطَ فرصـة للبـكاء.. التهمتهـا النَّـار التهامًـا قاسـيًا.. غـير مُفرِّقـة إن كانـت الضَّحيـة طفلـة أم بالِغـة لـن تُعـاني كثـيرًا قبيـل التَّفحُّـم!

حزنـت روز كثـيرًا عـلى مـا اقترفـه زوجهـا البشـع في حـق ابنتهـما..

ودخلـت في سـيرورة اكتئـاب حـادَّة، أدْمَنـت فيهـا الكحـول والمخـدّرات وذهـب عقلهـا تمامًـا مـن فـرط الخـرف والجنـون.. فقـام بتسـليمها، بقلـبٍ بـاردٍ، إلى مستشـفى للأمـراض العقليـة في لنـدن، قبـل أن يُطلّقها، ويرحـل عـن مـصر في عـام ١٩١٠، تـارِكًا وراءه تلميـذًا نجيبًـا انفـرد بأهـل الحـارة الغلابـة.. حتَّـى سـقوطه المـدوّي بعـد ثـلاث أعـوام.. وطَحْـن جُثَّتـه بـين أحشـاء العـمارة الهالِكـة.. التـي سُـمّيت فيـما بعـد بـ«الخرابة»!

* * *

٣١

عَتَمـة.. فـراغ.. صمـت.. لا شُـعور.. المـوت هـو الفَنـاء الأبـدي... العَـدم.. لا إلـه.. لا حِسـاب.. لا جنَّـة ولا نـار.. لا شيء عـلى الإطـلاق..

صمت.. فراغ.. لا شُعور.. عتمة.. ظُلْمة..

ما الذي يحدث بهذا الأفُق؟

خيط أبيض.. يتلوَّى أمامي كدودة..

أنا أرى!

ظننتُ أنَّني فقدت حاسَّة الإبصار إلى الأبد!

مهلًا.. أنا أُبْصِر.. إذن.. أنا أشعر.. إذن..

أنا لا زلت موجودة!

إذن....

لا يوجد عدم بعد الموت!!!!

انْقَشَـعت الظُّلْمَـة مـن أمامـي، رويـدًا رويـدًا، ببـطءٍ شـديد وكَسـول، الخيـط الرفيـع يتراقَـص ويُفْصِـح عنـما بداخلـه.. ربَّمـا أنـا التـي أقـترب مِنـه.. أو هـو الـذي يقـترب.. لسـت أدري.. إنَّـه يبتلعنـي!

موجـات.. نُقَـط نُقَـط نُقَـط نُقَـط.. بيضـاء.. في كل مـكان.. تتفـشَّى

وتتَّسع لتملئ الأرجاء.. قضت تمامًا على الظُّلْمة والكآبة، وأفْرَجَت عن طَلَّةٍ تقع خلفها، صورة بانورامية غير متَّضحة الملامح، غير مكتملة الأركان.. تتغزَّل أمامي شيئًا فشيئًا.. مع انقشاع الظُّلمة، وتفجُّر النُّقَط كالنّجوم البرَّاقة.. أشعر بملمسٍ ناعِم كالحرير، يقودني من يُمناي.. في هدوءٍ أثْلَج صدري.. عدت إلى الشُّعور الكُلي مُجدَّدًا.. لمَّا وجدت نَفْسي مُلْقاة على رِمال شاطيء.. تنحصر عنده أمواج هادئة لبحر رَزين مُمْتَدٌّ إلى ما لا نهاية.. حيث اللَّا أُفق!

لا زلت أشعر بالملمس النَّاعم، يُداعِم يدي.. لكنَّني لا أستطيع رؤيته.. لقد فقدت القدرة على الالتفات!

الرُّقْعة أشبه بِبُسْتان فسيح.. يحمل من أنواع الأزْهار والورود ما لم ترَ عيني قط، ومن أصْناف لعصافير زاهية الألوان لم، ولن، يصل إلى مختبرات العلماء أبدًا لمعرفة هويَّتها، تُغَرِّد في ابتهاجٍ صافٍ، لا أذكر إن كان الوقت ليلًا أم نهارًا.. لم أشعر بالوقت.. نسيت أنَّ هُناك زمنًا.. نسيت أنَّ النُّور لا يمكن إلَّا أن يكون مصدره الشَّمس.. فمِن أينَ يأتي مَصْدر هذا النُّور؟ نورٌ يملئ الأصقاع، ويُضفي راحةً سأظلّ أقسم حتَّى نهاية الزَّمان أنَّني لم أشعر بها في حياتي السَّابقة أبدًا! هُنالك شيءٌ ما نَزَع من نَفْسي كل أحاسيس الحياة.. لا زلت حتَّى الآن أجهل ماهيَّته.. لكنَّه تَرَك لي شعورًا مبهجًا أسالَ دموعي، من فرط الغبطة والنَّشوة!

أشْعُر بدموعي تنهمر من تلقاء نَفْسها.. على خدّيْن لا يُمتَّاني بصلة.. فهذا لم يكن جسدي الذي أعهده.. لكن حينها لم يخطر لي أبدًا أن أُلْقِ نظرةً عليه.. إذ أنَّ بإلقائي هذه النَّظرة.. لهي مُتأتّية من تشكُّكٍ

عَقلي.. وهُنا، في هذا المكان، لم يكن يوجد، نهائيًّا، معنى لمفهومي «التَّشكُّك»، و«العقل»!

إذًا، كيف أُفكِّر؟ لم أعرف أبدًا..

كل ما أعرفه أنَّني كنت مرتاحة، خالية من التَّرَقُّب والانتظار.. أجيل نظري بالبحر الوقور المتهادية أمواجه على شاطيء البُسْتَان، والملمس الحريري لا يزال مرتبطًا بيدي ويأبى ترْكَها.

لم أعرف متى، وكيف، بَزَغ أمامي، على حين غرَّةٍ، وميضٌ هائل الإشعاع، أبْرَق من ومضة البرق، ولا حدَّ له في الرَّحابة والتَّماهي مع كل شيء من حولي: البحر، الأمواج، الأزهار، الوجود الذي رزحتُ فيه كُليًّا، لم يكن له مثيلًا في الجمال، ولا نظير له في راحة العين حين تنْظُر إليه.. إن اعتبرت «الهاء» الأخيرة عائدة على «إليه» بالمعنى الحرفي، البشري للكلمة. صوتٌ ما يهمس لي من الخلف، يطلب منّي برفق أن أُجيل نظري في النُّور العظيم، إذ ارتأيته يدنو مِنّي، بتأنٍّ وهدوء، وأشعر أنَّني، أيضًا، أتحرَّك نحوه، هائمةً، مُشْتاقةً، بلا أقدام، لا يوجد عندي مَفْهوم «عدم الاستيعاب».. لأنَّني كنت أدرك كل ما يحدث لي جيدًا.

وتعانقنا..

لم يكن كيانًا يُعانَق.. ولكن التَّشبيه خانني.. أقصد أنَّني قد تماهيتُ وذُبْتُ فيه.. كأنَّني غرقتُ في محيط من بياض وضَّاح لامع أمْهَق، مُتلألئ كزمرُّد كريستالي أنيق، مَهيبٌ حاويٌ لي. لم أشعر أبدًا أنَّني أود العودة إلى حيثما كنت.. أردت فقط أن أظلّ على هذا الحال.. في هذا الذَّوبان الثُّلاجي الأَغَرُّ. وبغتةً، وللحظة مرَّت سريعة كهبوب ريحٍ

مـن بـين الشُّـجيرات، خاطفـة، جـالَ لي السُّـؤال الـذي لطالمـا شـغلني طيلـة حيـاتي.. أسْرَع مـن الومضـة، حرفيًّـا، يـا بُنـي، لا أعـرف كيـف أصـف لـكَ الأمـر.. لكـن السُّـؤال ارتأيتـه أمـام عينـي.. ثـم اختفـى فجـأة، بهـذه السُّرعـة، واختفـت معـه كل أسْـئلتي الوجوديـة الأخـرى، التـي سـألتها ولم أسـألها. شـعرت أنَّنـي أضحيـتُ عـلى درايـة بـكل شيء، أقسـم لـكَ بـربّي، أنَّنـي عرفـت كل شيء.. كل شيء!! سِر الوجـود، الكـون، الأفـلاك، الكواكـب، الأرض، قطـرات المطـر، أوراق الشَّـجر، النَّباتـات، اليابـس، المـاء، الأزهـار، الطّيـور، الحيوانـات، النُّفـوس، جُزيئـات المـادَّة، النَّـار، الجنـين وهـو يرْقُـد برحـم أمّـه، السَّـموات، الأراضـين، الجنَّـة، التَّاريـخ، الأنبيـاء والرُّسُـل، كل شيء يـا بُنـي.. كُل شيء.. لم أحتـج أن أسـأل.. أبـدًا لم أحتـج، أن أحتـج!

فـاضَ النُّـور مـن حـولي.. كالحِلـم المـشرق.. سـاطعًا مُتألِّقًـا أعـادني إلى حيثـما كنـت.. الشَّـاطيء.. لألتفـت ورائي.. وأتعـرَّف عـلى هويَّـة صاحـب هـذه اليـد الرَّقيقـة.. التـي إن دَلَّـت عـلى شيء.. فتـدلُّ عـلى رقَّـة وحنـان وطيبـة مشـاعر صاحبهـا..

عرفـت وقتهـا.. أنَّـه هـو.. الشَّـخص الـذي هجرتـه كُليًّـا.. لكنَّـه أبـدًا لم يهجـرني.. بأسـاريره الوضَّـاءة شـديدة الحسـن المتـلألأة مثـل قمـر ليلـة البـدر!

إنَّـه رسـولي، وتـاج رأسي، وحبيبـي، مُحَمَّـد صـلَّى اللـه عليـه وسـلَّم.. يبتسـم لي بفيـض مـن الحَنـان، ويهمـس لي بصوتـه الشّـجوي الرَّزيـن:

- «لا تحزني يا أسْرَار.. فإنَّ الله يُحبِّك جمًّا. لا تحزني».

* * *

٣٢

حَشْرجـةٌ ألْجَمـت حلْقـي، فأفقدتنـي، مؤقَّتًـا، القُـدرة عـلى البلـع. عتمـةٌ، نفـق قصـير، في نهايتـه وميـض باهِـت، شـاحِب، كُلَّـما اقتربـت أكـثر.. كُلَّـما زادت الغُصَّـة والحشرجـة أكـثر.. وكُلَّـما اسـتدعتُ قـدرتي عـلى الشُّـعور المـزدوج: الصَّـافي والعكـر، الشُّـعور المُعْـتَرِك الحيـاتي المُقـدَّر لنـا نحـن، البـشر، المتمرّديـن، العصـاة، الـذي نظـنُّ أنَّ بامتلاكنـا الأمـوال.. أو بتحقيقنـا الآمـال.. نصـل إلى أقْـصى درجـة مـن السَّـعادة المفرطـة.. نَنْتَـشي، نَهْنـأ بالحيـاة، ونسْـتهزأ بأنفسـنا، بقولنـا أنَّنـا قـد نِلْنـا مـا أردنـا أخـيرًا، وبلغنـا سـعادتنا النِّهائيَّـة المرجـوَّة. لكنَّنـي يـا بُنـي، أقـول لَـك.. أنَّـك مخـدوع.. سـعادتك هـذه مُجـرَّد وهـم.. سَراب خـدَّاع كـمَا هـي الحيـاة كلّهـا.. مقارنـةً بمـا شـعرت بـه في هـذه الرّحلـة العجيبـة!

مـع كامـل الأسـف، بلغـتُ نهايـة النَّفـق، ووجـدت نَفْـسي أسْـتفيق.. تحـت دِثـارٍ أبيـض يُغطّينـي مـن مِفْـرَق رأسي إلى أخمص قدمـي، يعكس إضـاءةً باهِتـةً، عرفـت أنَّهـا مجـرَّد لمبـة تعيسـة شـحيحة النُّـور.. ببـطءٍ أزَحـتُ الدِّثـار مـن عـلى وجهـي، أحـاول أن أسْـتوعِب المـكان الـذي أتواجـد فيـه.. أسْـتلقي عـلى سريـر صُمِّـمَ لي تمامًـا مـن حيـث الطُّـول والـوزن، وجهـي مُكَمَّـمٌ بجهـاز التَّنفُّـس وسـاعديَّ مُتَّصـلان بجهـاز النَّبـض الكهـربي المسـتقر أعـلى، بجانبـي. أشـعرُ بالـبرد المطلـق، بتعكُّـر المـزاج.. أريـد أن أتقيَّـأ. غرفـة صغـيرة تحـوي فقـط سريـري ونافـذة

مُغْلَقة خلف ستار مَشْدود، وبابٌ خشبيٌّ مُتهالِكٌ مفتوحٌ نِصفه، وخيال لشخصٍ ما يرتدي معطفًا، يقف في طُرْقة خمَّنت أنَّها بجوار الباب مباشرةً، مَحْني رأسه، يحمل بيده شيئًا صغيرًا مُرَبَّعًا كالكُتيِّب، ويتحدَّث إلى شيء ما أمامه...

سُرْعَان ما أدركت أن هذا الشَّيء ليس إلَّا خيالات لشخوصٍ تقف أمام الرَّجل، لم أنْشَب أستوعِب إدْرَاكي، حتَّى عادَت مسامعي للعمل مرَّة أخرى، حين تناهى إليها صرخات وعويل بالخارج، وبكاء ونحيب، ولطم على الخدود، وانبطاح على الأرض، وخيال الرّجل ينْقَشع من على الحائط مُعْلنًا عن مغادرته الطُّرقة.

صحت بكل عزم فيَّ:

- «أنا... هِنا... يا جماعة!».

أدْرَكت مدى الصَّعْقة التي تبدَّت على وجوه عائلتي حين أبصروني مُمَدَّدة على السّرير والغطاء مُنْزاح من فوقي، وجهاز النَّبض الكهربائي يعمل بانتظام، أتت ممرِّضتان، فغرا فاهيهما في اندهاشة طويلة، انبطحت أمّي فوقي في جنون هيستيري، تُقبّلني وتُسيل لعابها الحنون على خدّاي وفمي وجبيني، ومن خلفها سجد أبي إلى الأرض شاكِرًا الله، واضعًا يده على قلبه من شدَّة الألم، وأماني.. عانقتني شقيقتي عناق طويل، أستطيع أن أشعر بقلبها إذ يتراقَص طربًا وفرحًا.. وهدوءًا وسكينةً، بينما مالَ حَسَن إليَّ، ابتسم لي في صفاء، وقال:

- «حمد لله على السَّلامة يا أسْرَار».

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم!!!

صـاحَ الطبيـب المسـؤول عـن حالتـي، واقفًـا عنـد طـرف البـاب، مُسْـقِطًا الكُتيِّـب عـلى الأرض. إنَّنـي أُدْرِك شـعوره كُليًّـا.. فلـم تمـر عليـه سـوى دقيقـة واحـدة عـلى إعـلان خـبر وفـاتي لعائلتـي.. ويجـدني فجـأة، كأنَّـه في حلـم، لا زلـت حيَّـة أُرْزَق.. بعدمـا توقَّـف جهـاز النَّبـض تمامًـا عـن العمـل، وكل المـؤشِّرَات أشـارَت بأنَّنـي، قـد توفَّيـت، فعليًّـا!

أين ذهبت روحي، إذن؟

اللـه، تعـالى، أعْلَـم يـا بُنـي.. لكنَّنـي فعـلًا.. لم أود أن أسـتأنف حيـاتي في هـذا العـالم.. إن كان المـوت هكـذا.. فلـما يهابـه الجميـع بهـذه الطريقـة؟ ولِـما يبـكي النَّـاس بسـببه؟

إن بلغـوا مـا شـعرت بـه.. لأقامـوا احتفـالًا للمُتَـوفِّي بـدلًا مـن العـزاء الكئيب!

* * *

علمـتُ، لاحقًـا، أنَّ الشّـيخ رمَّـاح، قـد توفَّتـه غائلـة المـوت تأثُّـرًا بالصَّاعقـة الكهربائيَّـة التـي تعـرَّض لهـا أثنـاء معالجتـي، حزنـت كثـيرًا عليـه، وبكيـتُ بُـكاءً هيسْـتيريًّا تأثُّـرًا بـه!

ظـلَّ الطَّلْسَـم كـمَا هـو، أسـير المخـزن، وإلى الآن لم يتجـرَّأ أحـد، أصـلًا، عـلى الدُّخـول والكشـف عـن أي أثـر لـه.. فأهـل الحـارَة كانـوا أكـثر جُبْنًـا، مـن أن يتَّخـذوا مِثـل هـذه الخطـوة!

وكذلـك ظلَّـت مَعْرفتـي بـأسْرَار الوجـود، التـي لا أعلـم كيـف ولِـمَ حـدث ذلـك؟ ومـا كينونـة هـذا النُّـور المُشِـع المَهيـب؟ ظلَّـت تلـك الأسـئلة دون إجابـة إلى الأبـد. فحينـما اسـتفقْتُ في المستشـفى، كنـت

أُدْرِكُ تمامًا أنَّني قد تعرَّضت لموجة المعارف الكُلّيَّة تلك، لكن، وكأنَّ صاعقةً حطَّت مُنْهالةً على رأسي، فاتِكَةً بالمعارف نَفْسها، مُلْتَهمة كل ما تعلَّمته من أسرار؛ فلم أستطع أبدًا أن أسْتذْكر السّر وراء نشأة الكون، ومَن هو إلَهنَا؟ ولماذا خُلِقنا من البداية؟ كل هذا قد أجتُثَّ من تَلافيف عقلي فور اجتيازي لنهاية النَّفق المظلم.. وعودة المشاعر المختلطة في غياهبي مرَّةً أخرى!

ثَمَّة شيءٌ ما يهْمس لي، أرى رؤى وأحلام غير اعتيادية، أطياف بيضاء تُحلِّق من حولي، لا تؤذيني أبدًا، لكنَّها فقط تبتسم لي وتُطمئنني بأن أتثبَّت في إيماني بالله، وملائكته وكتبه ورسله وشرائعه، تبثُّ في لُجَّتي راحة أنغمسُ فيها مُنْتَشيةً سعيدةً، وربما هي السَّبب، من بين أسباب أخرى كثيرة حدثت معي لا أستطيع البوح بها، وراء اكتسابي بصيرة التَّنبُّؤ.. لا أدري يا بُني. الأمر فقط مزعج بالنسبة لي.. أن تعرف ما سيحدث غدًا.. مَن سيأتي لزيارتنا.. مَن سيبلغ من عائلتي ما يصبو إليه، ومَن سيخسر كل شيء.. ومَن سيبلغ أجله! هل حقًّا ستتقدَّم مصر إلى العُلا؟ هل ستتحرَّر فلسطين من براثِن الصُّهيونيَّة؟ ما الفائدة من الحياة، والتَّرقُّب، والتَّطلُّع والتَّشغُّف، إن كنت تعرف إجابات هذه الأسئلة مُسْبقًا؟! لا تظنُّ أنَّني أستمتع بها..

فأنا أُعاني يا بُنَي.. أنا حقًّا أُعاني.. وصرت أنتظر يوم وفاتي بفارغ الصَّبر!

خاتمة

في يـوم السَّـبت مـن شـهر ديسـمبر، كانـت فيـه السَّـماء شـاحِبة كئيبـة كامـرأة تنتحـب، أتَتْهَـا خِتـام واقترحـت لهَـا بـأن يذهبـا إلى الخرابـة ليـلًا. مَثَّـل لهَـا هـذا الاقـتراح الغرابـة بعينهـا. فمُنـذ متـى وكانـت خِتـام مُهتمَّـة بالخرابـة؟ وبهـذا الإصرار والإلحـاح عـلى الذَّهـاب معهـا؟ تـردَّدت أسْرَار في بـادئ الأمـر، كثـيرًا.. حتَّـى أنَّهـا لم تُعطهـا ردًّا واضحًـا حتَّـى بعـد انتهـاء اليـوم الـدراسي. الأمـر فقـط غـير مُريـح. أجـل، إنَّهـا مُجـرَّد قصـص لا أسـاس لهَـا مـن الصِّحـة.. ولكـن.. تبقـى مُخيفـة ولهَـا رهبتهـا بالنسـبة لطفلـة صغـيرة!

كذُبابـة سَـخيفة ظلَّـت خِتـام تلـحّ وتلتـف حـول أسْرَار متنقلـة مـن أذنٍ إلى أذنٍ لاقناعهـا بـكل مـا تملـك مـن كافَّـة أسـاليب الاقنـاع، حتَّـى انصاعَـت لهَـا أسْرَار في نهايـة المطـاف، ووافقـت عـلى الذَّهـاب.

وضعـت أسْرَار يدهـا عـلى قلبهـا الـذي لم يلبـث أن ازدادت نبضاتـه، لَـمَّا وقفتـا أمـام الخرابـة، مرهوبـةً، بينـما لم تُبـدِ خِتـام أي رهبـة ولا خـوف.. بـل إنَّهـا أفْصَحَـت عـن ابتسـامةٍ مـا غريبـة، وقادتهـا عـبر بوَّابـة الخرابـة مُنْتَشـيةً: رُكام مـن القمامـة متكـدِّسٌ فـوق بعضـه البعـض يفـضي إلى السَّـماء.. سُرْعـان مـا تسـلَّقته أسْرَار بوجـلٍ، كُلَّـما تصعـد أكـثر، كُلَّـما تشـعر بعـدم الرَّغبـة في مواصلـة هـذه اللُّعبـة السَّـقيمة.. لكـن خِتـام كانـت أقـوى مِنهـا ومـن

إرادتها.. جرَّتها إلى سقف الخرابة.. توغَّلت بها عبر القمامة وبقايا الحيوانات المتعفّنة والرَّوائح المقزِّزة الفوَّاحة، قادتها إلى بُقْعَة مُعيَّنة أزاحَت فيها أكياس القمامة بذراعها، فإذا ببابٍ خشبيٍّ مَتين مُغلَقٌ يؤدّي إلى أسفل!

ابتسمت خِتام، وقالَت:

- «ذاكرتك هتتمحي.. علشان السّر ما ينكشفش.. بعد ما توقَّعي العقد معاهم!».

نظرت لهَا أسْرَار باستغراب انجلى بأساريرها المشمَئِزَّة من الرَّاحة العطنة، لم تُعْطَ الفرصة لكي تتساءل حتَّى، وجدت خِتام تفتح الباب وتقودها إلى الأسفل عبر درجٍ مصنوع من الخشب المصقول، يفضي مُباشرةً إلى غرفةٍ سِريَّة، تتصاعَد منها نغمات شَجوية، وألْحان تَرْنيميَّة غريبة، خفق قلبها بهلعٍ بالغ، كُلَّما اقتربت منها أكثر... فأكثر.. لتُشاهِد أغْرَب مشهد ممكن أن تشاهده في حياتها!

كانت الغرفة كبيرة جدًّا ككهف لا نهاية له، سيئة التهوية حقًّا، مضاءة فقط بأضواء المشاعل والشُّموع، في آخرها، بعيدًا تمامًا عن أسْرَار وخِتام، سبع ساحرات، عاريات تمامًا، يتراقصن وتتواثَب معهنَّ أثداءهنَّ النَّاتئة، يلْتفّين في دائرةٍ كبيرة حول إمرأة مُختالة ثوبٍ أبيض فضفاض، مَكْشوفة الشَّعر، ثابتة القوام، تقف شامخةً، وإن أفْصَحَت ملامحها، بعض الشَّيء، خوفها وفزعها من الموقف التي اضطرَّت لأن تكون فيه.. ظنًّا هكذا أنَّها تُعيد ابنها للحياة!

ابتسمت خِتام، بانَت أسنانها المبقَّعة المُدَبَّبة، أشارت بسبَّابتها نحو المرأة، وقالت لأسْرَار، همسًا، بعينيْن ضيِّقتيْن في شكلٍ مُريب

وُمْفزِع:

- «أهل الحارَة طلعوا على حق، مش كده؟».

* * *

تمَّت بحمد الله

٢٠١٧/١١/١٥

عُمَرْ المَهْدِي

شُكْر خاص

إلى أبـويَّ الرَّوْحيَّـيْن.. مُعلِّمياي ومولجـاي لطيَّـات الخيـال.. فانْتَشَـلاني مـن لُجَّـات الاكتئـاب الحـادَّة، وبِهـما دلفـتُ عالَـمًا آخـرًا سـاحِرًا؛ عالَـم القـراءة والكتابـة..

جون ر. تولكين،

جورج ر. ر. مارتن.

***

شُـكْرًا خاصًّـا موجَّهًـا لكـم، أعـزَّائي قُـرَّاء هـذه الرّوايـة، الـذي مـن دونكـم، مـا كنـتُ لأكتـب عمـلي الثَّـاني هـذا، ومـا كنـت لأسْـعى، مُتَشـغِّفًا عـلى كِتابـة أعـمال أخـرى لاحقـة. أرجـو أن تكونـوا قـد اسـتمْتَعتم بِهـا.. وأنْتظـر نقْدكـم قبيـل أرائكـم الإيجابيـة، ونصائحكـم لي، والأخطـاء التـي ارتكبتهـا، سـهوًا، لأتفاداهـا في العمـل القـادم، بـإذن اللـه.

***

عُمر المهدي:

مـن مواليـد مدينـة الريـاض ١٩٩٧ لأبويـن مصريـين، يـدرس في كليـة الحقـوق قسـم اللغـة الأنجليزيـة.. صـدرت روايتـه الأولى المجتمـع الخفـي عـام ٢٠١٥ ثـم صـدرت لـه روايتـه الثانيـة زي بسـنت عـن دار مبتـدأ للنـشر والتوزيـع، كـما قـام بترجمـة روايـة دُميـان للكاتـب الراحـل هيرمـان هيسـه.

للتواصُل مع الكاتب

الحساب الشَّخصي على الفيسبوك:

https://www.facebook.com/mahdyofficial

الصَّفحة الرَّسمية لرواية «زي بسنت»

/https://www.facebook.com/zybassant

الحساب الرَّسمي على موقع «جودريدز»

https://www.goodreads.com/author/show/13857193.Omar_El_Mahdy

للتوزيع داخل وخارج مصر

Mobtada Bookstore

email: mobtadabookstore@gmail.com

تليفون ٠٠٢٠٢٢٣٩٦١٠٥٥ موبايل ٠٠٢٠١١١٨٢٧٣٥٠٠

٢ شـارع القـاضي الفاضـل، مـن شـارع صـبري أبـو علـم، وسـط البلـد، القاهـرة.